****

**النظم القرآني**

**في**

**سورة الرعد**

**د. محمد بن سعد الدبل**

**أستاذ الدراسات العليا**

**بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

**الطبعة الثانية**

**1431هـ - 2010م**

النظم القرآني

في

سورة الرعد

**د. محمد بن سعد الدبل**

**أستاذ الدراسات العليا**

**بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية**

**الطبعة الثانية**

**1431هـ - 2010م**

**حقوق الطبع محفوظة للمؤلف**

**(ح) محمد سعد الدبل، 1431هـ**

***فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر***

الدبل، محمد سعد

النظم القرآني في سورة الرعد. /محمد سعد الدبل - ط2..–

الرياض، 1431هـ

.. ص؛.. سم

ردمك: 2 - 5019 - 00 - 603 - 978

1- القرآن - سورة الرعد - تفسير 2- القرآن - التفسير الحديث

أ. العنوان

ديوي 237.6 3553/1431

**رقم الإيداع: 3553/1431**

**ردمك: 2 - 5019 - 00 - 603 - 978**



**بسم الله الرحمن الرحيم**

**مقدمة:**

**موضوع البحث - أهدافه - منهجه -**

**مصادره - خطة البحث.**

الحمدلله الذي أنـزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنـزل عليه كتاباً مبيناً بأفصح لسان وأعذب بيان.

ونسألك اللهم عوناً وتوفيقاً فيما نحن بصدده من النهوض بهذا العمل العلمي في خدمة كتابك الكريم، والكشف عن أسرار إعجازه. أما بعد:

فلقد تخيرت سورة الرعد لهذه الدراسة المتواضعة.

فمنذ عهد غير بعيد، وأنا أحس أحساساً عجيباً، بما ضمنه الله تعالى هذه السورة الكريمة التي بسط فيها كثيراً من آياته الدالة على وحدانيته، وعظيم قدرته في ذلك الطراز العالي من جودة النظم، وحسن السبك، وروعة التصوير، وما اشتملت عليه من الوعد والوعيد، ومن الترغيب والترهيب في ذلك الأسلوب المحكم البديع.

ولقد كان إحساسي بهذه السورة صدى لإحساسي بالقرآن الكريم، ونموذجاً لما وقر في قلبي من التعلق بكتاب الله تعالى.

وتوافرت الآمال في خدمة كتاب الله وجعلت تزداد يوماً بعد يوم، منذ تخصصت في الدراسات العربية، ومنذ انحزت في دراساتي العليا إلى دراسة البلاغة العربية وإلى علم الأدب ونقده.

وإذا هذه الآمال التي كانت أشبه بالحلم العميق اللذيذ تصبح بعون الله وتوفيقه حقيقة ماثلة تطبع آثارها على هذه الكلمات التي سطرتها في هذا البحث.

ويعنيني أن أذكر في هذا التقديم أن الموضوع الذي تخيرته للدراسة، وهو سورة الرعد كان موضوعاً بكراً لم تعرض له إلا كتب التفسير والتأويل في جملة ما تعرضت له من تفسير كتاب الله تعالى من أوله إلى آخره. بنهجها المألوف الذي يكشف عن معاني الألفاظ، واستخراج العبر والأحكام من آياته الشريفة. وعند مقاربتي إنجاز هذا البحث وقفت على كتاب ألفه الأستاذ. عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني، ورأيت من واجبي قراءة هذا الكتاب الذي كان موضوعه. سورة الرعد، وانتهيت من قراءته إلى البون البعيد بين منهجي في الدراسة وغايتها، ومنهج صاحب ذلك الكتاب وغايته من تأليفه، ذلك أنني عمدت إلى موضوع واحد، ولكنه في الوقت نفسه موضوع كبير إذ هو تعمق في دراسة ((النظم القرآني)) والإبانة عما يمتاز به ذلك النظم العجيب في تلك السورة الكريمة في حين أن الكتاب المذكور توسع في الشرح والتفسير، وأبان في عبارات موجزة عن البلاغة في هذه السورة.

أما المصادر التي استعنت بها فأهمها كتب التفسير على مختلف مناهجها وتباين رجالها، وأضفت إلى هذه المصادر ما وسعته ثقافتي اللغوية، وثقافتي الأدبية، والبلاغية التي حصلتها من الكتب المعدودة في هذا الشأن، وما وقفت عليه من أعمال كبار العلماء، وبالإضافة إلى ذلك استعنت بطائفة من المراجع الإضافية التي تتصل بموضوع بحثي. وقد أثبت جميع هذه المصادر والمراجع في ثبت مفصل في آخر هذه الدراسة.

أما المنهج الذي سرت عليه فإنه منهج تغلب عليه الدراسة الفنية الجمالية التي تستثير الأذواق، وتنتهي إلى الأحكام الفنية، وبالإضافة إلى ذلك كان منهج الموازنة واحداً من المناهج التي ألزمتني بها طبيعة البحث.

وسيرى المتفحص هذه الدراسة أنها ألمت بكثير من النواحي التي تتصل بنظم الكتاب الكريم، وبأسرار الإبداع في مفرداته المختارة، وتراكيبه المحكمة، ثم معانيه الجليلة، وما يمكن أن يستخلص منها من العبر.

فإذا وجد القارئ شيئا يتصل بتفسير القرآن المجيد، ومحاولة إدراك مقاصده الجليلة، ومراميه الشريفة، فإن ذلك لم يكن المرمى الذي نشطت له فإن هنالك من كتب التأويل والتفسير ما يستطيع أن ينهض بهذا الغرض.

وإنما كان جل قصدي إلى البحث عن النظم في أروع صورة في كتاب الله تعالى، فإن كان للغة وألفاظها وتراكيبها حض غير قليل من العناية فإنها في حقيقتها ليست عناية لغوية بقدر ما هي عناية بالإمعان في النظر إلى كتاب الله وتذوق لحكم آياته، ومحاولة لإدراك سر الإبداع في الاستعمال القرآني للغة العرب، وللتعرف على ما يمتاز به هذا الاستعمال البديع الذي تقصر البلاغة بحدودها المعروفة عن استيعابه، والإحاطة بأطرافه، وذلك ما بذلت فيه جهد الطاقة.

وكثيراً ما كان تذوقي للغة للقرآن يغري بالمضي في الدراسة والإفاضة فيها، وإذا أنا أمام خضم زاخر بآيات الإعجاب والإبداع التي تشحذ الذهن وتسحر القلب، ولكن لكل شيء غاية، ولكل أول نهاية، فاجتزأت بما يسر الله في هذه الصفحات لعل في قليلها ما يغني عن الكثير الذي لا حدود له.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع، ومنهج دراسته أن يسير البحث على تنظيم هذا الجهد في تمهيد تناولت فيه مظاهر العناية بالدراسات القرآنية عند المسلمين قديماً وحديثاً، ويتلو هذا التمهيد أربعة فصول هي لباب البحث على النحو التالي:

الفصل الأول: في معنى النظم، ووجوه الإعجاز في الكتاب الكريم.

الفصل الثاني: عناصر التنظيم في سورة الرعد.

الفصل الثالث: التصوير البياني في سورة الرعد.

الفصل الرابع: خصائص التنظيم في سورة الرعد وغيرها من سور القرآن الكريم.

وأنهيت الدراسة بخاتمة أوجزت فيها خلاصة الجهد الذي بذلته سائلا الله تبارك وتعالى، التوفيق والسداد فهو نعم المولى ونعم المصير.

**محمد بن سعد الدبل**

**الرياض 1/1/1401هـ**

**تمهيد**

**الدراسات القرآنية**

**ومظاهر العناية بها قديماً وحديثاً**

القرآن الكريم كتاب الله ومعجزة نبيه وهو المنبع الأول لجميع الأعمال التي تتصل بالعقيدة الإسلامية، وأحكام الشريعة بما يدخل فيها من العبادات والمعاملات وما يتصل بنظام الأسرة والمجتمع، وحق الفرد على الجماعة. وواجبه نحو نفسه، ونحو غيره ممن يحيا بينهم، وكل ما يتصل بمبادئ الأخلاق وقواعد السلوك وسائر الفضائل التي تميز الإنسان على كل ما خلق الله، وترفعه على غيره درجات، وعلى الجملة فإن القرآن الكريم هو جماع العقيدة والعبادة والفضائل وكل ما يتصل بتوجيه البشر نحو الغاية المثلى التي يتطلعون إليها وهي السعادة التي ينشدها الناس في الحياة الدنيا والآخرة.

\* \* \* \*

وقد كان الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم إمام هذه الأمة القائد والقدوة الحسنة والمعلم الأول الذي اقتدى به المسلمون فحاكوه في الفضائل التي جمله بها ربه، وفي العمل بالأحكام التي نـزلت بها شريعته وفي كل ما يحتاجون إلى إدراكه ومعرفته من أسباب الهداية إلى سبيل الرشاد.

وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي فكان القرآن هو الإمام الذي يأتم به المسلمون ويرجعون إليه في كل أمر فيه صلاح لمعاشهم ومعادهم، رجع المسلمون إلى كتاب الله يحاولون إدراك ما خفي عليهم من مقاصدهم ومراميه، ويستخرجون منه أصول عقيدتهم وأحكام دينهم ويبحثون في طبيعة القرآن للوقوف على أسرار عظمته وأسباب إعجازه فقد عرفوا أنه المعجزة الكبرى لنبيهم صلى الله عليه وسلم، وكذلك التمسوا من القرآن أفصح ما عرف من لغة العرب في مفرداتها وتراكيبها، وفي مظاهر الإبداع التي يختص بها الفن الأدبي الذي برعوا فيه منذ كانت لهم حياة على وجه الجزيرة.

ولذلك كان الكتاب الكريم قبلة الفقهاء، وكان إدراكه غاية أهل التفسير والتأويل، وكان جماله وتفوقه البياني مجال بحث البلغاء والناقدين وكانت مثله العليا في المعاملة والأخلاق والسلوك مجالا للمفكرين من علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع، ونجتزي في هذا المقام بتلك الكلمات القصيرة التي جعلت القرآن الكريم يجذب إليه عقول العلماء والمفكرين في كل واد من أودية الفكر وتستثير أذواق القادرين على تذوق فنون الكلام والموازنة بين روائعه ليخلصوا إلى الغاية التي ينشدونها، وهي إثبات إعجاز الكتاب الكريم.

ويعنينا في هذا المقام أن نشير إلى هذه العناية الكبرى بالقرآن لم تنقطع طوال ذلك الزمن منذ أنـزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى زمننا وستظل تلك العناية موصولة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن أسرار ذلك الكتاب لا تنفد وكنوزه المخبئة لا تنتهي، وستظل الإنسانية تفتش في ذلك الكنـز لتستخرج منه كل يوم جديداً يغذي العقول ويهز المشاعر، ويثير الأذواق، ومن الطبيعي أن تخلف تلك الجهود الموصولة التي بذلها العلماء والعارفون في خدمة كتاب الله تعالى تراثاً حياً يعز على الإحصاء ففي حقل التفسير تزخر المكتبة القرآنية بأمهات الكتب التي منها ما أظهر عناية خاصة بشرح آيات الذكر الحكيم وما يعرض فيها من معنى لفظ أو بيان عظمة أو سرد خبر. كتفسير بن كثير والراغب الأصفهاني في مفردات القرآن وغيرهما.

ومنها ما اختص بذكر أسباب النـزول وبيان الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمطلق والمقيد والمكي والمدني وتفسير آيات الأحكام.

وبيان أنواع القراءات عند من عني بضبط لغات القرآن وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه.

ومن العلماء من اهتم بالنواحي الإعرابية كمحب الدين أبي البقاء العكبري وفي وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، وابن خالويه في كتاب ((إعراب ثلاثين سورة من القرآن)) ومنهم من وجه عنايته إلى التفسير البلاغي كالزمخشري في ((الكشاف)) وعبدالقاهر الجرجاني، والقاضي الباقلاني في مسألة النظم ودلائله.

\* \* \* \*

وكان من أبرز ما عنيت به الدراسات القرآنية قديماً البحث في البيان والإعجاز حتى كان القول في البيان مندرجاً تحت القول بالإعجاز. يقول أبو هلال العسكري في كتابه ((الصناعتين)):((وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التراكيب وما شحنه به من الإنجاز البديع والاختصار اللطيف...)).

((وقد كان البيان وهو من أقدم علوم البلاغة وكان اسمه يطلق على ما يراد منها جميعاً متأثراً في نشأته وتطوره إلى حد بعيد بهذا العامل الديني الجديد. فهو بذلك معدود من حملة العلوم الإسلامية لإبرازه ما في القرآن الكريم. وهو كتاب العقيدة الإسلامية وآيتها المعجزة. من وجوه الجمال التي يمتاز بها عن سائر كلام البشر))([[1]](#footnote-1)).

ولذا تجرد العلماء للعناية بتلك الظاهرة ووسعوا مجال البحث فيها نلحظ ذلك فيما تناوله بعضهم وخصه بالبحث والتأليف كالذي في ((تأويل شكل القرآن لابن قتيبة)) ت 276هـ ((وحجج النبوة)) للجاحظ ((ت 255هـ)) وتناوله المفسرون كالذي في ((جامع البيان للطبري)) ((ت 310هـ)) ومجاز القرآن لأبي عبيدة ((ت 208هـ)) ومعاني القرآن للفراء))([[2]](#footnote-2)).

\* \* \* \*

وهناك نشاط ملحوظ في دراسة بلاغة القرآن الكريم فقد بذل العلماء جهوداً كبيرة في التعرف على بلاغة كتاب الله ((ولم يكن اهتداؤهم إليها أمراً يسيراً فهم قد اعترفوا أن وجوه البلاغة في القرآن يصعب تحديدها لكن هذه الصعوبة لم تمنعهم من محاولة استنباط ما استطاعوا استنباطه من وجوه البلاغة القرآنية حتى اهتدوا إلى معرفة الكثير من نواحي الحسن في القرآن والخصائص التي يمتاز بها سواء كان ذلك من ناحية النظم والتأليف أم كان ذلك من ناحية المرامي والأغراض. نلمس تلك الجهود عند الكثير من الخبراء لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني)) ((ت 386هـ)) وبيان إعجاز القرآن ((للخطابي)) ((ت 388هـ)) الذي عالج فيه موضوع البلاغة بذكر الأقسام الثلاثة للكلام المحمود. مقرراً أن بلاغة القرآن قد أخذت من كل قسم حصة ومن كل نوع شعبة، مناقشاً بعض وجوه البلاغة القرآنية إذ يقول:

((وأما ما عابوه من الحذف الاختصار في قوله سبحانه:﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى**﴾([[3]](#footnote-3)) فإن الإيجاز في موضعه وحذف ما يستغني عنه الكلام نوع من أنواع البلاغة وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحسن لأن المذكور فيه يدل على المحذوف والمسكوت عنه من جوابه ولأن المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به والحذف في مثل هذا بلغ من الذكر لأن النفس تذهب في الحذف كل مذهب([[4]](#footnote-4)) وحصر الأمثلة والوجوه البلاغية في كتاب الخطابي قد يخرج بنا إلى الاستطراد ولذا سنرجئه إذ سيأتي الكلام على رأيه مفصلا عند الحديث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز.

والنظم من صميم الأبحاث البلاغية التي أولاها العلماء عناية فائقة وفي الذروة منهم عبدالقاهر الجرجاني ((471هـ)) أو((474هـ)) الذي استقى من جميع الينابيع التي سبقته واستنار بآراء الذين كتبوا قبله في إعجاز القرآن وبلاغته ولم يكن مقلداً لمن سبقه أو عاصره، ويعد كتاباه ((أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز)) من أمهات الكتب المبتكرة العميقة في الدراسات البلاغية وخاصة فيما يتعلق ببلاغة القرآن وفصاحته والقول في فكرة النظم. تلك الفكرة التي أكدها عبدالقاهر ونادى بها وفلسفها بأسلوبه المنطقي وبفكره الواعي مما لا نجد مجالا لتفصيله في هذا المدخل الموجز.

وقد تناول عبدالقاهر في كتابيه كثيراً من الموضوعات والأبواب البلاغية وعالج مسائلها وقضاياها، وعني بالمعاني ومكانتها في أي عمل أدبي وهو بذلك يكشف عن أسرار بلاغة القرآن وأسباب إعجازه. وليس في الإمكان أن نحصي المسائل البلاغية والأدلة القرآنية التي ساقها هذا العالم وفي ثنايا دراسته القيمة. وسنذكر بعض الأمثلة له عند الحديث عن النظم وأنه وجه من وجوه الإعجاز. والذي يهمنا في هذه العجالة هو اهتمام عبدالقاهر وعنايته القصوى بالبلاغة والإعجاز القرآني التي كانت ذروة لجهود الأعلام من العلماء الذين سبقوه فعنايته قائمة على تحليل النص والكشف عن أسراره ولطائفه والاستشهاد عليه من كلام أئمة البلاغة العربية نثرها وشعرها حتى عدت طريقته الطريقة التحليلية النفسية التي تسمو بالذوق في مدارج البلاغة وفن القول.

\* \* \* \*

ومن جملة من عني بالدراسات البلاغية القرآنية الإمام فخر الدين الرازي ((ت 606هـ)) في كتابه ((نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)) ((وهذا الكتاب واضح التأثير بما كتب عبدالقاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، ومن الممكن القول بأن الدراسة. المستفيضة والبحث المبسوط في هذين الكتابين اختصر في هذا الكتاب)).

وأكثر ما كتبه الرازي في خطبته في فضل علم البيان وأثره في الأدب في إثبات إعجاز القرآن منقولا نقلا يكاد حرفيا مما كتب الجرجاني في مقدمة أسرار البلاغة كما أن أسلوب عبدالقاهر وأفكاره في الأدب والبيان واضحة كل الوضوح في المباحث التي عالجها الكتاب، وفي هذه الخطبة أشاد الرازي بجهود عبدالقاهر في علم البيان فهو الذي استخرج أصول هذا العلم وقوانينه ورتب حججه وبراهينه وبالغ في الكشف عن حقائقه والفحص عن لفظه ودقائقه وصنف في ذلك كتابين لقب أحدهما بدلائل الإعجاز والثاني بأسرار البلاغة وجمع فيهما من القواعد العربية والدقائق العجيبة والوجوه العقلية والشواهد النقلية واللطائف الأدبية والمباحث العربية ما لا يوجد في كلام من قبله من المتقدمين ولم يصل إليها غيره من العلماء الراسخين، ولا يؤخذ عليه إلا أنه أهمل رعاية ترتيب الأصول والأبواب وأطنب في الكلام كل الإطناب، ويعترف بأنه التقط من الكتابين معاقد فوائدهما ومقاصد فوائدهما غير أنه راعى الترتيب مع التهذيب والتحرير مع التقرير وضبط أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية وجمع متفرقات الكلم في الضوابط العقلية من الاجتناب عن الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل([[5]](#footnote-5)).

\* \* \* \*

وكذلك تأثر ابن الزملكاني ((ت 651هـ)) في كتابه ((التبيان في علم البيان)) المطلع على إعجاز القرآن ((بعبدالقاهر وكتابه دلائل الإعجاز الذي وصفه ابن الزملكاني بأنه جمع فأوعي وأنه فك قيد الغرائب بالتقييد، وهدم سور المعضلات بالتسوير المشيد حتى عاد أسهل من النفس..)) ثم يأخذ ابن الزملكاني على كتاب عبدالقاهر بأنه واسع الخطو كثيراً ما يكرر الضبط، فقيد للتبويب طريد من الترتيب يمل الناظر ويعشي الناظر والمتأمل يلحظ التناقص الواضح في أسلوب ابن الزملكاني فهو أسلوب مصنوع نقض في آخره ما بنى في أوله ليجد ذريعة إلى هذا التأليف الذي سهل الله تعالى جمع مقاصده وقواعده وضبط جوامحه وطوارده، مع فرائد سمح بها الخاطر وزوائد نقلت من الكتب والدفاتر.

وينضح لنا أن دلائل الإعجاز هو أصل كتاب التبيان بزيادة مما سمح به الخاطر، وما نقل من الكتب والدفاتر([[6]](#footnote-6)).

على أن هذين الكتابين لم يبلغ واحد منهما ما بلغ عبدالقاهر في كتابه:((لأن الرازي وابن الزملكاني اتجاهاً قاعدياً جافاً فأبعدا البلاغة العربية عن طريقها الطبيعي الذي يقوم على التذوق وتنبيه الإحساس إلى أسرار الجمال في فن القول ومكنا لهذا الاتجاه الذي غلب على بلاغة المتأخرين فأحالها إلى قواعد تحفظ وأقسام تحصى.

\* \* \* \*

وللقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى ((سنة 403هـ)) أثر جليل يدل على حذق الباقلاني للبيان والبلاغة القرآنية. ذلك الأثر هو كتابه ((إعجاز القرآن)) الذي أفاض القول فيه عما يوجه إلى القرآن من المطاعن التي يريد بها أصحابها الغض من شأن الآية الكبرى للنبوة المحمدية، مع ذكر المؤلف جملة من وجوه إعجاز القرآن عند بعض العلماء ويعنينا في هذه العجالة اهتمام الباقلاني وعنايته بالدرس البلاغي للقرآن الكريم فقد أفاض في الحديث عن بدائع القرآن وساق الأمثلة من آياته وعني بمعالجة فكرة النظم في كثير من الآيات بل طبقها على سورتين كاملتين هما سورتا غافر وفصلت.

إلى غير ذلك من الآثار عند القدماء التي خدمت القرآن وكشفت عن أسرار إعجاز وبلاغته ((كالجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي ((ت485هـ)) وبدائع القرآن وتحرير التحبير لابن أبي الإصبع المصري ((ت654هـ)) وكتابه بديع القرآن ((كتاب فريد في بابه حيث جاء في فترة سبقها نضج في الدراسات القرآنية، فحاول ابن أبي الإصبع أن يفيد من جهود سابقيه ويجعل من كتابه مادة تطبيقية لآيات القرآن على ما عرفه من فنون البيان والبديع))([[7]](#footnote-7)).

وقد توافرت الدراسات القرآنية وهي في ماهيتها معين لا ينضب تستقي أمثلتها وشواهدها من القرآن الكريم وآثار السابقين ((كالصناعتين لأبي هلال العسكري)) ((ت395هـ)) وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والمثل السائر لابن الأثير والطراز للعلوي.

ومن كل ما تقدم نستطيع أن نجمل مظاهر العناية بالدراسات القرآنية عند القدماء فيما يلي:

1 - ((إن المتكلمين اتخذوا دراسة البيان أساساً اعتمدوا عليه في دراسة إعجاز القرآن وفهم معانيه ومعرفة أحكامه، وطرق الاستدلال بأساليبه وتعابيره على إثبات الإعجاز والرد على منكريه أو المتشككين فيه)).

2 - إن هذه الدراسات لم تقتصر على الناحية اللفظية وحدها ولا على الناحية المعنوية وحدها، بل هي دراسة موضوعية لا تقف عند النظرة الكلية التي تلقي فيها الأحكام عامة، دراسة واسعة عميقة تتناول الأسلوب بأوسع معانيه فتدرس اللفظ مفردا، وتتناول الجملة ونظم العبارة كما تتناول دلالة اللفظ ودلالة العبارة على المعنى.

3 - أن أصحاب هذه الدراسات نهجوا فيها منهجاً موضوعياً جديداً يعتمد اعتماداً كبير على أسلوب الموازنة بين النصوص المأثورة وبين الأسلوب القرآني.

4 - أنهم جددوا في دراسة البيان العربي بما استخرجوه من القرآن الكريم من فنون بيانية رائعة أضافوها إلى جهود من سبقهم وكانت دراسة عملية يثار فيها جانب العقل والتفكير، وتستثار ملكة الملاحظة وتدرب المواهب حتى كانت دراساتهم صورة حية للدقة في التفكير، والدقة في التعبير ثم طبقوا هذه المعارف على آيات الكتاب الحكيم تطبيقاً يشهد لهم بالذوق المستنير والإدراك الكامل([[8]](#footnote-8)).

\* \* \* \*

وكما فاضت مكتبة الدراسات القرآنية بآثار السلف سارت الطبقة التي خلفتهم في ذلك الطريق الذي رسموه، فرأينا لفيفاً من العلماء في العصر الحديث يجردون أنفسهم ويسخرون أقلامهم لخدمة تلك الدراسات التي نشأ عنها صرح جديد في الدراسات القرآنية. وعلى الرغم من أن جهود المعاصرين في ذلك تعد امتداداً لما خلفه أسلافهم فإن ما أضافوه لا يعدم روح التفكير السليم والذوق الرفيع، ومن جملة تلك الدراسات المعاصرة على سبيل المثال لا الحصر: كتاب ((إعجاز القرآن)) للمرحوم مصطفى صادق الرافعي الذي درس فيه إعجاز القرآن وبلاغته دراسة موضوعية تناول فيها الإطار والمضمون لآيات الكتاب الكريم مبيناً سمو المعنى في كل آية يسوقها وشدة تألف الحروف وانسجامها مع كل لفظة تبني عليها. وأمثلة ذلك الجهد قارة في موضوعها من الكتاب.

وهناك أثر جليل من آثار الدراسات القرآنية المعاصرة للمجاهد الشهيد سيد قطب وهو تفسيره ((في ظلال القرآن)) الذي نهج فيه منهجاً أدبياً رائعاً.

وفسر جميع سور القرآن على نمط رفيع من الأسلوب وكذلك كتاباه:

التصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن.

ولنقف قليلا من كتابه ((التصوير الفني في القرآن)) إذ موضوعه وثيق الصلة ببحثنا هذا، إن طريقته في هذا الكتاب طريقة تقوم على التحليل لنصوص الآيات واستخراج عناصر الجمال فيها والجمع بين البلاغة والنقد إذ يقول في فصل منه تحت عنوان ((كيف فهم القرآن)):((أخذ التفسير ينمو ويتضخم ابتداء من أواخر القرن الثاني للهجرة ولكن هذا النمو بدلاً من أن يبحث عن الجمال الفني في القرآن وتناسقه مع الجمال الموضوعي البالغ حد الكمال، أخذ يفرق في مباحث فقهية وجدلية ونحوية وصرفية وتاريخية وأسطورية! وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مهيأة للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفني في القرآن وربطها بالكمال الموضوعي الذي يتجلى فيه)).

ثم يسوق الأمثلة من القرآن موضحاً فيها طريقة التعبير والتصوير منحياً باللائمة على السابقين الذين صرفوا جهدهم عن استخراج عناصر الجمال في التعبير القرآني فيقول:((انظر إلى التعبير الجميل في قوله تعالى:﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذا التعبير الذي يرسم صورة حية للخزي في يوم القيامة ويصور هؤلاء المجرمين شخوصا قائمة تكاد تبصرها العين لشدة وضوحها وتسجيل هيأتها ((نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ)) وعند من؟ عند ربهم ((ثم هذه الصورة للهول لا تساوي من باحث بلاغي إلا أن يقول:((وأصل الخطاب أن يكون لمعين وقد يترك إلى غير معين وهو في القرآن كثير كقوله تعالى:﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وتستمر التعبيرات المتداولة عن قوم إلى قوم آخرين حول هذا الشاهد وأشباهه من القرآن الكريم.

((وتطوي تلك الصورة الفنية الحية وتنتهي عند العلماء البلاغة إلى القول:((تضعيفاً لحالهم التي تناهت في الظهور([[9]](#footnote-9)) ويمكن القول: بأن تفسير سيد قطب وكتابيه التصوير الفني ومشاهد القيامة كلها تنبع من روح واحدة وتتجه وجهة واحدة في العناية بالدرس القرآني هي الوصول إلى فهم الصورة الفنية في القرآن)).

وبين أيدينا كتاب قيم يعد من المؤلفات الجليلة النفع في الدراسات القرآنية المعاصرة ذلك هو كتاب ((النبأ العظيم)) للدكتور محمد عبدالله دراز. وهو نظرات جديدة في القرآن الكريم عالج فيها المؤلف بلاغة القرآن وإعجازه وتناول كغيره من الباحثين اللفظة القرآنية والتراكيب واستخراج الأسرار البلاغية في القرآن كالذي نجده في قوله:((دع عنك قول الذي يقول في بعض الكلمات القرآني إنها ((مقحمة)) وفي بعض حروفه إنها ((زائدة)) زيادة معنوية ودع عنك قول الذي يستخف كلمة ((التأكيد)) فيرمي بها في كل موطن يظن فيه الزيادة.... أجل دع عنك هذا وذاك فإن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل مستوراً أو مكشوفاً بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن وخذ نفسك أنت بالغوص في طلب أسراره البيانية وقل قولا سديداً هو أدنى إلى الأمانة والإنصاف([[10]](#footnote-10)).

ويمضي المؤلف متحدثا عن القرآن الكريم في بعض من آياته وسوره ثم يتوج بحثه بحديث مفصل عن سورة البقرة.

ومن جملة الدراسات القرآنية المعاصرة كتاب ((البيان العربي)) للدكتور بدوي طبانه. وهو دراسة في تطوير الفكرة البلاغية عند العرب ومناهجها ومصادرها الكبرى. تناول فيه المؤلف بعض الآثار في الدراسات البلاغية قديماً وحديثاً وخصه بحديث مفصل عن القرآن الكريم تحت عنوان ((البيان والإعجاز)) وتناول بالعرض والتحليل بعض مناهج الدراسات البلاغية مقرراً ((أن القرآن الكريم على اختلاف ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب والتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تتبين به الفصاحة وتظهر به البلاغة ويخرج به الكلام عن حد العادة ويتجاوز العرف([[11]](#footnote-11)))).

كما بين المؤلف مدى اهتمام الباحثين بالدراسات القرآنية فيما يتعلق بالقرآن كلمة كلمة وجملة جملة مع ضرب الأمثلة ومناقشتها. وأن القول بإعجاز القرآن كان هو البذرة التي غرسها العلماء فأخرجت دوحة وارفة الظلال في تاريخ التفكير الإسلامي والعربي تتمثل في علوم البلاغة.

ومن بين كتب الدراسات القرآنية المعاصرة كتاب ((من منهل الأدب الخالد)) لمحمد المبارك الذي يعتبر دراسة لاستجلاء بعض الأسرار البلاغية في القرآن، وكتاب التفسير البياني لبنت الشاطئ وكتاب من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوي ونكتفي بذكرها منعاً للاستطراد ولأنه سيأتي الحديث عن بعضها وعن غيرها مما سبق ذكرها حين تعرض الحديث عن النظم وأنه أحد وجوه الإعجاز.

ويمكن تلخيص عناية الباحثين في الدراسات القرآنية الحديثة فيما يلي:

1 - اتجاه هم المعاصرين إلى جميع ما قيل في الإعجاز من أقوال السابقين بطريقة فذة في التناول والعرض والبرهنة والاحتجاج والجدة في المناقشة.

2 - أن معظم هذه الدراسات جمعت بين الدراسة النظرية بتتبع أقوال السابقين وبين الدراسة التطبيقية باستعراض آيات الذكر الحكيم وتحليلها واستخراج عناصر الجمال الفني فيها.

3 - إن هذه الجهود جمعت بين النقد والبلاغة وبإيضاح أسرار القرآن البلاغية التي أغفلها السابقون وإدامة النظر في وحدة القرآن الفنية كما في التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب.

4 - إلحاح المعاصرين في دراساتهم القرآنية على ذكر آيات التحدي ودراساتها دراسة فنية تحليلية، وإدامتهم النظر في فكرة النظم وما يختص منها بنظم القرآن وتجليتهم هذه الفكرة في كثير من الآيات، وعنايتهم الفائقة بتحقق التراث القرآني وجمع بحوثه المتفرقة.

\* \* \* \*

**الفصل الأول**

**معنى النظم**

**الفصل الأول**

**معنى النظم**

**-1-**

القرآن الكريم نور الله في الأرض. والمعجزة الخالدة للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم تحدى به العرب قاطبة، ومفهوم المعجزة أنها: أمر خارق للعادة خارج عن طوق البشر مقرون بالتحدي سالم من المعارضة. يظهره الله على يد رسله، وأنها: أمر خارج عن حدود الأسباب المعروفة يؤيد الله بها من يصطفيه من عباده لحمل رسالته إلى البشر، لتكون شاهداً على صدقه.

وقد أودع الله في كتابه الكريم كل ما فيه صلاح أمر الآدميين وما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، فكان طبيعياً أن يشتمل على وجوه كثيرة في الإعجاز.

وقد أكثر العلماء والدارسون من البحث عن وجوه إعجاز القرآن وخلفوا تراثا ضخما يشتمل على ما اهتدوا إليه من هذه الوجوه، منهم من زاد ومن نقص، ومنهم من قصر جهده على البحث في الدرس القرآني ليدمغ الحجج الواهية فيما يوجه إلى القرآن الكريم من شبه ومطاعن في ألفاظ ومعانيه. وأحكامه وإعجازه. ولم يزل القرآن حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين.

والمتتبع لوجوه الإعجاز وآراء العلماء فيما يجد بعضها يتدخل أو يتقارب فمثلا من عد غرابة الأسلوب وجهاً، والفصاحة وجهاً، والبلاغة وجهاً ثالثاً، والتأثير في السامعين وجهاً رابعا نستطيع أن نجعل كل هذه الوجوه مما له علاقة بالأداء والبيان تحت وجه واحد هو الإعجاز البياني، وقل مثل ذلك في الغيوب الماضية والحاضرة والمستقبلة إذ يجمعها الغيبي.

وفي استطاعتنا أن نجمع الوجوه التي ذكرها السابقون. وتناولها اللاحقون بالبحث والزيادة تحت خمسة وجوه هي:

1 - الإعجاز البياني.

2 - الإعجاز العلمي.

3 - الإعجاز الغيبي.

4 - القول بالصرفة.

5 - الإعجاز بالنظم.

وهذه نبذة سريعة عن كل وجه([[12]](#footnote-12)\*):

الإعجاز البياني: وينتظم الأسلوب الفريد الذي يتميز به القرآن الكريم على سائر كلام البشر شعراً ونثراً، بانتقاء الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، وقد تواضع العرب قديماً وحديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف حتى كان من خصائص هذا الأسلوب الفريد تعمده الطريقة التصويرية في التعبير، والتناسق بين المدلول والعبارة، وارتفاع التفاوت في طبيعته الزاهية وثوبه القشيب، وتلك الخصائص الجديرة بالتأمل والتدبر لذا جعلها الله منارا على مصدر القرآن ومعلماً يستدل على كونه من عند الله تعالى:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)﴾.

وقد انتظم هذا الوجه من الفصاحة أعلاها ومن البلاغة أشرفها، يقول الإمام الخطابي (ت388هـ):((إن أجناس الكلام مختلفة ومراتبها في نسبة البيان متفاوتة ودرجاتها في البلاغة متباينة غير متساوية فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السهل ومنها ومنها... وهذه أقسام الكلام المحمود.... فحازت بلاغة القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة فانتظم له بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة وكان منها آية بينة للنبي الكريم ودلالة واضحة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه([[13]](#footnote-13)))).

الإعجاز العلمي:((وقد سلك القرآن الكريم في هذا الوجه طريقة الاستدلال على خالق الكون ومنشئه استدلالا فطرياً يتناسب مع جميع العقول والإفهام فتحدثت آية عن كل ما يحيط بالإنسان من عجائب هذا الكون تحدث عن الأرض والسماء، والليل والنهار، والشمس والقمر. وعن الجبال والبحار والرياح والنبات والحيوان، وعن الإنسان نفسه ذلك الآدمي الذي يسخر تلك المخلوقات فيما يزود به معاشه بقدرة الخالق الحكيم كما أشار القرآن إلى حقائق أماط اللثام عن الحكمة من وجودها، أشار إلى حقائق تارة بالتلميح، وتارة بالتصريح، ومرة بالإجمال، وأخرى بالتفصيل، وهو بهذه الطريقة لا يخرج عن هدفه الأساسي الذي هو هداية الناس إلى الصراط المستقيم فليس القرآن كتاب كيمياء أو كتاب فلك وطبيعة ولا ينبغي أن نتوقع منه أن يسوق لنا الحقائق العلمية مفصلة كاملة كما يفعل أي مرجع علمي مختص، ولكنه يسوق الآيات الدالة على وجود الله تعالى طالباً التدبر والتفكر والإيمان:

((﴿**قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ** **(9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ** **(10)**﴾)) ((﴿وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾)) ((﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾)).

الإعجاز الغيبي: ووجهه اشتمال القرآن الكريم على أنباء الغيب مما كان خافياً على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يشهد حوادثه ولم يحضر وقتها، ولم يكن على علم بتفصيلات تلك الحوادث ولم يقرأ كتابا في ذلك، ويدخل في هذا المفهوم كل ما ورد في القرآن عن بداية نشأة الكون.. وما وقع وحدث منذ خلق الله السماوات والأرض حتى بعث الله في الأميين رسولا نعم ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير، وكذلك يشمل ما غاب عن النبي صلى الله عليه وسلم في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي كإخبار الله له بما يدبره اليهود والمنافقون، ويشمل الأخبار عن الأحداث في مستقبل الزمان وبالتالي يشمل غيب الماضي وغيب الحاضر. وغيب المستقبل فعن الأول يقول القرآن الكريم:﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وعن الثاني يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (8)﴾ وعن غيب المستقبل يقول تعالى:

﴿**الم** **(1) غُلِبَتِ الرُّومُ** **(2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ** **(3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ** **(4)**﴾.

وقد حدث ما أخبر به القرآن الكريم. فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين. ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب([[14]](#footnote-14)).

ومن وجوه الإعجاز عند بعض الفرق من أهل الكلام: القول بالصرفة فقد رافق القول بإعجاز القرآن الكريم، بل كان هذا الرأي هو الباعث الأول للبحث في وجوه الإعجاز وأول من قال به وذهب إليه أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام فقد ((ذهب إلى أن الله سبحانه صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للعادة)).

وقال المرتضي من الشيعة إن معنى الصرفة أن الله سليب العرب العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. فكأن مراد المرتضي من هذا المعنى أن العرب بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من المعاني إذا لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم([[15]](#footnote-15)))) وما قاله بين الخلط لا قبل لعاقل به فإن العرب أهل علم بالفطرة وليس غيرهم ممن أخذ عنهم بأقدر وأعمق في العلوم ولا بأوسع في التفكير. وهم المتحدون الأولون وغيرهم داخل في جملتهم بل التحدي لعلوم من خلق الله من الجن والإنس.

\* \* \* \*

ومثل هذا الرأي قال به ابن سنان الخفاجي في كتابه ((سر الفصاحة)) إذ يقول:((وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة في وقت مرامهم ذلك.... ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه([[16]](#footnote-16)))).

والمتتبع لأقوال أهل الصرفة يلقي مذهبين أحدهما لطائفة تقول:

بصرف الإرادة والتوجه إلى المعارضة ولو توجه العرب لاستطاعوا معارضة القرآن والثانية تقول بسلب العلوم ولو توجه العرب لما استطاعوا.

ونبرأ إلى الله سبحانه عن كل ما قالوا فجميع ما ذهبوا إليه محط آراء فاسدة ونفوس خبيثة وعقول سقيمة لاتعرف إلا الجدل والمكابرة والعناد.

فكتاب الله سبحانه مفتوح الدفتين لمن أراد التدبر والتفكير لم يصرف عن التبصر فيه أحد لكن من حدثته نفسه بمعارضته سيقضي العمر في طلب المجال فالله سبحانه يقول:((﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)﴾)) والقرآن كلام الله العزيز الحكيم لا قوة خارقة ولا حكمة بالغة إلا له فثبت الإعجاز لعدم القدرة الثقلين ونقص طاقتهم البشرية وسبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض.

الإعجاز بالنظم: وهذا الوجه يجب أن نفصل القول فيه إذ هو محك هذا البحث وصميمه. عارضين لطائفة من أقوال العلماء والمتكلمين ممن تناوله بالبحث والدراسة.

ولا شك أن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف المتداول في لغة العرب قديماً وحديثاً، وعندما نتلوا آيات الله نشعر أن للعبارة القرآنية كياناً خاصاً يبني عليه تركيب الجملة لرسم معالم الصورة الفنية للنظم القرآني الفريد الذي لا يتفاوت ولا يتباين.

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)﴾.

وبعد هذه الإشارة إلى أهم الأقوال التي قيلت في وجوه الإعجاز نخلص إلى أنه ليس لباحث أن يقصر وجوه الإعجاز على ما ذكره السابقون، فإن القرآن الكريم ((معجز في تاريخه دون سائر الكتب، ومعجز في أثرة الإنساني ومعجز كذلك في حقائقه، وهذه وجوه عامه لا تخالف الفطرة الإنسانية في شيء فهي باقية ما بقيت([[17]](#footnote-17)))).

وإذ قد وعدنا سلفاً بتفصيل القول في الإعجاز بالنظم وعرض لطائفة من أقوال العلماء في ذلك فلنتبين مفهوم ((كلمة النظم)) واستعمالها عند أصحاب اللغة وعند علماء البلاغة والأدب والمتكلمين وبعدها نشير إلى ما ذكرنا.

**- 2 -**

إذا تتبعنا مادة ((نظم ومشتقاتها في معاجم اللغة وجدنا أن العرب استعملت هذه المادة في معنى التأليف وما يراد فيه، فقد جاء في ((لسان العرب)):

1 - النظم: التأليف - نظمه ينظمه نظماً ونظاماً، ونظمه فانتظم وتنظم.

2 - ونظمت اللؤلؤ: أي جمعته في السلك والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر وتنظمنه الأمر في المثل.

3 - وكل شيء قرنته بآخر أو ضممت بعضه إلى بعض فقد نظمته.

4 - النظم: المنظوم وصف بالمصدر.

5 - النظم: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما واجدته نظمه.

6 - ونظم الحنظل: حبه في صيصائه([[18]](#footnote-18)).

7 - النظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره، ونظام كل أمر ملاكه والجمع أنظمه وأناظيم ونظم.

8 - النظم: نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد كذلك هو في كل شيء حتى يقال: ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته.

9 - النظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ وكل خيط ينظم به اللؤلؤ فهو نظام وجمعه نظم قال الشاعر:

. مثل الفريد الذي يجري من النظم([[19]](#footnote-19)).

10 - الانتظام: الأنساق، وفي حديث أشراط الساعة ((وآيات تتابع كنظام بالقطع سلكه)).

11 - النظام: العقد من الجوهر والخرز وغيرهما وسلكه وخيطه.

12 - النظام: الهدية والسيرة. ومنهم ليس لأمرهم نظام أي ليس له هدى ولا متعلق ولا استقامة، وما زال على نظام واحد أي عادة.

13 - تناظمت الصخور: تلاصقت.

14 - والنظامان من الضب: كشيتان منظومتان من جاني كليتيه طويلتان.

15 - ونظاما الضبة وأنظامها: كشيتان وهما خيطان منتظمان بيضا يبيدا جنبيها من زنيها إلى أذنها، ويقال: في بطنها أنظامان من بيض وكذلك أنظاما السمكة حكي عن أبي زيد ((أنظومتا الضب والسمكة)) وقد نظمت ونظمت بالشديد، وانظمت وهي ناظم ومنظم ومنظم ذلك حين تمتلئ من أصل ذنبها بيضا. ويقال نظمت الضبة بيضها تنظيما في بطنها ونظمها نظماً وكذلك الدجاجة أنظمت إذا صار في بطنها البيض.

16 - والانظمام: نفس البيض المنظم كأنه منظوم في سلك.

17 - والانظمام: من الخرز خيط قد نظم خرزاً، وكذلك أناظيم مكمن الضبة.

18 - ويقال جاءنا نظم من جراد، وهو الكثير.

19 - ونظام الرمل وأنظمته: صفرته وهي ما تعقد منه.

20 - ونظم الحبل سكه وعقده.

21 - ونظم الخواص المقل ينظمه شكه وظفره.

22 - والنظائم شكائك الحبل وخلله.

23 - وطعنه بالرمح فانتظمه أي اختله.

24 - وانتظم ساقيه وجانبيه كما قالوا: اختل فؤاده أي ضمها بالسنان وقد روي:

. لما انتظمت فؤاده بالمطرد.

قال أبو زيد:((الانتظام للجانبين والاختلال للفؤاد والكبد)) وقال الحسن في بعض مواعظه:((يا ابن آدم عليك بنصيبك من الآخرة فإنه يأتي بك على نصيبك من الدنيا فتنظمه لك انتظاماً ثم يزول معك حيثما زلت)).

25 - وانتظم الصيد: إذا طعنه أو رماه حتى ينقده. وقيل:((لا يقال انتظمه حتى يجمع رميتين بسهم أو رمح)).

26 - والنظم: الثريا على التشبيه بالنظم من اللؤلؤ. قال أبو ذؤيب:

فوردن والعيوق مقعد رابئ الظرباء فوق النظم لا يتتلع

27 - والنظم أيضاً: الديران الذي يلي الثريا([[20]](#footnote-20)).

وأورد الزمخشري في أساس البلاغة:

1 - نظم وانتظم رواه بسهم وطعنه فانتظم ساقيه أو جبينه قال الأفوه:

تجلي الجماجم والأكف سيوفنا ورماحنا بالطعن تنظم الكلي

2 - وجاء نظم من جراد. ونظام منه نصف.

3 - ونظمت النخلة قبلت اللقاح، وخردلت إذا لم تقبل.

4 - نظم يقال نظمت الدر ونظمته، ودر منظوم ومنظم، وقد انتظم وتنظم، وبناظم. وله نظم منه ونظام ونظم، ومن المجاز نظم الكلام. وهذا نظم حسن. وانتظم كلامه وأمره.

5 - وليس لأمره نظام، إذا لم تستقم طريقته، تقول هذه أمور عظام لو كان لها نظام.

6 - وهذان البيتان ينتظمهما معنى واحد.

7 - ونظمت الضبة والسمكة ونظمت فهي ناظم ومنظم امتلأت من البيض في بطنها أنظامان وهما الكيشتان، وأناظيم([[21]](#footnote-21)))).

وفي المعجم الوسيط ورد من معاني مادة ((نظم)):

1 - نظم الأشياء: ألفها وضم بعضها إلى بعض.

2 - وانتظم الشيء تألق واتسق.

3 - والنظام: الترتيب والاتساق.

4 - ونظم القرآن:((عبارته التي تشمل عليها المصاحف صيغة ولغة))([[22]](#footnote-22)) وفي الصحاح للجوهري:

1 - المنظمة والتنظيم: تأليف أجزاء متآزرة لأداء غرض معين. أو المجموع المؤلف على هذا النحو.

2 - والمنظمة والتنظيم: سلوك الطرق والأسباب العلمية في إنشاء الوحدات الإدارية لمشروع ما، وتحديد الاختصاصات وتوزيعها، وربط الإمكانيات المادية والمالية والبشرية والتنسيق فيها لتنفيذ المشروعات العامة.

3 - المنظمة والتنظيم: فن يرمي إلى تنظيم المعرفة منهجياً على أسس منطقية([[23]](#footnote-23)).

وأورد الفيروز أبادي في القاموس المحيط:

1 - النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر، والمنظوم، والجماعة من الجراد، وثلاثة كواكب من الجوزاء، والثرياء، والدبران.

2 - ونظم اللؤلؤ ينظمه نظما ونظاما، ونظمه ألفه وجمعه في سلك فانتظم وتنظم.

3 - وانتظمه بالرمح. اختله.

4 - النظام: كل خيط به اللؤلؤ ونحوه، جمعه أنظمة، وأناظيم، ونظم.

5 - النظام: ملاك الأمر، والسيرة، والهدى والعادة.

6 - ونظاما السمكة والضب، وإنظاماهما، بالكسر، وانظمتاهما بالضم خيطان منظومان بيضا من الذنب إلى الأذن.

7 - الإنظام: نفس البيض المنتظم، ومن الرمل ما تعقد منه كنظامه، وكل خيط نظم خرزاً.

8 - النظام: لقب إبراهيم بن سيار النظام، محمد بن عبدالجبار الشاعر الأندلس([[24]](#footnote-24)).

وفي جمهرة اللغة لابن دريد:

1 - النظم: نظمك الخرز وغيره، ونظم ينظم نظماً نظاماً ونظم تنظما.

2 - النظام: كل شيء منظوم.

3 - النظم: كواكب في السماء تسمي النظم. وهي من نجوم الجوزاء.

4 - ويقال:((انتظمت الصيد: إذا لحقته أو رميته حتى تنقده. وقال بعضهم لا يقال انتظمته حتى تجمع بين رميتين بسهم أو برمح))([[25]](#footnote-25)).

وفي تهذيب اللغة للأزهري:

1 - النظم: نظمك الخرز بعضه إلى بعض في نظام واحد، كذلك هو في كل شيء حتى يقال ليس لأمره نظام أي لا تستقيم طريقته، حتى يقال: طعنه بالرمح فانتظم ساقيه أو جنبيه.

2 - النظامان من الضب: كشيتان من الجانبين منظومتان بيضا من أصل الذنب إلى دبرة الأذن، وكذلك الإنظامان يقال: في بطنها إنظامان من بيض وكذلك أنظاما السمكة، يقال: نظمت فهي منظم، ونظمت فهي ناظم وذلك حين تمتلئ من أصل أذنها إلى ذنبها بيضا، وكذلك الدجاجة تنظم.

3 - ويقال: نظمت الضبة بيضها تنظيما في بطنها. ونظمته نظماً.

4 - الإنظام من الخرز خيط قد نظم خرزاً وكذلك أناظيم مكن الضبة.

5 - وقال الكسائي: جاءنا نظم من جراد وهو الكثير.

6 - والجماعة نظم.

7 - النظمة: كوكب الثريا([[26]](#footnote-26)).

تلك المعاني التي استقصيناها من أهم معاجم اللغة للفحص عن مادة ((نظم)) توضيح المعنى الأصلي الذي كان العرب يستعملون فيه هذه المادة.

وهذا المعنى يبدو في ظاهره متعدداً فهو يتناول الماديات والمعنويات كما مر معنا، إذ أن من معاني النظم عند العرب نظم اللؤلؤ في الخيط والخيط نفسه، ومنه معنى الاتساق والائتلاف بين الأمور المعنوية كقولهم: النظم الشعر الحسن، والنظم المنظوم وصف بالمصدر ونظام كل أمر ملاكه ومنه ليس لأمرهم نظام أي لا تستقيم طريقته.

وأهم تلك المعاني يدور حول معنى الاتساق والائتلاف. وما ذكر أولئك اللغويون يعيد إلى الأذهان ما ذكره قدامه بن جعفر في كتابه نقض الشعر ((عن الائتلاف بين اللفظ والمعنى وبين اللفظ والوزن وبين المعنى والقافية([[27]](#footnote-27)))) وهذا يعيننا على رد تلك المعاني إلى المدلول الأصلي لمادة ((النظم)) الذي يوحيه مفهومها وهو الاتساق والائتلاف والتناسب بين الأجزاء فإن نظم اللؤلؤ في الخيط يستوجب التناسب في أحكام الصنعة ليبدو العقد سليما في مظهره، وكذلك نظم الكلام يتطلب دقة الأحكام ووضع كل لفظة بجانب أختها صنيع ناظم اللؤلؤ وحائك الخيوط.

وإذا أردنا تتبع معنى هذه المادة عند الأدباء والبلاغيين وجدنا لهذه اللفظة معاني كثيرة بعضها يتحد مع المعنى الذي بينه اللغويون، وبعضها يرمي إلى معنى آخر.

فهي عند الجاحظ ترد مرادفه للتأليف، نلحظ ذلك المعنى في معرض حديثه عن القرآن إذ يقول:((إن الرسول صلى الله عليه وسلم تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه، وتأليفه)).

وعنده في بعض المقامات الأخرى ترد بمعنى ((البيان والإنشاء))([[28]](#footnote-28)).

وعقد أبو هلال العسكري في ((الصناعتين)) باباً سماه ((حسن النظم)) بين فيه معنى النظم بأنه:((التأليف والرصف والضم))، إذ يقول:((وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في موضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام ولا يعمي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفقها. وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها ومخالفة الاستعمال في نظمها.

ويستطرد أبو هلال في شرح معنى النظم، وأنه جودة الرصيف وحسن السبك بضرب الأمثلة قائلا:

فمن سوء النظم المعاظلة، وأصلها من قولهم: تعاظلت الجرادتان إذا ركبت إحداهما الأخرى، وعاظل الرجل المرأة كذلك. ومن المعاظلة قول الفرزدق:

تعالى فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

وقوله:

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليب تصاهره

وقوله:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

قال: ومن الكلام المستوي النظم، الملتئم الرصيف قول بعض العرب:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً؟ كأنك لم تجزع على ابن طريف

فتي لا يحب الزاد إلا من التقي ولا المال إلا من قنا وسيوف

والمنظوم الجيد ما خرج مخرج المنثور في سلاسته وسهولته واستوائه وقلة ضروراته، من ذلك قول بعض المحدثين:

وقوفك تحت ظلال السيوف أقر الخلافة في دراها

كأنك مطلع في القلوب إذا ما تناجت بأسرارها([[29]](#footnote-29))

وأمثلة أبي هلال كافية في إيضاح ما أورده عن معنى النظم الذي منه حسن السبك، وجودة الرصيف، والتئام أجزاء الكلام فإن ما ذكره من الأبيات لا تكاد تجد فيها ما يخرجها عن النظم الحسن التأليف.

وتجد معنى النظم عند ابن سنان الخفاجي ((ت 466هـ)) ضم الشيء إلى الشيء، وهذا يخالف ما ذكره أبو هلال عن معنى هذه المادة، إذ أن النظم بمعنى ضم الشيء إلى يدخل فيه كل كلام منظوم خاضع لقوانين الأسلوب العربي أو غير خاضع، كما سنلاحظ ذلك عند الحديث عن معنى النظم عند عبدالقاهر الجرجاني وتتبع قوله فيه.

والنظم عند عبدالقاهر: نظير النسج والصياغة والبناء والوشي والتحبير مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، ولذا يجيء النظم عنده بمعنى الترتيب وترتيب الألفاظ في العبارة على حذو ترتيب معانيها في الذهن، بل النظم في حقيقته عند عبدالقاهر ترتيب للمعاني في النفس، فلا بد أن يكون الهدف من هذا الترتيب صورة وصنعة إذا لا يكون ترتيب في شيء كما يقول عبدالقاهر - حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة، وهذا القول يقضي بنا تتبع فكرة النظم عند هذا العالم إذ هي محور بحوثه البلاغية والنقدية، فما معناها وما مفهومها عنده.

زيادة على ما مر ذكره عن معنى النظم عند عبدالقاهر نلحظ أن من معانيه أيضاً ((التعليق)) إذ يقول:((وليت شعري كيف يتصور وقوع قصد منك إلى معنى كلمة من دون أن تريد تعليقها بمعنى كلمة أخرى)).

ومعنى القصد إلى معاني الكلم أن تعلم السامع شيئاً لا يعلمه، ومعلوم أنك أيها المتكلم لست تقصد أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها فلا تقول خرج زيد لتعلمه معنى خرج في اللغة ومعنى زيد كيف؟ ومحال أن تكلمه بألفاظ لا يعرف هو معانيها كما تعرف ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم، ولا الاسم وحده من دون اسم آخر أو فعل كلاماً. وكنت لو قلت ((خرج)) ولم تأت باسم، ولا قدرت فيه ضمير الشيء أو قلت زيد ولم تأت بفعل ولا اسم ولم تضمره في نفسك كان ذلك وصوتاً تصوته سواء))([[30]](#footnote-30)).

\* \* \* \*

وفكرة النظم عند عبدالقاهر تقوم على أسس ومعالم من أبرزها علم النحو لاشتماله على الألفاظ والتراكيب إذ يقول:((النظم توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام)) ومعاني النحو إذاً هي التي يتعلق بها الفكر وهي تمثل العلاقات بين معاني الكلم في النفس وإليها ستند ترتيب هذه المعاني في النفس، ((ولا يتصور أن يكون للفظة تعلق بلفظة أخر من غير أن يعتبر حال معنى هذه مع معنى تلك ويراعي هناك أمر يصل إحداهما بالأخرى كمراعاة كون ((نبك)) جواباً للأمر في قوله:((قفا نبك)).

وكأن تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر أو تتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيداً له أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون التالي صفة أو حالا أو تمييزاً أو تتوخي في كلام هو لإثبات معنى: أن يصير نفياً، أو استفهاماً، أو تمنياً فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطاً في الآخر، فنجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى أو بعد اسم من الأسماء التي ضمنت معنى ذلك الحرف. وعلى هذا القياس. ذلك هو معنى النظم فلا نظم في الكلم ولا ترتيب إلا بأن يصنع بها هذا الصنيع ونحوه([[31]](#footnote-31)).

ويمضي عبدالقاهر في شرح فكرة النظم قائلا ما معناه:((إذا كان النظم درجات يمكن أن ترد إلى درجتين أساسيتين، الأول: لا تكاد تتعدي مرحلة الصحة والصواب، والآخر تتعدي هذه المرحلة إلى مناط الفضيلة ((فليس النظم على كلتا الدرجتين كما يقول عبدالقاهر إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل منها بشيء، وذلك أنا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق، وينطلق زيد، منطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد.. وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج. وأن خرجت خرجت وأن تخرج فأنا خارج وأنا خارج إن خرجت.... وفي الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلام من ذلك في خاص معناه وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من مواضع الوصل ثم يعرف فيها حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء.. إلخ.. ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله وفي الحذف والتكرار والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له)) هذا هو السبيل فلست بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صوباً وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم إلا هو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه واستعمل في غير ما ينبغي له فلا تر كلاماً قد وصف بصحة نظمه أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وكان مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، وإلا وجدت ذلك الوصف يدخل في أصل من أصول النحو ويتصل بباب من أبوابه.

ودرجات النظم التي لا تتعدي دائرة الصحة إلى دائرة الفضائل والمزايا مرجعها عند عبدالقاهر حسن التخير في دائرة الحدود التي حدها النحو إلى اهتداء الناظم إلى الأولى والأفضل وما يلائم المقام من معاني النحو.

وإذا حسن تخير معاني النحو في الكلام وتوخي الملائم منها للمقام اتحدت أجزاء الكلام ودخل بعضها في بعض واشتد ارتباط ثاني منها بأول ووضعت في نفس السامع وضعاً واحداً لا تفرق فيه فكان حال القائل لمثل هذا الكلام حال الباني يضع بيمينه هنا في حال ما يضع بيساره هناك.. وليس لما من شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد بحصره وقانون يحيط به))([[32]](#footnote-32)).

وهكذا يفصل عبدالقاهر في فكرة النظم على ما هو معروف في علم النحو من أن الكلام اسم وفعل وحرف وللتعليق بينها طرق معلومة، ويتوسع في مفهوم هذه الفكرة فيجعل ((الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من مقتضيات النظم وعنها يحدث وبها يكون لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو فلا يتصور فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره، ويرى أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته من ذلك قول الله تعالى:﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾. فالمزية الجليلة في هذا لا ترجع إلى مجرد الاستعارة ولكنها ترجع إلى المجيء بالاستعارة على طريق ما يسند فيه الفعل إلى الشيء... إلخ.

وإذا كان هناك من ملحوظة على عبدالقاهر في شرح فكرة النظم وجعلها بسبب وثيق من النحو ((فذلك أنه لم يقف عند معاني النحو يبين أسرارها ووجه جمالها في معظم ما عرض من الأمثلة، فإذا كان فيما جاء به من الأمثلة أن النظم هو توخي معاني النحو. فإنه لم يشرح معنى هذا التوخي ولا سر جماله، فهل كانت المسألة من الوضوح عند عبدالقاهر إلى درجة لا تحتاج منه إلى شرح وتبيين. كيف؟ وهو يهدف منها إلى الإقناع بإعجاز القرآن بنظمه وهل يقتنع منكر الإعجاز بأن نقول له أن الكلمة مبتدأ وتلك خبر عنها وهذا فعل وذاك فاعل له([[33]](#footnote-33)).

ولا شك أن عبدالقاهر في كلامه هذا إنما يقصد كلام البشر الذين يتوخون مثل هذه المقاصد ويتعلمون لها ويؤلفون كلامهم على حذوها.

وليس كذلك القرآن الكريم الذي لا تعمل فيه لأنه تنـزيل من رب العالمين ينتظم التراكيب ومعانيها من غير حاجة إلى ما يحتاج إليه البشر في نظم العبارة أو تأليفها.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المقام ((أن فكرة النظم عند عبدالقاهر ابتدأت بنظرة فلسفية في اللغة حيث تحدث عن دلالات اللفظ وحكمه في المواضعة، وتأثيره مفرداً ومركباً، ثم انتهي إلى الذوق الشخصي الذي هو المرجع الأخير لكل باحث ودارس([[34]](#footnote-34)))) وهذه الفكرة عنده ترتكز على دعائم ثلاث:

اللفظ، المعنى، الذوق.

((وعنده أن دراسة النظم لا تقف عند أمر الصحة وعدمها بل تتعدي إلى الجودة. وبعبارة أخرى: يمزج عبدالقاهر النحو بما سماه البلاغيون فيما بعد علم المعاني))([[35]](#footnote-35)).

وقبل أن نتجاوز فكرة النظم عند عبدالقاهر إلى غيره، يجدر بنا أن نشير إلى أن هذه الفكرة لم يكن عبدالقاهر مخترعاً لها ومبتكراً، ولكنه بسط القول فيها وألبسها ثوباً قشيباً، فقد سبقه إليها: أبو عبدالله محمد ابن زيد الوسطي (ت 307هـ) الذي ألف كتاباً سماه:((إعجاز القرآن في نظمه)) وهذا الكتاب مفقود لا يذكر عنه الباحثون شيئاً سوى اسمه واسم صاحبه، إلا ما كان من ((الرافعي)) في كتابه ((إعجاز القرآن)) إذ يقول عن الكتاب الواسطي:((ولأظن الواسطي بني إلا على ما ابتدأه الجاحظ. كما بني عبدالقاهر في ((دلائل الإعجاز)) على الواسطي. والرافعي بهذا القول كالمطلع على الكتاب ذاته، ولست أدري على أي شيء اعتمد؟ وممن سبق عبدالقاهر إلى فكرة النظم: الجاحظ في كتابه المفقود ((إعجاز القرآن بالنظم)) وكذلك أبو هلال العسكري في الصناعتين حيث عقد باباً خاصاً بالنظم تحت عنوان ((الباب الرابع في البيان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك)).

وممن سبق عبدالقاهر القاضي عبدالجبار صاحب المعنى، بل ((إن فكرة النظم قد ظهرت واضحة في الصراع الذي أثاره امتزاج الثقافات وتعصب حملة اليونانية لفلسفة اليونان ومنطقهم، ودفاع حملة العربية عن تراثهم الخالد ومنهم ثقافتهم النحوية.

ومن مظاهر هذا الصراع: تلك المناظرة الحادة التي قامت بين أبي سعيد السيرافي النحوي (ت368هـ) وبين أبي بشر متي بن يونس في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات.

\* \* \* \*

وأخيراً قد عرضنا في هذا الفصل لبعض وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، وتقصينا المعاني لمادة ((نظم)) عند اللغويين، والبلاغيين، والأدباء.

ومما تجدر الإشارة إليه: أن هذه المادة حين دخلت البحوث البلاغية أصبحت نظرية لها أصولها، وقوانينها كما رأينا ذلك عند عبدالقاهر الجرجاني وكما أوقفتنا علية جهود العلماء المعاصرين ممن تناولها بالبحث والدراسة.

ومن جملة من تناولها من الباحثين المعاصرين: الدكتور درويش الجندي في كتابه:((نظرية عبدالقاهر في النظم)) الذي بين فيه المعالم التي رسمها عبدالقاهر لفلسفة هذه النظرية، وكنت أتطلع إلى شرح واف يبرز تلك المعالم ويكشف عن غوامضها للدارسين الذين قد يلتبس على بعضهم مقصد عبدالقاهر من كل فكرة يسوقها، لما يتميز به أسلوبه من تداخل وقوة قد تحجب عن الأذهان ما يرمي إليه هذا العالم النحرير، غير أن ما كتبه الدكتور ((درويش الجندي)) ما هو إلا عود على بدء، وبل مجرد نقل وحشر شواهد معظمها من دلائل الإعجاز.

وكان مما يتطلبه البحث في كتاب ((نظرية عبدالقاهر في النظم)) أن يقفنا صاحبه على تتبع مادة ((نظم)) واستخلاص معانيها عند العرب من معاجم لغتهم، وسياق الأمثلة من غير شواهد عبدالقاهر ثم التعرض لها بالتحليل والتعليق حتى تكتمل معالم النظرية، وتصبح شاهد عيان للدراسين.

ومما نفقد فيه تلك المعالم: ما كتبه الدكتور: أحمد أحمد بدوي عن عبدالقاهر في سلسلة ((أعلام العرب)) وهو يعرض لفكرة النظم عنده إذ لم يزد على ما ذكره عبدالقاهر شيئا سوى تتبع آرائه من غير تحليل أو استقصاء، ولا شك أن عملا كهذا يصم البحث العلمي، ويصيب آراء الدارسين بالعقم، ألم تر أن الكاتبين معاصران، وأن أحدهما قد أخذ عن الآخر؟ فأي زيادة، أو ابتكار ذكره أحدهما عن نظرية النظم عند عبدالقاهر سوى استقصاء آرائه وإعادة أمثلته وشواهده لكأن النظم معلق بتلك الأمثلة، وتلك الشواهد.

والآن نعرض طائفة من أقوال بعض العلماء في الإعجاز بالنظم ونتناول بعض ما قالوه بشيء من التفاصيل، وليكن أول من نومئ إليه عبدالقاهر الجرجاني لشدة تمكنه من فكر النظم، ومناداته بها عبدالقاهر الجرجاني ورأيه في الإعجاز بالنظم:

نحن الآن مع شيخ البلاغة، وإمامها الذي رفع قواعدها وأحكم بنائها، ((ورأيه في الإعجاز قائم على التربية الفنية. تربية الذوق والإحساس والشعور، وذلك بممارسة أي نص أدبي أو قرآني. حتى إذا ما ألف الذوق النقد مارس النص القرآني باحثاً عن الجمال فيه ففي نظمه يكمن سر إعجازه([[36]](#footnote-36)) ":

إذا كان عبدالقاهر يقرر أن تربية الذوق إحدى الدعائم التي يعين على إدراك سر الإعجاز بالنظم في القرآن. فما دليله على ذلك؟. إننا نجد الدليل واضحاً فيما يسوقه من الآثار الأدبية والنصوص القرآنية مفسراً ومحلا اقرأ قوله في دلائل الإعجاز:((إنكم تتلون قول الله تعالى:﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآَنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وقوله عز وجل:﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ وقوله:﴿بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِه﴾.

فقولوا الآن: أيجوز أن يكون تعالى قد أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يتحدى العرب أن يعارضوا بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذي جاءهم من قبله التحدي ولا بد في الجواب من ((لا)) لأنهم إن قالوا يجوز أبطلوا التحدي من حيث أنه - كما لا يخفي - مطالبة بآن يأتوا بكلام على وصف، ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب ويبطل ذلك دعوى الإعجاز أيضاً))([[37]](#footnote-37)).

وهذا الوصف الذي يمهد به عبدالقاهر. أيكون في اللفظة المفردة؟ أم في التركيب؟ أم في المعاني؟ أم في الحركات والسكنات؟ أم في المقاطع والفواصل؟ أم فيما يجد من صورة بديعة مبنية على استعارة أو تشبيه؟

إذا امتنع إعجاز لدي عبدالقاهر بهذا كله ففيما ذا يكون؟. إن الإشارة إلى الممهد به لا يعين على فهمه إلا فحصه بتذوق النظم وحلاوته فبالنظم والتأليف يكون الإعجاز وليس هذا الأمر إلا في القرآن.

وهذا شاهد على ما ذكره عبدالقاهر، وذهب إليه في الإعجاز بالنظم إذ يقول: في كتابة دلائل الإعجاز:((هل تشك إذا فكرت في قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)﴾. فتجلي لك منها الإعجاز وبهرك الذي تري وتسمع. أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضاً ببعض.

وإن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة؟ وهكذا إلى أن تستقر بها إلى أخرها. وأن الفضل نتائج ما بينها وحصل من مجموعها؟

إذا شككت فتأمل هل تري لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخوتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه، وهي في مكانه من الآية؟

قل ((ابلعي)) واعتبرها وحدها. من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك اعتبر سائل ما يليها. وكيف بالشك في ذلك؟، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم كان النداء بـ ((يا)) دون ((أي)) نحو يا أيتها الأرض، ثم أمرت، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال: ابلعي الماء، ثم أن تبع نداء الأرض، وأمرها بما هو في شأنها. نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها، وثم أن قيل:((وغيض الماء)) فجاء الفعل مبنياً للمفعول، وتلك الصيغة تدل على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى:((وقضي الأمر))، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو ((استوت على الجودي))، ثم إظهار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة، والدلالة على عظم الشأن، ثم مقابلة ((قيل)) في الخاتمة ((بقيل)) في الفاتحة.

أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها، تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النطق، أم كل ذلك لما يبين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب([[38]](#footnote-38)).

وبمثل هذه الأسلوب التحليلي الرائع يصل عبدالقاهر إلى ما يريد من تقرير ما أسلف، من أن الشأن للنظم كاملا، ولا شيء من الاعتبار للفظ وحده قبل أن يدخل في هذا النظم المعجز، ولا شك أن تحليل عبدالقاهر للآية الكريمة تحليل خبير بدرجات الكلام هداه إليه فكر ثاقب. وبصيرة نيره. وذوق سليم.

ويشير الدكتور بدوي طبانة في كتابه ((البيان العربي)) إلى أن عبدالقاهر في عرضه لهذه الآية - نسي فضل الألفاظ المختارة فنالك قبل هذا النظم وهذا التلاؤم الذي فصله، هذا الوضع للكلمات على هذا النسق العجيب تخير لكل لفظ، ولا شك أن هنالك ألفاظاً غير هذه الألفاظ كان يمكن أن تؤدي بها هذه المعاني، ولكن الفضل يظهر في التخير والانتقاء المبني على تفضيل لفظ على لفظ آخر([[39]](#footnote-39)))).

ولو أردنا استقصار الأمثلة والشواهد التي ساقها عبدالقاهر من القرآن الكريم ومأثور كلام العرب لأفضي بنا ذلك إلى الاستطراد. وما ذكره من ذلك قار في موضعه من كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز يمكن لأي باحث الوقوف عليه.

والآن نتجاوز عبدالقاهر إلى غيره من العلماء ممن سبقه، وممن جاء بعده ورأي الإعجاز بالنظم.

لعل من أقدم القائلين بالإعجاز بالنظم ((أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ)) (ت255هـ) الذي ألف كتاباً عن إعجاز القرآن في نظمه، غير أني لم أجد هذا الكتاب، وكل ما يذكره عنه الباحثون ((اسمه فقط)) ويستخرجون رأي الجاحظ، وقوله في الإعجاز بالنظم من بين ثنايا كتبه على طريقته في - الاستطراد، والخروج من مسألة إلى أخرى، وخلاصة ما يراه الإعجاز بالنظم يتضح من قوله الذي نقله المبرد في هامش كتابه ((الكامل)) ((إن محمد صلى الله عليه وسلم مخصوص بعلاقة لها في العقل كموقع فلق البحر من العين)).

وذلك قول صلى الله عليه وسلم لقريش خاصة العرب عامة مع ما فيها من الشعراء، والخطباء، والبلغاء، والدهاء، والحكماء، وأصحاب الرأي والمكيدة والنظر في العاقبة: إن عارضتموني بسورة واحدة فقد كذبت في دعواي، وصدقتم في تكذيبي. قال الجاحظ: ولهم بعد ذلك أصناف النظم، وضروب التأليف: كالقصيد والرجز والمزدوج والمجانس. ثم هم بعد ذلك التحدي عرفوا عجزهم، وأن ما طلب منهم لا يتهيأ فرأوا الإضراب عن ذكره والتغافل عنه أسلم لهم هذا في الباب([[40]](#footnote-40)).

ومن رأي الجاحظ في الإعجاز بالنظم قوله:((وفي كتابنا الذي يدلنا على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد. مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها([[41]](#footnote-41)))).

كما أن الجاحظ قد فطن إلى أن لألفاظ القرآن ميزة أزيد على غيره من حيث النظم. وهي: إتيان بعض ألفاظ المقترنة متصاحبة. لا تكاد تفترق. كالصلاة والزكاة، والجوع والخوف، والجنة والنار، والرغبة والرهبة، والمهاجرين والأنصار، والجن والإنس([[42]](#footnote-42)))).

وهذه الفطنة تدلنا أيضاً على رأيه وقوله بالإعجاز بالنظم، وهذا محصل ما قاله في هذا الصدد وإلى جانب اهتمام الأدباء وأهل اللغة بإبراز مزايا النظم القرآني وأسلوبه تعرض أهل الحديث والفقه للرد على الشبهات التي أثيرت حول أسلوب القرآن ونظمه، وبلاغته.

وفي جملة أولئك ابن قتيبة (ت276هـ) في كتابه ((تأويل شكل القرآن)) الذي يعد من الآثار الجليلة التي خدمت لغة القرآن، وأسلوبه وقد عني فيه بالمجاز، وتوسع في مفهومه، والذي يهمنا منه في هذا المقام رأيه في الإعجاز بالنظم. إذ يقول في مقدمه كتابه:

والحمدلله الذي نهج لنا سبل الرشاد، وهدانا بنور القرآن، ولم يجعل له عوجاً. بل نـزله قيماً مفصلا بيناً. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـزيل من حكيم حميد، وقطع بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلمين، وجعله متلو لا يمل على طول التلاوة، ومسموعاً لا تمجه الآذان. وغضاً لا يخلق على كثرة الترداد. وعجيباً لا تنقضي عجائبه. ومفيداً لا تنقطع فوائده... وجمع الكثير من معانيه في القليل من لفظه([[43]](#footnote-43)).

ها ملخص بعض أقوال ابن قتيبة في الإعجاز بالنظم، ولم يزل الميدان فسيحاً لغيره فهذا الرماني (ت386هـ) في رسالته النكت في إعجاز القرآن يفصح عن رأيه قائلا ضمن باب عقده تحت عنوان ((باب التلاؤم)):((التلاؤم نقض التنافر. والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف. والتأليف على ثلاثة أوجه: وذلك بين لمن تأمله..... والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع وتقبله في الطباع. فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز)).

ويقول الرماني وهو يناقش الوجوه التي ذكرها في الإعجاز: إن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة. منها الشعر، ومنها السجع. ومنها الخطب، ومنها الرسائل، ومنها المنشور الذي يدور بين الناس في الحديث، فأني القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منـزلة في الحسن تفوق به كل طريقة([[44]](#footnote-44)))).

وقد ساق الرماني مقارنة بين قول الله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ وبين القول المأثور عن العرب:((القتل أنفي للقتل)) وهذه المقارنة من صميم قوله بالإعجاز بالنظم.

وبعد الروماني نلتقي بأبي سليمان حمد بن إبراهيم الخطابي (ت388هـ) في رسالته: بيان إعجاز القرآن لنقف على رأيه في الإعجاز بالنظم.

قال بعد أن عدد بعض وجوه الإعجاز التي ذهب إليها بعض العلماء:((إن أجناس الكلام مختلفة، ومراتبها في نسبة التبيان متفاوتة))... إلى آخر ما ذكره عن أوصاف الكلام المحمود، والكلام المذموم وبعد ينفذ إلى القول بإعجاز بالنظم على حد قوله:

((ولا تري نظماً أحس تأليفاً، وأشد تلاؤماً ونشا كلا من نظمه.... فتفهم الآن، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني من توحيد الله عزت قدرته، وتنـزيه له في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان بمنهاج عبادته، من تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها. واضعاً كل شيء في موضعه الذي لا يري شيء أولى منه، ولا يري في صورة العقل أمر أليق منه. مودعاً أخبار القرون الماضية.

ويمضي الخطاب قائلا:((ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوي البشر. ولا تبلغه قدرهم فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته([[45]](#footnote-45)))).

ومن بين من قال بإعجاز القرآن بالنظم أبو هلال العسكري (ت395هـ) وشاهد لك قوله في ((الصناعتين وإنما يعرف إعجاز القرآن من جهة عجز العرب عنه وقصورهم عن بلوغ غايته. في حسنه وبراعته، وسلاسته ونصاعته. وكمال معانيه وصفاء ألفاظه([[46]](#footnote-46)) وبهذا القول ومما سبق ذكره عن أبي هلال نري أنه يقرر إعجاز القرآن في بلاغته المتميزة بالنظم البديع، وحسن التأليف وجودة التركيب، ولم يذكر أن أبا هلال ألف كتاباً خاصاً عن إعجاز القرآن، وإنما قيد الوصول إلى إدراك علم البلاغة والفصاحة بالوصول إلى إدراك أسرار إعجاز القرآن الكريم، وهذا ما قدم به كتابه الصناعتين([[47]](#footnote-47)))).

وعبر تلك الجولة السريعة نلتقي بالقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني ورأيه في الإعجاز بالنظم.

لقد كان من جليل مؤلفات ها العالم كتابه ((إعجاز القرآن)) والإعجاز بالنظم عنده يرجع إلي وجوه منها:

ما يرجع إلى الجملة، ((وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه. واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظم جميع كلام الناس، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم)).

ومنها:((إن له أسلوباً يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتادة)).

ومنها اشتماله على الفصاحة والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة من غير اختلاف. ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)﴾، ويتضح هذا الوجه من أن عجيب نظمه، وبديع تأليفه لا يتفاوت، ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها من قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم، وأحكام وأعذار وإنذار ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف. في الوقت الذي تري فيه اختلاف كلام الخطيب المصقع، والشاعر المفلق. على حسب اختلاف هذه الأمور.... ويمضي الباقلاني في استقصار الأدلة على إعجاز القرآن بالنظم فيقول:((ومنها نظمه البديع الذي وقع موقعات في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن والإنس.. فالجن يعجزون عن الإتيان بمثله كعجز الإنس، ويقصرون دون بلاغته كقصور الإنس تماماً بتمام)) وهذا الوجه قد سبق إليه الباقلاني. ولكنه أربي على من سبقه بإيراد الأدلة من القرآن الكريم ومناقشتها وعرض المقارنات الكثيرة في ذلك. بل قد فصل القول في نظم سورتي غافر وفصلت وبين دلالته على ذلك بالتفسير والتحليل. فلنقف معه على هذا الشاهد العظيم من سورة غافر، وهو يعرض لنظم الآية الكريمة:

﴿**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** **(14) رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ** **(15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)**﴾([[48]](#footnote-48)))).

قال الباقلاني:((قف على هذه الدلالة، وفكر فيها، ورجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية، والكلمات السامية، والحكم البالغة والمعاني الشريفة، تعلم ورودها عن الإلهية، ودلالته على الربوبية وتتحقق أن الخطب المنقولة عن الخطباء، والأخبار المأثورة عنهم في كلماتهم الفصيحة قد باينته الآية الكريمة.

فأي خاطر يتشوق إلى أن يقول:

﴿**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (15) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾**

وأي لفظ يدرك هذا المضمار؟ وأي حكيم يهتدي إلى ما لهذا من الغور، وأي فصيح يهتد إلى هذا النظم؟

ثم استقري الآية إلى آخرها. واعتبر كلماتها. وراع بعدها قوله تعالى:

﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾.

من يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث. على قربها. وعلى خفتها في النظم وموقعها من القلب...([[49]](#footnote-49)))).

وبنحو هذا الأسلوب التحليلي، واستقصاء وجوه الإعجاز بالنظم عند الباقلاني يتضح رأيه فيه ولصاحب المغني القاضي عبدالجبار الهمذاني المعتزلي رأي في الإعجاز بالنظم، ومذهبه في الاعتزال لا يمنعنا من الوقوف على رأيه في الإعجاز بالنظم. فما قاله في هذا المضمار جدير بالإشارة، والغالب على من سبق ذكرهم من العلماء الأخذ بمذهب المعتزلة، وعذري في تتبع أقوالهم في الإعجاز بالنظم أنهم فرسان هذا الميدان دون سواهم.

ألف عبدالجبار كتابه ((المغني)) وخصص الجزء السادس عشر منه للكلام في إعجاز القرآن، وبيان سره في ربط العبارات، واختصاصه برتبة في الفصاحة، وللرد على منكري الإعجاز على طريقته المتكلمين، وخلاصة رأيه في الإعجاز بالنظم ((أن القرآن الكريم جاء بطريقة فذة في النظم، والتأليف مختصة برتبة في الفصاحة معجزة، وأنه باعتبار الأمرين: الطريقة الفذة في النظم، والاختصاص برتبة الفصاحة يكون الإعجاز([[50]](#footnote-50)).

وما أكثر العلماء الذي قالوا بالإعجاز بالنظم كابن الزملكاني والزركشي حتى السكاكي صاحب العلوم المنطقية والعقلية، ومن بينهم الرازي والألوسي في المحدثين، والرافعي، ومحمد دراز، وسيد قطب، في المعاصرين وما قالوه في هذا إضمار قار في مؤلفاتهم يمكن لأي باحث الرجوع إليه.

\* \* \* \*

وبعد أن عرضنا لطائفة من أقوال أولئك العلماء حول الإعجاز بالنظم يجدر بنا أن نلقي على ما قالوه نظرة سريعة فاحصة.

باستعراض أقوال أولئك الباحثين في الإعجاز بالنظم نري طائفة منهم قد اتجهت وجهة واحدة، ولخصت وجه الإعجاز بالنظم على نحو ما استقر عليه رأي عبدالقاهر الجرجاني.

ونرى طائفة أخرى صاغت هذا الوجه ألواناً وصوراً بلاغية، وعملت جاهده على سرد الأدلة، والاستشهاد بالآيات القرآنية ولم يأتي بجديد حول ما أعادته كرة أخرى إلا ما كان من ابن أبي الإصبع فقد ذكر أنه استخرج من قول الله تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ نحواً من عشرين فناً من البديع لم يسبقه أحد إلى استخراجها. إذ يقول في كتابه ((بدائع القرآن)): وما رأيت ولا رويت في الكلام.. كآية من كتاب الله تعالى استخرجت منها أحداً وعشرين ضرباً من البديع وعددها سبع عشرة لفظة.

وطائفة ثالثة اكتفت بسرد آراء السابقين، وحتى في الكثير من شواهدهم. كما مما يسترعي في النظر. أن هؤلاء الأعلام في جملة أقوالهم حول الإعجاز بالنظم، ولم يتجاوزا به حد اللفظ التركيب، إلا ما كان عبدالقاهر الجرجاني، والرماني. فقد نبها على حسن تأليف الحروف المتلائمة وإن ذلك مدرك بالحس، وزاد عبدالقاهر في إدراك أسرار الإعجاز بالنظم: دعامة الذوق السليم.

كما أن من بينهم من راح يزجي المقارنات، والموازنات بين كلام البشر، وكلام الله جل وعلا. كما صنع ذلك الباقلاني في موازنته بين لامية امرئ القيس وتحليلها، وبين بعض من الآيات الكريمات.

وعلى الرغم من أنه لا يقصد بهذه الموازنة سوي الوصول إلى القول بالإعجاز بالنظم فما أغناه عن هذه الموازنة لارتفاع المفاضلة بين كلام الله سبحانه، وكلام البشر، ولأن القرآن في الذروة العليا من كل كلام فهو من عند الله وكفي. ومثله صنيع الدكتور أحمد أحمد بدوي في كتابه من ((بلاغة القرآن))([[51]](#footnote-51)).

ولم أحد من هؤلاء الأعلام القول بالإعجاز بالنظم في السور والآيات إلا ما كان الباقلاني في تفصيله في نظم سورتي غافر وفصلت.

\* \* \* \*

**الفصل الثاني**

**عناصر النظم في سورة الرعد**

**الفصل الثاني**

**عناصر النظم في سورة الرعد**

**- 2 -**

لم يغب عن الباحثين من علماء الأدب ونقاده أن الأدب يؤثر فينا باجتماع عنصرية الأصليين: اللفظ والمعنى، وإن كانت الحقيقة أن اللفظ والمعنى يمثلان تمثيلا كاملا ما يراد نقله إلى المتلقي فكراً وعاطفة أو انفعالا، أو تخيلا، أو تصويراً فهما في الحقيقة شيء واحد لا ينفصل أحدهما عن الآخر إلا كما تفارق الروح الجسد فتتركه موتاً ولا حياة فيه، ولا يستدل على الروح إلا إذا كانت متحيزة في ذات من الذوات أو جسد من الأجساد.

والفائدة كلها منوطة بالجملة التركيب، أما أجزاء هذا التركيب فإنها لا تغني وحدها.

ولكن مما لا شك فيه أن الكل تتكون قيمته بقيمة الأجزاء التي تكون منها هذا الكل، فإن البناء لا يكون سليماً قوياً قادراً على الحياة إلا بسلامة الدعائم التي أقيم عليها، وسلامة اللبنات التي تكون منها.

ومن هذا المنطلق تكلم أكثر علماء البلاغة في قيمة الألفاظ المفردة، لأن سلامة الكل تتبع سلامة الجزء فرب لفظة غريبة أو وحشية كدرت عبارة طويلة، وذهب سمات الحسن والجمال الذي اجتمع في كثرتها.

ومنذ قديم وجدنا من العلماء من تكلم في اللفظ الأدبي في حال إفراده، وجعل له صفات ومعالم تأكيد بها جودته، ويفضل بها غيره من سائر الألفاظ. ومن هؤلاء الباحثين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 225هـ) الذي صرح بمذهبه في تفصيل اللفظ، وتقدير العبارة، وغالي في هذا التفضيل حتى لقد ذهب إلى أن ((لمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة وزن الكلمة، وتميز اللفظ. وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك([[52]](#footnote-52)))).

وقد اعتنق رأي الجاحظ كثير من علماء الأدب منهم أبو هلال العسكري (ت395هـ) إذ قال:((ليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما لشأن في جودة اللفظ، وصفائه وحسن بهائه...))([[53]](#footnote-53)) وهو بهذا ينقل رأي الجاحظ نقل يكاد يكون حرفياً.

ومن هؤلاء النقاد الذين يقدرون اللفظ المفرد، ويجعلون له صفات ذاتية قدامة بن جعفر (ت337هـ) الذي يرى أن مقياس الحسن للفظ أن يكون سمحاً سهل مخارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة مع الحذو من البشاعة... ([[54]](#footnote-54)) وممن أشاد باللفظة المفردة، وجعل لها خصائص تميزها بالحسن، وتقبح إذا فقدت تلك الخصائص ابن سنان لخفاجي (ت466هـ) الذي تناول كتابه ((سر الفصاحة)) اللفظة المفردة من أذني جزئياتها من الصوت، والمخرج والحرف، وجعل لهذه اللفظة المفردة الجيدة ثمانية أوصاف هي:

1 - أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج.

2 - أن يكون لتأليفها في السمع حسن ومزية.

3 - أن تكون غير متوعرة ولا وحشية.

4 - وأن تكون غير ساقطة عامية.

5 - أن تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة.

6 - وأن لا تكون قد غير بها عن أمر آخر يكره ذكره.

7 - أن تكون معتدلة كثيرة الحروف.

8 - أن تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل، أو ما يجري مجري ذلك([[55]](#footnote-55)).

ومع أن ضياء الدين بن الأثير (ت637هـ) قد انحي باللائمة على الخفاجي بأنه في كتابه ((سر الفصاحة)) قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف، والكلام عليها، ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى ذكره....([[56]](#footnote-56)) مع ذلك شغل كلام ابن الأثير عن اللفظة المفردة، وصفات حسنها، وأسباب قبحها جزءاً كثير من أول دراسته في كتابه ((المثل السائر))، فقد نعت اللفظة المفردة بكثير من الأوصاف وجعل ألفة الكلمة وجريانها في اللغة الأدبية من الأسس التي تقوم بها الألفاظ، وتستحق المزية والتقدير، واعترف بالتفاوت بين الألفاظ التي يظن أنه من قبيل المترادف. فهو يقرر أن أرباب النظم والنثر من صناع الكلام غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها فاختار والحسن من الألفاظ واستعملوه، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه، فحسن اللفظة سبب في استعمالها دون غيرها، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، وذلك سبب يدعو إلى وصف اللفظة المفردة بالفصاحة، ولذلك يرى أن الفصيح من الألفاظ هو الحسن ويقول إن هذا من الأمور المحسوسة التي شاهدها من نفسها، لأن الألفاظ داخلة في حيز الأصوات، فالذي يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر منه هو القبيح، ويضرب لذلك مثلا بأن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشجر ويميل إليها. ويكره صوت الغراب وينفر منه، كذلك يكره نهيق الحمار، ولا يجد ذلك في صهيل الفرس.

ويستمر ابن الأثير في الشوط إلى مداه في حسن الألفاظ المفردة وقبحها، وير أن لفظة ((المزنة)) ((والديمة)) حسنة يستلذها السمع، وأن لفظة البعاق قبيحة يكرهها السمع، وهذه اللفظات الثلاث من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فإنك ترى لفظتي ((المرنة)) و((الديمة)) وما جرى مجراهما مألوفة الاستعمال، وترى لفظ البعاق وما جرى مجراه متروكاً لا يستعمل. وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة. أو من كان غير ذي ذوق سليم([[57]](#footnote-57)).

وإذا كان هذا الاتجاه نحو تقدير اللفظة المفرد، والحكم عليها بمقتضي الحروف التي تألف منها، وجرس أصواتها على السمع. أي جعل الكلمة المفردة ذات خصائص ذاتية تجعلها حسنة أو قبيحة.... إذا كان هذا يمثل رأي طائفة كبيرة من النقاد والعلماء فإن هناك رأياً مقابلا لهذا الرأي. هو رأي عبدالقاهر الجرجاني (ت471هـ) الذي يصرح ((بأن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضاً من أغراضه في الأخبار، والأمر والنهي، والاستخبار. والتعجب. وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة. وبناء لفظة على لفظة، وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون أحداهما أدل على معناها الذي وضعت له من الأخرى([[58]](#footnote-58)))).

وليست العبرة عند عبدالقاهر باللفظ في ذاته، وإنما العبرة بالنظم، ودليل ذلك قوله:((فقد اتضح إذاً اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي يليها، أو ما أشبه ذلك مما ليس له تعلق بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر..))([[59]](#footnote-59)).

ولا شك أن تعصب عبدالقاهر لفكرة النظم التي اعتنقها وشرحها في كتابيه ((أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز)) على ذلك النحو الذي أشرنا إليه من الآراء الجيدة في تقدير حسن الكرم، فإننا لا نستطيع أن جحد قيمة اللفظة في ذلك النظم، والذي هو ضم كلمة إلى كلمة، ولا نجحد أن اللفظ الجميل يزداد جمالا بحسن موافقة لما جاوره من الألفاظ، وهذا التجاوز هو الذي يكشف عما فيه من جمال ويبين عن صفات الحسن الكامنة فيه، ولا نستطيع أن نقر عبدالقاهر على كل ما ذهب إليه، وكذلك نختلف وع أولئك الذين يجعلون للألفاظ المفردة ذلك الاعتبار إذا لا بد من مراعاة اللفظة المفردة بأجراسها، ومقاطع حروفها، والدقة في انتقائها، ومراعاة توافر الحسن في جميع جزئياتها ومن ثم طريقة وضعها في الترتيب بحيث تتلاءم مع ما قبلها وما بعدها ولا نقلل من قيمتها على حساب النظم، لأن الألفاظ هي اللبنات الأولى اللاتي بهن تتكون الجملة وشبه الجملة في تأدية المعنى المراد وكذلك نعطي الجملة قيمتها من حيث مراعاة حسن الجوار ووضع كل جملة بجانب أختها ونعطي المعنى قيمته حيث لا غموض ولا إبهام ولا تعمية ولا ألغاز.

إذا تبين لنا المزية في النظم وأنه لا بد مراعاة الدعائم التي يقوم عليها وهي اللفظ مفردا ًوالجملة مركبة والمعنى مسوقاً. فلنطبق تلك المزية ولنستظهر بعض أسرار هذا النظم وعناصر في سورة الرعد تلك السورة التي آثرنا أن تكون محور الدراسة في هذا البحث. ((والتي من أهدافها غرس عقيدة التوحيد في النفوس. وانتزاع ما يخالف تلك العقيدة من الضمير والدعوة إلى العمل الصالح المكون للإنسان المهذب الكامل، الناهض بالجماعة بسن شريعة الإسلام من عند الله))([[60]](#footnote-60)) ونخلية طبيعة النبوة والرسالة)). مطوفة بالقلب البشرى في مجالات وآفاق وأبعاد وأعماق إذ تعرض الكون كله في شتى مجالاته في السماوات المرفوعة بغير عمد، والأرض المبسوطة وما فيها من حركة وسكون كل ذلك لا فرار عقيدة التوحيد في النفوس.

وهي من أعاجيب السور القرآنية التي تأخذ في نفس واحد وإيجاز واحد من بدياتها إلى نهايتها، تفعم النفس وتزحم الحسن بالصور والظلال والمشاهد والخوالج([[61]](#footnote-61)))) وهي سورة مكية غير آيتين هما قول الله تعالى:((وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)) وقوله تعالى:((وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)) فإنها مدنيتان وعدد آياتها خمس وأربعون وقيل ثلاث وأربعون وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف))([[62]](#footnote-62)).

وكان من واجبنا في هذه الدراسة المتخصصة لهذه السورة الكريمة أن نلم ببديع نظمها وعجيب تركيبها ومحكم فواصلها ورائع صورها لولا أن تتبع ذلك كله واستقراءه لفظاً لفظاً وتركيباً تركيباً وفاصلة وفاصلة وصورة صورة من الآمال البعيدة عن طوق البشر، إذ أنه لا تكفي فيها الإشارات السريعة، أو اللمحات الخاطفة، ولكنها تحتاج إلى النظرة العميقة، والفحص الدقيق عن كل حرف من الحروف، أو صورة من الصور، ولذلك يجد الباحث نفسه مضطراً إلى أن يجتزئ بالقليل ليدل على الكثير. وكما قيل ((حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق)).

ولذا سنتعرض لخصائص نظم تلك الألفاظ والحروف في طائفة من آيات السورة الكريمة، متفحصين كيف التحمت لبنات هذه الآيات؟ انتظم من مجموعها ذلك العقد الفريد في أجمل صورة حية كل ذرة في خليتها وكل خلية في عضوها، وكل عضو في جهازه؟ حتى يبرز اللفظ وقد أخذ مكانه المقسوم وفق خط مرسوم.

فإن دراسة أي نص قرآني تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التي هي المفردات، لتبين مدى الإصابة في اختيارها، ومدى تمكنها في موضعها من جملتها وقوة ربطها بأخواتها. ((وكلما ازداد الدارس تعمقاً في فهم النص القرآني، واستجلائه لابد أن يقف أمام جلال القرآن الكريم ليدرك معه لماذا أعي العرب وهم أصحاب اللسن والبيان عن الإتيان بسورة من مثله.

والآن لنتتبع الآيات من قوله تعالى:﴿**المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** **(1)**﴾. إلى قوله تعالى:﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾**.. الآية)).

ولنقف أمام جلال تلك الألفاظ وروعتها، ولنلحظ أن أول ما يطالعنا في بدايتها تلك الفاتحة العجيبة ﴿**المر**﴾ التي لم يزد أن قال العلماء عنها، وعن غيرها من فواتح السور بمثلها أنها سر هذا القرآن، وهي مما استأثر الله بعمله.

وحول فواتح السور ذكروا: أن جملتها عشرة أنواع من الكلام منها:((الثناء على الله سبحانه)) كما في سورة الكهف:﴿**الحمدلله الَّذِي أَنـزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا** **(1)**﴾ والأنعام وغيرهما مما ابتدئ بهذا النوع ومنها الاستفتاح ((بالنداء)) كيا أيها المزمل، ويا أيها المدثر، والاستفتاح بالجمل الخبرية ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ**﴾، ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّه﴾، ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّه فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** **(1)**﴾ الاستفتاح بالقسم ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا**﴾، ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا** **(1)**﴾، ﴿وَالطُّور﴾، ﴿**وَالنَّجْمِ﴾**، والاستفتاح بحروف الهجاء كما في سورة البقرة وآل عمران، والقصص، والنمل، ومريم، والرعد وغيرهن إلى آخر ما ذكروه عن جملة هذه الأنواع، وأحصوه)) ولم يكتفي بعضهم بالقول عن حروف الهجاء أنها سر هذا القرآن، أو هي مما استأثر الله بعلمه بل كثر حديثهم عنها وهذه طائفة من الأقوال التي ذكروها قالوا:((إن الحروف المقطعة في أوائل السور بمثابة أدوات التنبيه والغرض من استعمال هذه الحروف إثارة انتباه السامع إلى ما يراد إلقاؤه إليه.

وإذا نظرنا في فاتحة سورة الرعد. ألقينا أربعة أحرف هي الألف واللام والميم. والراء. ولا شك أن مثل هذا الاستعمال أكثر لفتاً للنظر وإثارة الانتباه مما جرت العادة باستعماله وذلك أن المألوف على السمع يمر دون أن يحرك في النفس ساكناً أو يوقظ في الفكر نائماً أو ينبه به غافل فإذا طرق السمع جديد غير مألوف في أساليب الكلام تحرك الساكن وتنبه الغافل.

ومن هنا فقد جاءت فاتحة سورة الرعد من تحقيق التنبيه التام بما لا يزيد عليه)) وقل مثل ذلك في السور الأخرى التي نهجت هذا المنهج من الفواتح وذكروا أن الحروف المقطعة التي ابتدأت بها بعض السور:((بيان لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن الإتيان بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف التي يتخاطبون بها ودليل ذلك أن السور المفتتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها دائما الانتصار للقرآن الكريم وأنه الحق الذي لا شك فيه وأنه الكتاب المعجز وغيره دونه.

فهذه سورة البقرة افتتحت بألف، لام.. ميم. وبعدهن يأتي قوله تعالى:﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ** **(2)**﴾، وهذه سورة آل عمران والأعراف ويونس وهود وهذه سورة الرعد: ألف. لام. ميم. را. وبعد تلك الحروف يأتي قول الله تعالى:﴿**تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ**﴾ ومما نلحظه في فاتحة سورة الرعد ((وإنها بدأت بحروف من جنس ما ورد فيها. وهذا البدء آية في التناسب. بل لقد ختمت حروفه فاتحتها بحروف الراء وفي هذا تحقيق للتناسب التام في جو السورة العام الذي كثيراً ما يضطلع به هذا الحرف كما في ذكر البرق والرعد)) ((ورفع السماوات بغير عمد وبسط الأرض وبث الثمرات وجريان الأنهار)).

قال أحمد بن فارس: وأقرب القول في ذلك وأجمعه قول بعض علمائنا أن أولي الأمر نجعل هذه التأويلات كلها تأويلا موحدا فيقال: إن الله افتتح السور بهذه الحروف إرادة منه الدلالة بكل حرف منها على معان كثيرة لا على معنى واحد فتكون هذه الحروف جامعة لأن تكون افتتاحاً للسور وأن يكون كل واحد منها مأخوذاً من اسم من أسماء الله تعالى، وأن يكون الله جل ثناؤه قد وضعها هذا الموضع قسما بها وأن كل حرف منها في آجال قوم وأرزاق آخرين، وهي مع ذلك مأخوذة من صفات الله جل وعز في أنعامه وأفضاله ومجده وأن الافتتاح بها سبب لأن يستمع إلى القرآن من لم يكن يستمع، وأن فيها إعلاماً للعرب أن القرآن الدال على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو بهذه الحروف المتعالمة بينهم دليل على كذبهم وعنادهم وجحودهم وأن كل عدد منها إذا وقع في أول سورة فهو اسم لتلك السورة وهذا هو الجامع للتأويلات كلها من غير إطراح لواحد منها، وإنما قلنا هذا لأن المعنى فيها لا يمكن استخراجه عقلا من حيث يزول به العذر ولأنه المرجع إلى أقاويل العلماء ولن يجوز لأحد أن يعترض عليهم بالطعن وهم من العلم بالمكان الذي هم به ولهم مع ذلك فضيلة التقدم ومزية السبق والله أعلم، بما أراد من ذلك)).

ومن جملة ما قالوه عن فواتح السور. بحروف الهجاء أنها أسماء لسورها وهي سر القرآن وهي مما استأثر الله بعلمه. إلى أهم ما قالوه وأن كان لا يعدو أن يكون اجتهاداً، ولذلك نجد أكثرهم يتحرزون عند الكلام على مدلول تلك الحروف التي بدئت بها بعض سور القرآن فتراهم يصرون على ذكر هذه العبارة ((الله أعلم بمراده بذلك)) تجنباً لمزالق الاجتهاد. ومن هنا لا نؤثر رأياً على رأي مما قالوه بل نظم أنفسنا إلى أولئك الذين بالغوا في الاحتياط فقالوا الله أعلم بمراده.

بعد هذه اللمسات حول فاتحة السورة، نمضي مع الآيات متفحصين المفردة القرآنية في كل آية مما ذكرنا، لمنظر مدي ما تميزت به من جمال وقعها في السمع، واتساقها الكامل في السياق، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.. بل إننا بحاجة ماسة إلى التريث والتدبر فلعلنا ندرك شيئاً من سر إيثار لفظة على أخرى، ووجه ارتباطها بما قبلها وبما بعدها.

فلنأخذ مثلا لفظة ((أنـزل)) من قوله تعالى:﴿**وَالَّذِي أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾**، ولتتأمل مخارج حروفها في القرب والبعد، كيف جاءت بهذا التناسق في الإيحاء بأمر المنـزل؟ الذي أضفي على جلاله قدره، وعلو مكانته بناء تلك اللفظة للمجهول!! وأضف إلى تلك اللفظة ما بعدها من ألفاظ في قوله تعالى:﴿**إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ**﴾ وتأمل تلك الإضافة إلى ضمير المخاطب في لفظة ((ربك)) ففي ذلك تكريم لمحمد صلى الله عليه وسلم. وسمو بعبوديته لله وحده، وانظر إلى تعريف ((الحق)) باللام، ثم محبوه ختاماً لأمر المنـزل وهو القرآن، وراع لفظة ((يؤمنون)) في آخر الآية. ما بالها اختيرت على ((يعقلون، أو يتفكرون))؟ ما ذاك إلى أن الإيمان بهذا وبمن نـزل من عنده، وبمن نـزل عليه هو مطلب الآية الكريمة. وفي الذروة من هذا الإيمان المطلوب، الإيمان بالله خالق كل شيء. وإذا حسن اختيار ((يؤمنون)) على غيرها مما ذكر وتخير ما شئت من لفظ في قوله تعالى:﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾** عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر..)) الآية ((وأطلق لنفسك العنان للحديث عن تلك الألفاظ ووظائفها وسماتها تجدك لا تبلغ معشار ما تحدثت عنه من مدلول ومعنى)).

إليك لفظة ((رفع)) تأمل لم أوثر التعبير بها على سمك أو بني أو أسس ما ذاك إلا لأجل تكامل الصورة العجيبة التي رسمتها الآية عن مشهد هائل في العلو ولفظة رفع ينطوي تحتها معنى السمك والبناء والتأسيس فهي أشمل وأوسع في المغني وأليق في وصف هذا البناء المحكم الذي تتراء في كنهه العظمة معبر عنها ظلال رفع لابني أو أسس أو سمك، ولا سيما وقد ذكر معها في السياق لفظ الجلالة ((الله)) على حد قوله سبحانه:((الله الذي رفع السماوات)) وهكذا يمكن إيثار لفظة على الأخر في السياق القرآني فأنت ترى التعبير مثلا بلفظة ((بني)) جيء به في موضع آخر من غير أن يذكر معه لفظ الجلالة كما قال تعالى في سورة ق:﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا**﴾.

وفي سورة الذاريات:((﴿**وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** **(47)**﴾)).

وخذ من الآية أيضا لفظة ((ترونها)) لم عبر بها دون تنظرونها أو تشاهدونها ذلك لأن صيغة ((ترونها)) تحمل معنى الرؤية الكاملة التي لا يحجها ما يبدد النظر يمنة ويسرة لو جاء التعبير ((يتنظرونها)) أو ((تشاهدونها)). وإنما الرؤية هنا مسلطة على ملكوت السماات للتدبر، والتفكر، وللجمع بين الرؤية الحسية والرؤية العلمية المؤدية إلى اليقين، ولا يفي بهذا المعنى لفظ ((تنظرونها)) أو ((تشاهدونها)).

هذا الإضافة إلى ما تتسم به لفظة ((ترونها)) من رقة وسلاسة وسماحة ومثل هذه الصفات مقطوع بوجودها في ألفاظ القرآن مع صفات الفخامة والجزالة. والقوة. فالبحث عنها تحصيل حاصل. وإنما المهم البحث عن الأسرار التي بها صار القرآن مستجمعاً لتلك الصفات كلها.

وإليك لفظة أخرى في سياق آخر تلك صيغة ((سخر)) من قول الحق سبحانه وتعالى:((وسخر الشمس والقمر..........الآية)).

إنها لفظة موحية بالقوة والعظمة من خلال ظلالها وبنيتها إذ جاءت بلفظ الماضي المضعف، فهي كبيرة في مدلولها، قوية في بنيتها ذلك بجانب الحديث عن آيتين كبيرتين عظيمتين، هما الشمس والقمر فاختير التعبير بها على غيرها مما يؤدي معنى ((التسخير)) ((كأمر))، أو ((جعل)) أو((ذلل)) لأن الآية هنا ترسم مشهداً عظيماً فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقصير في أدائها لفظة أمر. أو جعل. أو ذلل. فأنت تلحظ في آية أخرى حيث كان الحديث عن نعمة واحدة هي الإضاءة وتبديل الظلمة العتمة، أنه كفي في هذا المعنى ما هو دون التسخير مبني ومعنى ذلك هو لفظ ((جعل)) من قوله تعالى:((وجعل القمر فيهن نوراً، وجعل الشمس سراجاً)) وإذا أنت أنعمت النظر في لفظة سخر وجدت أنها سيقت للحديث عن نعم كثيرة تفيدها الشمس والقمر مسخرين من عند الله ففي الشمس وطاقتها الحرارية منافع للإنسان والحيوان والنبات وفي القمر زينة للكون وتبصير الناس بضبط المواقيت والحساب وفيهما معاً دلالة لمن أراد التفكر في ملكوت الكون تدعو إلى الإيمان بخالقه ومبدعه وفي الإيمان طمأنينة لنفس المؤمن في الحياة الدنيا وثواب من الله في الحياة الأخرى ومن ذا الذي لا يطمع في الحصول على تلك المنافع؟ ومن ذا الذي ليس بحاجة إلى منافع الشمس والقمر تلك المنافع التي لم يف في التعبير عنها لفظ غير صيغة سخر.

ونمضي الآن مع الآية الكريمة بحثاً عن الألفاظ كيف اتسقت وعلى أي هيئة جاءت، إليك قوله تعالى:﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ**﴾ إنك إزاء صيغتين لفعلين مضارعين هما يدبر ويفصل وفي التعبير بهما على تلك الهيئة ما يفيد التجدد والحدوث والاستمرار لأن تسخير الشمس والقمر وما يجري معهما في العالم العلوي وما يفيد منها العالم السفلي كل ذلك في حركة دائبة ونهي وتدبير لا ينقطع ولا يفتر مع طول الزمن وتعاقب الأيام وأعظم من ذلك مجيء الفعل ((يدبر)) يليه لفظ مفرد هو مفعول له. وهو لفظة ((الأمر)) من قوله تعالى:((يدبر الأمر)) ثم يجيء الفعل ((يفصل)) وبعدها مفعول به جمع، وهو ((الآيات)) من قوله تعالى:((يفصل الآيات)) ذلك لأن التدبير يكون في شأن واحد، والتفصيل يكون في أكثر من شأن ولذا جاء المفعول في السياق الأول بلفظ المفرد، جاء المفعول في السياق الثاني بلفظ الجمع. بالإضافة إلى التغير حتى لا يسير الكلام على نمط واحد لأن هذا التعبير مدعاة لنشاط القارئ والسامع. واستمع لقول الحق جل ثناؤه:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**﴾.

وتأمل ذلك التعبير البديع بلفظ مد. وجعل. ويغشي، فتلك ألفاظ سهلة في مبناها قوية في معناها، والذي يسترعي النظر هنا هو إيثار التعبير ((بمد)) دون بسط. أو وسع أو دحا أو خلق. أن في اختيار ((مد)) على غيرها من مرادفتها للدلالة على بعد أقطار الأرض وسعتها، ودلالة على قدرة الله على تذليلها لكافة المخلوقات، ولا يؤدي تلك المعاني لفظ أشمل من ((مد)) كبسط ونحوه مما ذكر إذ قد يترائي للسامع أن البسط، أو التوسعة كانا في جهة دون أخرى.

ولكن لما قال سبحانه:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾** دلنا هذا النظم على عظم القدرة على خلقها وبسطها من جميع جهاتها. وألاحظ الفعل ((جعل)) وما تضفيه ظلاله على معنى الإيجاد الذي لا يعجز الله وقوعه في أي وقت وفي آية بقعة من الأرض بل هو أهون عليه، وافطن للفظة ((كل)) في قوله: تعالى:﴿**مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ**﴾ وتأمل ما تحمله تلك الصيغة من الدلالة على العموم المطلق بجانب الفعل ((جعل)) الذي لم يحدث تكراره خدشاً في تناسق الآية، بل جميع الألفاظ جاءت رتيبة الجرس. والإيحاء في تناسق بديع مع لفظة ((مد)) السابقة عليها. ثم تدبر لفظة ((يغشي)) كيف لاءمت موقعها إذ جاءت بجانب لفظة ((الليل)) لما توحي به حروفها من معنى للظلمة فهي غشاء سائر لضوء النهار.

واستشعر بديع تلك الصورة العجيبة التي رسمتها ظلال الألفاظ التالية من قوله تعالى:﴿**قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ**﴾.

والذي يعنينا هنا هو الوقوف على الألفاظ. كيف التأمت، وتناسقت؟ وأما الكلام على الجانب التصويري فسيأتي مفصلاً في موضوع آخر من هذا الدراسة.

تأمل لم وصفت هذه القطع ((متجاورات))؟ ولم يقتصر على ذكر الأعناب من بين سائر صنوف الفواكه؟ ثم لم الجمع في لفظ جنات وأعناب والأفراد في لفظ ((زرع)) والجمع في لفظ ((النخيل))؟ إنه نظم بديع محكم نسخ إطاره من ألفاظ ذات رصف عجيب، فلفظة جمع بجوار أختها، وبينهما مفرد لم يبغ حولا عن مكانه، ولم ينب عن قرينه، ناهيك بسر الاقتصار على لفظة ((أعناب)) واختيارها على غيرها من سائر أنواع الفواكه ففي ذلك إيماء إلى أن من عنده أدنى تفكر لا بد أن ينظر إلى هذا اللون من النعم، في حجمه وطعمه، وشكله الشفاف، الذي يحمل قطرة من الماء ثم يصبح من أشهي ما يتناوله البشر.

وتأمل التعبير بصيغة ﴿**تَغِيضُ**﴾و ﴿**تَزْدَادُ**﴾ وصيغي:﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾ من قوله تعالى:﴿**يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ** **(8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** **(9)**﴾ أي ألفاظ أوفي أداء المعنى من ((تفيض وتزداد)).

لِمَ لم يأتي التعبير: بتنقص بدل ((تغيض)) وبتنمو بدل ((تزداد؟)) تأمل بإمعان أن خلقة الجنين في الرحم متوارية ممعنة في الخفاء عن الأنظار لا يعلم أحد من البشر كنه هذه الخلقة، وما يعتر بها من تقلبات إلى الله خالق كل شيء. ولفظة ((تغيض أكد في أداء المعنى، وأبعد في الإحاطة مما يجري للجنين. من التعبير ((بتنقص)) توحي بذلك حروف)) تغيض المضفية صفة الجزالة على اللفظ، أما التعبير ((يزداد)) فليس هنا لفظة أليق منها بمكانها لأن التأمل قد يلمس من وراء مدة الجنين بعد طولها ما يعينه على رعاية الحمل والتلطف في الإشراف على الجنين وعلى أمه حتى يزداد سلامة كلما ازداد خلقه.

وأما قوله:﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)**﴾ فليست هناك ألفاظ أجزل. وأفخم وأمعن في التدرج بوصف الذات العلية، بالكبرياء، والعلو المطلق منهما، ولا يستطيع أحد أن يقول شيئاً عن لفظة ((المتعال)) إلا أن يفسرها بها وكفي.

وتأمل لطائف التعبير بلفظة ﴿**مُسْتَخْفٍ**﴾ دون مختف، وسارب دون ذاهب أو سائر ذلك لما تحمله لفظة ((مستخف)) من كثافة في المعنى على أكمل وجه تقصير دونه لفظة مختف، أو يختفي. ولا شك أن الزيادة في المبني تدل على الزيادة في المعنى.

ومما يستوقف المتأمل مقابلة ((مستخف يسارب تلك اللفظة التي بظلها تعطي زيادة في المعنى على مبناها، فظلها ظل خفاء، أو قريب منه ولكن الحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء...)) فتم التقابل العجيب الذي يدركه كل من يملك أدنى ذوق بأجواء التعبير يضاف إلى ذلك إيثار القرآن الكريم لهذه الألفاظ العالية التي لم تبتذلها ألسنة عامة أصحاب اللغة.

وانظر لحسن التناسب بين الألفاظ في قوله:﴿**وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)**﴾ وراع حسن الجوار بين لفظة ((شديد)) ولفظة المحال وقوة الترابط بينهما، إذ لما كانت لفظة ((المحال)) توحي بالقوة في مدلولها ومعناها، تقدمتها لفظة ملائمة لهذا المدلول فجاء التعبير ((شديد)) دون عسير أو شاق مثلا، وهذا كله عن الألفاظ مفردة فكيف بأسرار النظم في التركيب؟

\* \* \* \*

وإذا كان هنالك خلاف في تقدير اللبنة الأولى في العمل الأدبي. وأعني بها اللفظة المفردة بين عبدالقاهر وغيره من النقاد الذين أشرنا لم إلى آرائهم فيما سبق. فإننا لا نجد أثراً لهذا الاختلاف في مزية التركيب، أو التأليف. أو النظم الذي تضم فيه اللبنات بعضها إلى بعض حتى تفيد الغرض الذي من أجله تصاغ العبارة. فإن أولئك الذين أشدوا باللفظة المفردة لم يستطع واحد منهم أن ينكر فضل التأليف، أو النظم. أو التركيب. أي أنهم جميعاً يلتقون مع عبدالقاهر، في اعتبار قوة التركيب، وحسنه، وتنسيقه وأنه صاحب الأثر الأوفى في تقدير الكلام. فإذا كان قدامة بن جعفر مثلا. قد وصف اللفظة المفرد مما أسلفنا من الأوصاف فإنه يولي النظم الذي يسميه ((بالائتلاف)) عناية كبيرة، فيقرر أن اللفظة قد تحسن من حيث هي لفظة مفردة، فإذا نظر إليها مؤتلفة أي منظومة مع معناها، ومع وزنها، ومع ما تقتضيه قافية البيت في الشعر اكتسبت مزية أخرى، أو أصابها شيء من القبح.

ويطلق قدامة كلمة ((النعوت)) على المحاسن التي يفيدها الكلام من هذا الائتلاف، ويجعل في مقابلها العيوب، وليس يسمح المجال في هذا المضمار ببسط تلك النعوت أو العيوب كما أوردها.

وكذلك ضياء الدين بن الأثير. الذي نراه بعد أن أفرد الألفاظ المفردة بالبحث عن أسباب حسنها أو أسرار قبحها يتكلم طويلا عن التركيب.

وإذا كنا قد أفردنا بالإشارة بعض الألفاظ المفردة في طائفة من آيات السور، وذكرنا شيئاً مما تمتاز به على غيرها من مرادفاتها. فليس يفوتنا أن ننتبه إلى أن السياق كان له أبعد الأثر في تخير هذه الألفاظ على النحو الذي أشرنا إليه، فهذه الألفاظ وحدها في غاية السمو كما فصلنا، وازدادت جمالا وجلالا بنظمها في التركيب الجمل الذي اقتضاها دون غيرها.

وليس ما يفتش عنه النقاد هو محصل ما يصل إليه الكاتب أو الشاعر في صناعته من الجودة وعدمها قوة وضعفا، لأن نظرتهم إلى القرآن الكريم في أسلوبه لا تختلف بحال من الأحوال فهو آية في السمو، والجودة، والإعجاز البياني، ((وإذا كان الكلام يتركب من ثلاثة حروف هي من الأصوات. وكلمات هي من الحروف، وجمل هن من الكلام فسر الإعجاز في نظم القرآن الكريم هذه الأنواع كلها بحيث خرجت من جميعها تلك الطريقة التي قامت به فألفاظه كيفما أدرتها، وكيفما تأملتها، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها زمن أي جهة وافقتها فإنك لا تصيب لها في نفسك ما دون اللذة الحاضرة، والحلاوة البادية، والانسجام العذب)) ((وإذا صارت اللفظة مركبة فإن لتركيبها حكماً غيرها مفردة وذاك لأنه يحدث من أثر التركيب فوائد من التأليفات والامتزاجات، حتى يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة)) وإذا فأسرار بدائع التركيب كامنة في النظم فلنبحث عن هذه البدائع في النص الكريم من قوله تعالى:﴿**المر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ﴾**........... الآيات حتى قوله:﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** **(14)**﴾ ولنتفحص الأسباب التي من أجلها قدم جزء، وأخر جزء، ولماذا حذف هنا وأثبت هناك؟ ولم جاء التعريف هنا وهناك التنكير؟ ولم استعمل الخبر في موضع الإنشاء، ولم عبر بالمجاز مرة وبالحقيقة أخرى، وكيف حسن هنا التشبيه، وراق في موضع الجناس، إلى غير ذلك من مباحث تتصل بشأن التركيب والمعنى في الجملة والجملتين)).

وقبل أن نفصل القول في روعة نظم هذه الآيات، أري من الواجب أن نجمل الأغراض والمقاصد التي نرمي إليها.

وأول ذلك افتتاح السورة بما يلخص موضوعها كله، ويشير إلى جملة قضاياها فبعد الانتصار للقرآن الكريم، وأنه حق لا مرية فيه يبدأ سياق الآيات في استعراض آيات القدرة، وعجائب الكون. الدالة على قدرة الخالق، وحكمته وتدبيره الناطقة بأن من مقتضيات هذه الحكمة أن يكون هناك وحي لتبصير الناس، وأن يكون هناك بعث ونشور، وحساب وجزاء.

ويستمر السياق في تفصيل آيات القدرة، فتعرض السماوات مرفوعة بغير عمد، معروضة على الأنظار هائلة في شكلها وعلوها دون دعائم تقوم عليها، ومن هذا المنظور الهائل ينتقل السياق إلى ما هو أعظم هولا، إلى المغيب الذي تتقاصر دونه المدارك والأبصار، من قوله تعالى:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ وتضح لكل ذي عين وعقل مدي قدرة الله المحيط بكل شيء فمع الاستعلاء والتسخير تقترن الحكمة والتدبير. كل يجري لأجل مسمي إلى حدود مرسومة، وفق ناموس مقدر، ثم يهبط العرض التصويري الهائل من السماء إلى الأرض، فيرسم لوحتها العريضة الأولى، ويبدأ في تخطيطها وبسطها وانفساحها بخطوط جزئية أدق من الخطوط العريضة الأولى. إذ يقول تعالى:﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾** الآيات، وثم يرمي السياق إلى ما هو أكبر وأسمى غاية، ذلك هو طلب الإيمان بخالق هذا الكون البديع، وما فيه، وهذا المقصد يأتي بطريق التعجب من أمر قوم يلزمهم الإيمان، لكنهم يأبون إلا الكفر تجبراً وعناداً.

﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ ما لهؤلاء لا يؤمنون؟ فإن الذي خلق هذا الكون الضخم ودبره على هذا النحو قادر على إعادة الأناسي خلقاً جديداً، لكن إنما هو الكفر المسيطر على العقول والأفهام ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)﴾ إن هذا الكفر لا يملك معه فرد من هؤلاء المعاندين إلا الوقوف أمام المبلغ الكريم ((صلوات الله وسلامه عليه)) بطلب الخوارق والمعجزات، وتلك حجة من غلب على قلبه الكفر والضلال واستحوذ على عقله العناد فلج في كبريائه الساقطة.

ويعرض السياق في الآيات: وجوه الهداية وطرق الإرشاد لهؤلاء ولغيرهم، وأن عليهم النظر، والتأمل في أفاق الكون، وآيات الله المبثوثة في السماء والأرض، وأن عليهم التفكير والاتعاظ فلينظروا إلى مصارع الغابرين الذين استعجلوا عذاب الله فأصابهم، وتركهم مثله يعتبر بها من بعدهم ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ**﴾، ويمضي سياق الآيات مقدماً مغفرة الله على عقابه في مقابل تعجل هؤلاء الكافرين الغافلين، ليبدو الفارق الكبير بين الخير الذي يريده الله للناس والشر الذي يريده الناس لأنفسهم، ومن وراء هذا الشر يظهر انطماس البصيرة، وعمى القلب، والانتكاس الذي يستحق درك النار. وتلك الأغراض تجمعها الآيات الكريمات من قوله تعالى:

﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** **(6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنـزلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** **(7)**﴾.

ويستمر عرض تلك المقاصد السامية منتهية بالجولة الأولى في الآفاق، والتعقيبات عليها حتى يبدأ السياق جولة جديدة في واد آخر، في الأنفس والمشاعر والأحياء من قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى**﴾.. إلى قوله تعالى:﴿**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾** نلحظ في مرامي تلك الأغراض والمقاصد: تقرير المبدأ وإبراز حالة تغيير الله ما بقوم.إلى السوء لأنهم كانوا السبب في ذلك ((فليس الله بظلام للعبيد)) ثم يستمر العرض فيأخذ سياق تلك الآيات جولة جديدة أخرى في واد آخر موصول بذلك الوادي الذي تحدثت عنه الآيات الأولى في مطلع السورة، ذلك معرض تجتمع فيه مناظر الطبيعة، ومشاعر النفس الإنسانية متداخلة متناسقة في الصور والظل في مشهد تخيم عليه الرهبة والضراعة، والجهد والإشفاق، وتظل النفس فيه في ترقب وحذر، وفي تأثر وانفعال، نلحظ ذلك في قوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ** **(12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ**﴾..... إلى قوله تعالى:﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾([[63]](#footnote-63)).

ولنبدأ الآن في تحليل نظم هذه المعاني، وتلك المقاصد والأغراض التي ضمها إطار الآيات من مطلع السورة إلى قول الله عز وجل ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾ وبأدنى تأمل نلحظ أن أول ما يطالعنا في تراكيب هذه الآيات. تنوعها، وتفوتها من حيث الطول والقصر على حسب ما يقتضيه معنى هذه، أو تلك. لفقد ساقت الآية الأولى من السورة معنى ((الانتصار للقرآن الكريم، وأنه الحق الذي لا مرية فيه))، ولم يتطلب الموقف هنا سوى ثلاثة مقاطع من الآية هي قوله:((تلك آيات الكتاب)) وقوله:((والذي أنـزل إليك من ربك الحق)) وقوله:((ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) ولما بدأت الآيات في عرض القدرة الإلهية جيء بثمانية مقاطع هي قوله:((الله الذي رفع السماوات)) وقوله:((بغير عمد ترونها)) وقوله:((ثم استوى على العرش)) وقوله:((وسخر الشمس والقمر)) وقوله:((كل يجري لأجل مسمي)) وقوله:((يدبر الأمر)) وقوله:((يفصل الآيات)) وأخيراً:((لعلكم بلقاء ربكم توقنون)). وهكذا حتى نستقرئ الآيات جميعا في هذه المجموعة بل ستجد ما هو أبدع، وأروع، وذلك فيما يظهر من تنوع التركيب في كل مقطع من مقاطع الآية الواحدة من جملة اسمية، إلى جملة فعلية.

فهذه مثلا. جملة ((الله الذي رفع السماوات)) تعقبها متراخية عنها جملة ((ثم استوى على العرش)) وتأتي بعد ذلك جملة ((سخر الشمس والقمر)) فالأولى اسمية تعطي معنى الثبوت والاستمرار، فلا أحد غير الله سبحانه. رفع السماوات وثبتها بغير عمد، فهي مستمرة على هذا العلو المتناهي الثابت الذي لا يزول، وثمة جملة أخرى تفيد معنى التجدد والحدوث وذلك مثلا في قوله تعالى:((وسخر الشمس والقمر)) فمن ذا الذي يذلل هذين الفلكين. ويسخرهما لمصالح البشر، وفق قاموس طبيعي متجدد فنهار يعقبه ليل، وليل يعقبه نهارن في حركة متكررة دائبة لا تفتر؟ لا أحد غير الخالق الكريم الذي أبدع خلقهما على هذا النحو العظيم. وتأمل بديع صلة قوله تعالى:((ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) بالجملة التي تليها من قوله في مطلع الآية الثانية ((الله الذي رفع السماوات)) ووجه الصلة بينهما: أن الأولى نعت الإيمان على كثير من الناس، لكن هذا الإيمان بمن؟ أنه الإيمان بالله الذي رفع السماوات بغير عمد. حقاً أنه تركيب تستلهم معناه القلوب وترعاه العيون. يأتي بعده السياق معنى أدق وأعظم يغيب عن مدارك البشر جميعاً، ذلك هو قول الله سبحانه:((ثم استوى على العرش)) ولأمر ما جاء العطف ((بثم)) دون غيرها من حروف العطف!! إن هذا الحرف يعطي مهلة للتأمل لينظر أهو قادر على كتناه ذلك العلو المطلق، والاستواء الغيبي الذي لا تدركه الأبصار.

ويأتي بعد ذلك في السياق العطف بالواو، الذي لا يقتضي غير التشريك بين جملتين، وفي هذا إيماءه إلى مدى إحاطة علم الله، وقدرته. فكونه تعالى على خلقه بائن منهم فإن علمه وقدرته محيطة بكل شيء، ولذا جاء قوله تعالى:((وسخر الشمس والقمر)) بعد قوله:((ثم استوى على العرش)).

وافطن إلى قوله تعالى:((يدبر الأمر ويفصل الآيات)) ما لهذه الجمل جاءت من غير عطف بثم أو الواو. أو حروف آخر من حروف العطف؟

إن الأمر ليس يخضع لتقنين البلاغيين ومصطلحاتهم، كقولهم: عطف على تلك الجملة لكمال الانقطاع، وترك العطف لشبه كمال الاتصال ((مثلا)) وإنما الأمر أدق وأبدع من ذلك. ونلحظ براعة النظم في عملية التدبير، والتفصيل الذين لا يعجز الله شيء منهما. فاتصالهما مركبين في التعبير من غير عطف يتم عن اتصالهما الوثيق بعلم الله، وقدرته المسيطرة التي لا تنقطع ولا تنفصل بحال من الأحوال.

والحظ كيف ختمت الآية الأولى في السورة بقوله تعالى:((لا يؤمنون)) دون ((لا يتفكرون أو لا يعلمون مثلا)) وختمت الآية الثانية ((بتوقنون)) دون تصدقون ليس هذا الختام لتوافق الفاصلة القرآنية فحسب، وإنما لكون الآية الأولى ذكرت في سياقها معاني القدرة الإلهية من رفع السماوات والاستواء، تسخير الشمس والقمر وتلك الأمور تستدعي أن يكون الختام ((بتوقنون)) دون تصدقون، فدرجة اليقين أعم وأكبر من التصديق واليقين بالشيء أصل التصديق به.

والحظ هذا التناسق العجيب في سياق الآيات، إذ لما انتهت من عرض القدرة الألهية في العلوم، أعقبت بعرض القدرة ومظاهرها في السفل. على حد قوله الحق تبارك وتعالى:((وهو الذي مد الأرض.. إلى قوله إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)) والإطار الذي يكتنف. عرض هذه المعاني الشريفة السامية منوع بجمل اسمية وأخرى فعلية، مرة مؤكدة ومرة غير مؤكدة ومما يسترعي النظر في هذا السياق توالي ثلاث جمل مصدرة بفعل ماض من قوله تعالى:((مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ))، وقوله:((وجعل فيها زوجين)) وبعد هذه الأفعال تأتي جملة ((يغشي الليل النهار)) ما سر افتتاح هذا التركيب بالفعل المضارع ((يغشي))؟ أليس مد الأرض، وبسطها وتثبيتها بالجبال الراسية، وبث الثمرات في جنباتها من الدلائل على عظمة الخالق، وقدرته؟ إنه لكذلك، ولكن فرط ألفه الناس لهذه المخلوقات، وبقاؤها صامتة جامدة قد يهون عليهم أمرها، دون تدبر واعتبار طويلين، أما آية الليل، وآية النهار فهما آيتان كبيرتان، في أحدهما طلب المعاش، وفي الأخرى طلب السكون فالكيفية البشرية فيهما متجددة نشيطة مستمرة.

ولذا جاء التعبير بالمضارع الدال على التجدد والحدوث. وأخيرا تأمل ختام الآية إذ جاء مؤكدا بأن واسمية الجملة، وانتهى بقوله:((يتفكرون)) دون يعقلون مثلا، لأن في هذه المخلوقات، وبديع صنعها، وتسخيرها ما يستوجب التفكر، والتأمل في ملكوت الكون، ثم سر مع الآية من قوله:((وفي الأرض قطع متجاورات)) إلى قوله:((لقوم يعقلون)) إنه نمط من القول رفيع، تتوالى تراكيبه في عرض الجزئيان الدقيقة للأرض، بعد رسم الخط العريض لخلقتها والغرض منها، فبعد أن قال سبحانه:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾** ثم بين فيها من منافع لعموم المخلوقات قال مفصلا:﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ**﴾ وكذا وكذا. سبحان الله!! ما من تركيب أو جملة إلا وتأتي حاملة في ثناياها معنى أضخم وأعظم من إطارها فجملة ((وفي الأرض قطع متجاورات)) أربعة ألفاظ فقط، لكن من ذا الذي يستطيع عد قطع الأرض، وحصرها وجمع صفاتها؟ إن هذا من بلاغة الإيجاز في أسلوب القرآن الكريم، وأعظم منه طريقة حرث هذه القطع، وما ينبت فيها وما يخرج منها وأعظم منها سقيها بماء واحد ثم اختلاف ما تنتجه. في اللون والطعم والحجم والرائحة... ولسر ما جاءت جملة ﴿**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾** مصدره بالفعل المضارع ((يسقي)) دون أسقيناه. ففي الأول استمرار لتنوع الثمرات، واختلافها على الرغم من سقيها بماء واحد، وفي ذلك استمرار القدرة المهيمنة على كل شيء. وأخيرا تأمل ختام الآية بقوله:﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** **(4)**﴾ نعلم أن في خلق هذه المخلوقات ما يستثير العقول، ويدعوها إلى التدبر والتفكر، فليس الأمر مجرد حدث أو شعور، ولكنه قضية تخاطب العقل أولا، وتستلهب الشعور ثانياً.

ومما نلحظه في تراكيب هذه الآيات مجملة تنوعها من جملة فعلية إلى اسمية مؤكدة وغير مؤكدة، إلى ما هو مصدر بالاستفهام وغيره، وكل ذلك أكسبها جدة وحيوية.

وخذ الآن قوله تعالى:((وإن تعجب فعجب قولهم.. الآية)) واستشعر ارتباطها بما قبلها، إنه تقرير ((لذكر مسألة المعاد، لأنه سبقه عرض هائل لذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج إليه أمر المبدأ([[64]](#footnote-64)) فجاءت هذه الآية بهذا الربط المحكم البديع على الرغم من طول النفس بينها وبين إخوتها. ولم يزل المعنى حياً ينبض بالحركة المتواصلة، وثم اتل قول الله تعالى:﴿**أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ إلى قوله:﴿**وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5)**﴾ وتأمل ما اشتملت عليه من الجمل فقد ضم إطارها ست جمل. على الرغم من قصر هذا الإطار والأهم من ذلك صفات تلك الجمل وطريقة نظمها، إنها في عمومها جمل اسمية، مصدرة بالاستفهام في بعضها، وهذا الاستفهام إنكاري، ذلك لأن المعنى الذي تسوقه: هو إنكار الكافرين مسألة المعاد، ولما كان الإنكار منهم قوياً يؤكده عدم إيمانهم بما وضح لهم عن شأن. توالت التأكيدات بالجمل الاسمية حسماً للموقف.

وتأمل ذلك الربط العجيب بواسطة حرف العطف، وما أحدثه من تناسق صوتي يملأ جرسه الفم، ويقرع الآذان. وراع ذلك التكرار بلفظة ﴿**أُولَئِكَ**﴾ الذي بواسطته أدت الجمل معناها وافياً وقررت ما يستوجبه أمر هؤلاء المنكرين الذين غلت عقولهم أبوا إلا عمي البصيرة عن الحق. فالأغلال والنار جزاء لهم من جنس عملهم.

لقد تدرج وصف العذاب مما هو شديد إلى ما هو أشد إمعاناً في الكناية بهؤلاء المنكرين لإمعانهم في الكفر والضلال.

وانظر ختام الآية من قوله تعالى:﴿**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ وتأمل ما أحدثته بلاغة التقديم وتوسيط ضمير الفصل ﴿**هُمْ**﴾ بين الصدر والعجز ففي ذلك تأكيد العذاب بالخلود فيه، وليس لمنكري البعث فحسب، وإنما للجمع المدلول عليه بقوله وسط الآية:﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾**([[65]](#footnote-65)).

وقد وافق توسيط الضمير في آخر الآية، توسيط لفظ الكافرين في صدرها فأي إحكام يبلغ مثل ذلك؟

ثم يمضي السياق في قوله تعالى:﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**﴾ إلى قوله:﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** وهنا أربع جمل: اثنتان منهن في صدر الآية ونوعهما فعليتان - الأولى فعلها مضارع - والثانية ماض مصدر بقد. واثنتان اسميتان جاءتا في عجز الآية. مقابلة ونسج بديع فمضارع يدلي على التجدد والاستمرار، لأن الآية تسوق معنى هو تمادي الكافرين في غيهم، واستمرارهم عليه بعدم الإيمان الذي ينم عنه طلبهم تعجيل العذاب، وماض مصدر بقد تحقيقاً لوقوع العذاب إذ قد حل بمن قبل هؤلاء.

ثم تأتي النتائج المترقبة تحملها الجملتان المؤكدتان بالاسمية واللام وهنا مغفرة في جانب الحسنة، وعقاب في جانب السيئة. تقابل عجيب من جنس ما يعمله الناس، ومما يسترعي النظر ذلك الجار والمجرور في قوله تعالى:﴿**لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ**﴾ إن كان من منة فهذا أمن. بل شمول صفحة تغالي عن الناس، ومغفرته لمن شاء منهم أرحب وأعظم. بعد ذلك راع ختام الآية الكريمة إذ جاء بهذه النقلة السريعة في الفاصلة المبنية على حرف الباء وقبله حرف مد يد الصوت هو ((الألف))، بينما فاصلة الآيات السابقة جاءت منتهية بحرفي الواو والنون، وفي ذلك تنويع يتجدد معه نشاط السامع والقارئ.

واعلم أن هذه الآية ((قررت طعن الكفار في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبطلبهم استعجال العذاب، وتكذيبهم بمسألة الحشر والنشر فتوالي السياق مثبتاً طعن الكفار في نبوة صلى الله عليه وسلم بطلبهم المعجزة والبينة([[66]](#footnote-66)))) على حد قوله تعالى:((ويقول الذين كفروا لولا أنـزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكم قوم هاد)) هنا يبرز الترابط المحكم بين تراكيب الجمل إذ تكشف عما أراد كفار مكة، واقترحوه على النبي صلى الله عليه وسلم، وتبين صرف الله لهم عما طلبوا مقررة وظيفة النبي الكريم في الهداية والإرشاد.

وقد قال العلماء في وجه نظم هذه الآية:((أنه تعالى لما حكي عن الكفار أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتي به رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا البينات الأخرى للاسترشاد وطلب البيان؟ أو لأجل التعنت والعناد، وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات، أو يزداد استكبارهم وإصرارهم.

لا جزم أنه سبق في علمه المحيط بكل شيء أن طلبهم هذا إنما هو لمجرد العناد المحض فمنعوا من تحقيق ما طلبوا([[67]](#footnote-67)).

وفي الانتقال من أسلوب الخبر إلى الإنشاء في تراكيب الآية الكريمة ما يجدد نشاط السامع، ويعينه على فهم المعنى المراد، وأخيراً تأمل تقييد طلب هؤلاء الكفار بقول الله عنهم:((آية من ربه)) كيف وليه الجواب مقيداً. ومقصوراً ((بإنما)) في قوله:((إنما أنت منذر)) ثم عطف على هذا الجواب قوله تعالى:((ولكل قوم هاد)) إن في ذلك من حسن الختام ما يفحم كل خصم. وأعجب من ذلك تناسق الآية في مجمل تراكيبها وجملها، تقاربها في مجموعها فهي من شقين:

الأول: في إيراد الله سبحانة مقاله الكفار. واستهزائهم برسوله صلى الله عليه وسلم وذلك بين من إسناد الرب إلى الضمير العائد إلى الرسول في قوله:((من ربه)) أي كان رب له وحده. وليس رباً لهم في زعمهم.

والثاني: في الرد عليهم من جملتين اثنتين هما:((إنما أنت منذر، ولكل قوم هاد)). وقد جاءتا مؤكدتين بالاسمية مع ما فيهما من قوة الحصر بإنما إحكام وتناسق عجيب.

وامعن النظر في قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى**﴾ إلى قوله:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)**﴾ وتفحص أسرار هذا التراكيب في مدي تلاحمها، وترابط جملها.

لقد قررت الآية السابقة، والخاصة بمطالبة الكفار المعجزة من النبي صلى الله عليه وسلم أن علم الله محيط بكل شيء، ولذا صرفهم عما طلبوا لعلمهم أنهم لا ينتفعون بهذا الطلب ثم جاء السياق مفصلا علم الله الذي لا يغيب عنه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء.

ولم يزل الترابط والإحكام في نسق الآيات متواصلا إذ لما تحدثت الآية من قوله تعالى في أول السورة:((وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)) لما تحدثت عن مبدأ المعاد جاءت آية ((اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ))، لتقرر مبدأ الخلق والإيجاد مثبتة قدرة الله في الحالين.

والآن خذ الجملة من قوله:((الله يعلم))، وتأمل سر تقديم لفظ الجلالة ((الله)) على الفعل يعلم. إن في ذلك تمكيناً لقدرة الله وتماماً لعلمه أفاده ما في العبارة من قصر وتخصيص استفيد من الجملة الاسمية.

والحظ هذه التقابلات العجيبة في صيغ هذه التراكيب المتفقة في الشكل فكلها من فعل واحد مضارع هو: يعلم، تحمل، تغيض، تزداد، وفي ذلك إشعار بالتجدد، واستمرار علم الله، وقدرته على الخلق، ثم هذا الختام للآية في قوله:﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8)**﴾ فهو يقدر الأمور بحكمته، وعلمه، وإرادته.

لقد فصل في شق الآية الأولى ثم عمم في الشق الثاني سبحانه من لا تند عن علمه خاطرة فقد صورت الآية الكريمة علم الله بما في مكنونات الأرحام ثم عقب السياق بأن كل شيء ((عنده بمقدار)) والتناسق واضح بين كلمة مقدار، وبين النقص والزيادة، والقضية كلها ذات علاقة بإعادة الخلق فيما سبق من حيث موضوع السورة كما أنها. أعني آية - ذات علاقة من حيث الشكل والصورة بما سيأتي بعدها من ذكر الماء الذي تسيل به الأودية ((بقدرها)) في السيولة والتقدير ثم إنه في الغيض والزيادة تلك المقابلة المعهودة في جو السورة العام([[68]](#footnote-68)))).

وبعد أن عممت الآية وخاتمتها علم الله بكل شيء زاد أو نقص مما يتعلق بمدد استقرار الأجنة في الأرحام. انتقل السياق في قوله تعالى:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ﴾** إلى ما هو أكبر وأعظم في التقسيم من حيث إحاطة علم الله بكل شيء، فهذه الآية كسابقتها حيث عمت المعنى ثم فصلته: في جملتين اسميتين كمالا لتأكيد المعنى وقوته، ومما يثير الإعجاب ويبعث على التأمل أن هذه الآية بجملتيها جاءت مركبة من خمسة ألفاظ كلها أسماء، وليس بين هذه الأسماء من وسائل الربط سوى حرف واحد هو ((واو)) العطف، بل هناك البراعة في تلاحم الأجزاء في الجملة الأولى من خلال ما يسميه البلاغيون ((بالتهذيب)) الذي هو فن من فنون البديع. وله أنواع منها: ما يكون بعد الفراغ من تأليف الكلام وهذا النوع قد عري منه القرآن لصدوره من عند الله سبحانه لا من عند البشر، إذ أن كلام البشر بحاجة إلى التنقيح والتهذيب، أما القرآن فليس بحاجة إلى هذه النظرة الآتية من هذا النوع لصوره عن من هو أعلم وأحكم.

ومن أنواع التهذيب: ما يعضد المعنى، وما تجتنب به العيوب اللاحقة لنظم الكلام. ((وهذان النوعان من التهذيب هما اللذان جاء نظم القرآن عليهما غير مقصود هذان النظم، ولا متكلف، لأنه كلام قادر مطلق القدرة وإنما الذي يتطلب النظر والتحرير هو كلام البشر لنقصهم ونقص أعمالهم، ومن هنا فقد استخدمت الآية الكريمة هذا الانتقال العجيب بواسطة أسلوب التهذيب غير المقصود المتكلف. وأربت على كل بلاغة، إذ أن التهذيب فيه معنى الانتقال من الأدنى إلى الأعلى الترتيب. ولكن الآية هنا جاء الانتقال فيها من الأبلغ وهو قوله تعالى:((عالم الغيب)) إلى ما هو دون في المرتبة وهو قوله والشهادة، وهذا ما يوحي به ظاهر الألفاظ، ولكن بالاستقراء والتدليل يظهر للمتأمل أن الآية اتبعت طريق الانتقال من الأدنى إلى الأعلى وفق طريقة فذة في النظم. وبيان ذلك ما كره ((ابن أبي الأصبع)) في كتابه ((بديع القرآن)) إذ يقول:((أن علم الشهادة في حق الله سبحانه أبلغ، فإنا لا نعقل أن علم الشهادة بعلم إلا بواسطة الحواس، ومني فقدنا الحواس فقدنا علم الشهادة، علم الغيب لا يغتفر في تحصيله إلى الحواس، وقد ثبت البرهان القاطع تنـزيه الحق سبحانه عن الحواس، وثبت أنه يعلم علم الشهادة، وحصول علم لا يعلمه إلا من له حواس أمن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب، ومن حصول علم لا يعلمه إلا من له حواس لمن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب، من حصول علم لا يفتقر في حصوله إلى الحواس، فثبت أن علم الشهادة هنا أبلغ([[69]](#footnote-69)))).

وفي ختام الآية هذان اللفظان الفريدان، اللذان هما قوله تعالى:﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)**﴾ وهذان اللفظان لا نملك إلا الوقوف أمامهما خاشعين، وقبل أن ننتقل إلى آية أخرى يجب أن نشير إلى ما ذكره ابن أبي الأصبع وهو يعرض لروعة النظم في قوله الله تعالى:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ إذ يقول:((وحصول علم لا يعلمه إلا من له حواس لمن لم تكن له حواس أبلغ وأعجب)) فقوله:((لمن لم تكن له حواس)) صريح في نفي صفة البصر عن الله سبحانه لكن هذا النفي لا يعني به أبن أبي الإصبع في نفي الصفة، وإنما يقصد نفي التشبيه اتباعا ًلمذهب أهل السنة والجماعة الذي يثبتون لله من الصفات ما يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل، من جهة أخرى فإن الله سبحانه الذي اختص بعلم الغيب أهون عليه علم الشهادة وإدراك ما يستطيع البشر إدراكه بحواسهم.

وقف عند قوله سبحانه:﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ** **(10)**﴾ وتأمل هذا النظم البديع إذا لم قرر السياق إثبات علم الله المحيط بالشاهد والغائب في الآية السابقة من قوله:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** جاء قوله:﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾** الآية. وفي ذلك تفصيل لمدي علم الله جلت قدرته - بكل شيء، ومن بديع هذا النظم تلك المقابلات الفنية العجيبة بين الألفاظ، ومن روائعه مقابلة مستخف بسارب تلك اللفظة التي بظلها تعطي عكس معناها، فظلها ظل خفاء أو قريب منه، ولكن الحركة فيها هي المقصودة في مقابل الاستخفاء([[70]](#footnote-70)))) فتم التقابل العجيب الذي يدركه كل من له أدنى ذوق بفن القول.

وإن كانت المقابلة هنا غير حقيقية، بل تكاد تكون إيهاماً بالمقابلة، لأن المستخفي يقابله الظاهر الذي يكشف عن نفسه، أما السرب ففيه حركة خفية. ولذلك فهو قريب من الاستخفاء ففيه ما يمكن أن نسميه ((مشاكلة معنوية)) أو إبهاما هذه المشاكلة. وقد فسر الطبري ((السارب)) بالظاهر: أي الظاهر بالنهار في ضوئه([[71]](#footnote-71)) وهنا تتم المقابلة بين اللفظين.

ويمضي السياق مترابطاً إذ يقول سبحانه:﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾** إلى قوله:﴿**وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** **(11)**﴾ في هذه الآية ترابط عجيب لحظه التأمل في جو الآية السابقة حيث ترتب عليهن ذكر الأسباب الداعية إلى حلول عذاب الله بكل من يحيد عن الحق بعد ظهوره تكبراً وعناداً. وعلى ذكر الأسباب تترتب النتائج في أسلوب هذه الآية، والتي من عجيب نظمها عرض الأمور التي ما أن راقبها الإنسان إلا كان بمنجاة من عذاب الله وبطشه، تلك الأمور متمثلة في قوله تعالى:((له معقبات)) وهذا على القول: بأن ألها في ((له)) تعود إلى ((من)) في قوله:((سواء منكم من أسر القول ومن جهر به))... وعلى أن المراد ((بالمعقبات)) الملائكية الحفظة ((وهو الذي عليه الجمهور([[72]](#footnote-72)))).

ويتبين بديع الرصيف والتأليف في ذكر الأسباب الداعية إلى حلول العذاب ثم في ذكر ما من شأنه الحيلولة دون عذاب بحكمه ومشيئته، وهو عمل الملائكة الموكلين بحفظ البشر ومراقبتهم فمتى اذكر هذا الشأن وروقت حصل الخلاص من عذاب الله بأمره وحكمته وإن لم يراقب الإنسان ربه في سره وجهره فليس بمنجاة من العذاب، وهذا ما جاء مرتباً في السياق من قوله:﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ وقوله:﴿**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾.

ومن بديع النظم في الآية أن وردت تراكيبها مصدرة بالجملة الاسمية في قوله:﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ**﴾.

مع بلاغة التقديم والتأخير هنا، وفي ذلك تمام التوكيد وقوته ثم التنويع في العبارة بمجيء الجملة الفعلية من قوله:﴿**يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** والفعل هنا مضارع، وصيغة المضارع تفيد معنى التجدد والحدوث، وهذا هو ما يتناسب مع عمل الملائكة الموكلين بالآدميين في جيئة وذهوب، وحدوث واستمرار، وفي تكرار الفظة قوم، وتنكيرها ما يوحي بملائمتها للفعل ((يغير)) إذ سيق لمعنى الانتقام والعذاب، وفي تكرار لفظ الجلالة ((الله)) ثلاثاً ما يعضد المعنى قوة ووضوحاً إذ البطش والعذاب قوة. والله لاغيره القوي القادر العزيز.

وأخيراً تختم الآية بالجملة الاسمية في قوله:﴿**فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾. وفي ذلك تأكيد لتقوية المعنى كما تقتضيه الجملة الاسمية، وانظر لم خطفت الياء من لفظة ((وال))؟ فليس ذلك لمجرد تناسق الفاصلة، وإنما في ذلك تعبير عن إنـزال العذاب، وسرعته، وعدم القدرة على رده والإفلات منه.

ولم تزل الآيات في تراكيبها متلاحمة متلاصقة إذ ترسم الآيتان الكريمتان من قوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** حتى قوله تعالى:﴿**وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ**﴾. مشهداً علوياً هائلاً يؤذن بالرعب والخوف الشديد.

\* \* \* \*

تلك نقلة عجيبة في سياق الآيات بارعة في نقل الحس والشعور، فمن روائع النظم هنا ذكر البرق، والرعد، والسحاب الثقال، وبجانب تلك الظواهر تساق لفظتان هما ﴿**خَوْفًا وَطَمَعًا﴾** إذ أن الظواهر السابق ذكرها من برق ورعد وسحاب تحدث في النفس البشرية أمرين هما الخوف والطمع ولا ثالث لهما، وهذا التعبير من براعة صحة الأقسام الذي هو عبارة عن استيفاء المتكلم جميع أقسام المعنى الذي هو آخذ فيه بحيث لا يغادر منه شيئاً، وكل ذلك أتت عليه الآية الكريمة فليس في رؤية البرق إلا الخوف من الصواعق، والطمع في الغيث. ومن بدائع النظم في الآية هنا تقديم الخوف على الطمع، وإذ أن الصواعق يجوز وقوعها من أول برقة، ولا يحصل المطر إلا بعد تواتر الإبراق، فيبقي عامل الخوف مسيطراً على النفوس، أما إذا تواتر الإبراق ففي ذلك توقع لنـزول المطر. ولذا كانت العرب تعد سبعين برقة ثم تنتجع فلا تخطئ الغيث والكلأ، وإلى هذا أشار المتنبي بقوله:

وقد أرد المياه بغير هاد سوي عدي لها برق الغمام[[73]](#footnote-73)\*

ولما كان الأمر المخوف يجوز وقوعه من أول برقة واحدة أتى ذكر الخوف في الآية مقدماً لكون الواحد أول العدد، ولما كان الأمر المطمع من البرق إنما يقع بعد عدد من الإبراق أتى ذكر الطمع ثانياً لكونه لا يقع إلا في أثناء العدد، وليكون الطمع ناسخاً للخوف. كمجيء الرخاء بعد الشدة، والفرج بعد الكربة والمسرة بعد الحزن، فيكون ذلك أحلى موقعاً في القلوب، ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنـزلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾**.[[74]](#footnote-74)\* ([[75]](#footnote-75))

\* \* \* \*

وقد حصل في هاتين اللفظتين اللتين هما بعض من الآية مع صحة التقسيم حسن الترتيب والتهذيب، ومن تمام المعنى وحسن النظم ختام الآية بقوله:((ينشئ السحاب الثقال))، فقد جاءت هذه الخاتمة بعد قوله:((وطمعاً)) فمن ذا الذي لا يطمع فيما تحمله السحاب من خير، وفي وصف السحاب ((الثقال)) ما يضفي على المشهد روعة وجلالا وقوة تشهد أنه من صنع الله.

ثم عطفت الآية الثانية بالواو من قوله: ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته. فهنا مشهد آخر ذو حركة مليئة بالخوف متمثلة في زمجرة الرعد وقصف الصواعق المدبرة بمشيئة الله، والإطار المتضمن لتلك المعاني متحرك أيضاً يلحظ في الأفعال المضارعة، يسبح، يرسل، يصيب، يشاء، يجادلون، وراع العطف بالواو الذي وليه عطف بالفاء في قوله:﴿**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ**﴾ ففي ذلك الدلالة على نفاذ أمر الله وسرعته من غير ما تباطؤ أو مانع يحول.

وبعد أن قررت هذه الآية أموراً كلها من عند الله، وأزمتها طوع إرادته من خير أو شر يصيب به العباد أو يصرفه عنهم، جاء قوله:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ**﴾.

وهنا ينضح الترابط المحكم بين الآيات. فقوله:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾** حتى آخر الآية تقرير بأنه ما من شيء سبق ذكره في الآية السابقة، إلا وهو مسير ومدبر بمشيئة الله وإرادته، وأن ما دونه من المخلوقات لا تملك من الأمر شيئاً. وإذن له دعوة الحق لا لغيره.

والآن - لتفحص بعض تراكيب هذه الآية، ولننظر في مدي تلاحم كل لفظة مع أختها، وقيام كل تركيب بوظيفته فيما يخدم المعنى ويوضحه.

انظر لأول لآية فقد صدر بالجار والمجرور مقدماً على خبره وفي ذلك تخصيص بأن مصدر كل شيء من عند الله وإليه وله، فإذاً ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾، وراع تلك الإضافة في قوله:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾ لأي غرض تلك؟ ((إنها من إضافة الموصوف إلى الصفة، فحاصل المعنى أن الذي يستحق أن يعبد هو الله تعالى لا غيره فهو حق وله دعوة الحق([[76]](#footnote-76))))، ويعضد ذلك المعنى ويقويه قوله بعده:((والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء)).

ويعنينا في نظم تلك الآية الوقوف على كنه التركيب فيها وطريقته. فبعد قوله:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾ خذ من الآية قوله:﴿**إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾** وانظر لسلاسة تلك الألفاظ وسهولتها، مع أنه تعبر عن مشهد يتطلب ألفاظاً أقوى وأشد، ولكن عدل عن غيرها إليها، لأن التصوير جاء منتزعاً من القريب الواقع فجيء له بألفاظ قريبة المتناول، ثم الحظ لم التعبير ((بكفيه)) دون كفه وما السر في تعريف لفظة الماء باللام، كل ذلك معين بأداء المعنى على أكمل وجه، في أكمل صورة وأبدع تركيب.

\* \* \* \*

وهذا شأن الأسلوب القرآني في اتباع طريقة التصوير إذ يعمل على تقريب المعنى وتقريره في الأذهان، وسيمر معنا القول في ذلك مفصلا في حينه إن شاء الله.

وأخيرا تأمل تكرار النفي في سياق الآية من قوله:﴿**وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ ثم لم لم يعبر بخسارة أو ضياع؟ ذلك التكرار لنفي والتعبير بضلال يبقي المعنى مستمراً يشهد بخسران ما يعمله الكافر.

\* \* \* \*

**نسق الفواصل في سورة الرعد**

قبل أن نستوضح نسق الفواصل في هذه السورة، ونتبين أكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل، وخصائص هذه الحروف يحسن أن نشير إلى مفهوم الفاصلة القرآنية، وقيمتها اللفظية والتركيبية والمعنوية.

\* \* \* \*

ليس هناك عالم من علماء الأدب، أو ناقد من نقاده إلا وقف عند أجراس الحروف التي تنتهي به الجمل والتراكيب، فإن هذه الأجراس والأصوات إذ اتفقت طربت لها الآذان، ووجدت طريقها إلى القلوب.

وسموا هذه الظاهرة ((بالسجع))، وشاعت هذه التسمية عند جمهور العلماء من قديم الزمان إلى اليوم، ولعل من أقدم علماء الأدب الذين قيدوا هذه الظاهرة في الكلام المنثور - أبا عثمان عمر بن بحر الجاحظ (ت 255هـ) الذي أطال في سرد كثير من النصوص المسجوعة من ما أثر عن أمراء البيان، ونقل كثير من الخطب والمواعظ الزاجرة التي تزجر بالسجع الرائق الجميل غير المكلف. وليس يسمح المجال لذكرها خشية الإطالة والاستطراد، ويمكن لأي باحث الرجوع إلى ذلك في كتب الجاحظ، ولأمانع أن نسوق شاهداً واحداً لندل على ما ذكرنا فقد ذكر الجاحظ كلمات كان يخطب بها ((سليمان بن عبدالملك)) ومنها قوله:((اتخذوا كتاب الله إماماً، وارضوا به حكماً، واجعلوه قائداً، فإنه ناسخ لما قبله ولم ينسخه كتاب بعده)) إلى غير ذلك من الأمثلة التي بلغت الذروة في البيان كنقل الجاحظ خطبة النبي - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع([[77]](#footnote-77)))).

ومن أمثلة الجاحظ على السجع كثيراً ما يختلط السجع بالازدواج. وهو توافق الفاصلتين في الوزن.

وتتابع بعد الجاحظ كثير من العلماء الذين حالوا تحديد مفهوم كلمة السجع، وضربوا لها أمثلة كثيرة من القرآن الكريم. وغيره من الكلام البليغ. فقد تحدث عنها: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت386هـ) في رسالته ((النكت في إعجاز القرآن)) تحت عنوان ((باب الفواصل)) وذكر: أن الفواصل ((حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني، والفواصل بلاغة والأسجاع عيب، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها، وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المشاكلة كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه، والقائدة فيه لم يعتد به فصار بمنـزلة ما ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة.. والفائدة في الفواصل دلالتها على المقاطع، وتحسينها الكلام بالمتشاكل، وإبداؤها في الآي بالنظائر([[78]](#footnote-78)))).

وتحدث عن السجع والفاصلة القرآنية: بدر الدين الزركشي (ت 794هـ) في كتابه ((البرهان في علوم القرآن)) وفصل القول في الفواصل، ورؤوس الآي، ونقل ما فرق به الإمام ((أبو عمر الداني)) بين الفواصل ورؤوس الآي: من الفاصلة هي الكلام المنفصل مما بعده، والكلام المنفصل قد يكون رأس آية فاصلة، وكذلك الفواصل. يكن رؤوس آي وغيرها، وكل رأس آية فاصلة، وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين، وتجمع الضربين.

ويشير الزركشي إلى أن الفاصلة القرآنية تقع عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمي فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها بين ما بعدها، لم يسموها أسجاعاً، فأما مناسبة فواصل: فلقوله تعالى:((كتاب فصلت آياته))، وأما تجنب الإسجاع: فلأن أصله من سجع الطير فشرف القرآن الكريم أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت طائر([[79]](#footnote-79)))).

وكلمة السجع عند العلماء: مأخوذة من سجع الحمامة إذا رددت صوتها وعن سجع الحمام نقلوا هذه اللفظة إلى الكلام المنثور المقفى، إذا وإلى المتكلم الكلام على روي، أي أن السجع في الكلام المنثور مثل الروي، وعرف بعضهم بأنه:((تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد في الآخر. أو هو نفس الفاصلة الموافقة الآخر، والسجع في أصله هو هدير الحمام. ثم نقل لهذا المعنى فلا يصرح بوجوده في القرآن، لا لعدم وجوده في نفس الأمر بل لرعاية الأدب ولتعظيم القرآن، وتنـزيهه عن التصريح بما أصله في الحمام، ولكونه من نغمات الكهنة في كثيرة أصل إطلاقه، ولا يقال في قرائن القرآن الكريم أسجاع بل فواصل([[80]](#footnote-80))))، ويصرح الباقلاني (ت403هـ) بنفي السجع من القرآن الكريم، ويسميه فواصل.

إذ يقول:

((كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة في نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات. وليس كذلك الشعر، وقد علمنا أن بعض ما يدعونه سجعاً - متقارب الفواصل متداني المقاطع، وبعضها مما يمتد حتى يتضاعف طوله عليه، وترد الفاصلة على ذلك الوزن الأول بعد كلام كثير، في السجع غير مرضي. ولا محمود([[81]](#footnote-81)))) من خلال ما مر ذكره نري أن بعض العلماء: أراد أن يفرق بين القرآن وغيره. فاحتفظ بكلمة السجع لغير القرآن، وخص ما يكون منه في القرآن باسم الفواصل.

والحقيقة أنه لا يروقنا هذا التفريق في المصطلح إذا اتحد المفهوم فإن حجة الذين فرقوا في التسمية، فخصوا ما في القرآن باسم الفواصل، وما في غيره باسم السجع. حجة واهية وهي قولهم.

((إن السجع موصوف بالتكلف لأنه من صنع البشر)).

وحاشا أن يكون شيء من هذا التكليف في كتاب الله عز وجل، ولا نري رأيهم، لأن المفهوم إذا اتحد وجب أن يتحد المصطلح. أما قولهم: إن السجع فيه تكليف، فإن كثيراً من السجع لا نرى فيه أثراً لهذا العيب، وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من الكلام المسجوع الجميل الرائق، وحاشا أن يكون رسول صلى الله عليه وسلم من المتكلفين. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ وكذلك ورد في المأثور من كلام كثير من أهل اللسن والبيان من السجع ما هو رائق مطبوع، لا يلحظ فيه شيء من التكلف الذي يشير إليه هؤلاء العلماء، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك أثناء الحديث عما ذكره الجاحظ عن ((السجع)) وليس معنى هذا أننا ننكر أن في السجع ما هو متكلف مصنوع ولكن ذلك يختلف من أديب إلى أديب، ومن خطيب إلى خطيب، ومن كاتب إلى كاتب، بحسب تمكن كل واحد من هؤلاء من فنه الأدبي، والذي كان ينبغي أن يقال: حتى لا يكون هذا التفريق المصطنع أن يلجأ أولئك الذين فصلوا بينهما إلى الموازنة بين سجع القرآن وسجع غيره من ضروب الكلام، ومن حقهم بعد ذلك أن يفاضلوا بين الضربين وأن يحكموا بعد الدراسة الواعية والتذوق السليم بجودة سجع القرآن وتفوقه على سجع البشر.

على أن من العلماء من ساوى بين الأسجاع والفواصل في المفهوم فأطلقوا لفظ الفاصلة على كل موضع فيه سجعة وأطلقوا لفظ السجع على ما قد يقال أنه فاصلة. وفهم صاحب القاموس الذي يقول:((إن السجع هو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روي والجمع سجاع كالأسجوعة بالصم وجمعها أساجيع وكمنع نطلق بكلام له فواصل([[82]](#footnote-82)).

\* \* \* \*

وإذا تتبعنا حروف الروي في فواصل الآيات من سورة الرعد فإننا سنجد تنويعاً في الفواصل أي تنويعاً في حروف الروي التي تنتهي بها كل آية من آيات هذه السورة. وإذا ألقينا نظرة على هذه الحروف وجدناها على الترتيب التالي من حيث الكم.

حرف النون في الآيات الخمس الأول من السورة فقد انتهت كل آية بهذا الحرف كما في قوله تعالى:((يؤمنون، توقنون، يتفكرون، يعقلون، خالدون)) حرف الباء في خمس عشرة آية تنتهي بقوله تعالى:((العقاب، الألباب، الحساب، باب، مآب، متاب، عقاب، مآب، كتاب، الكتاب، الحساب، الكتاب)).

حرف الدال في أربع آيات تنتهي بقوله تعالى:((هاد، المهاد، الميعاد، هاد)). حرف ((الراء)) في سبع آيات ختمت كل منهن بقوله تعالى:((بمقدار، النهار، القهار، الدار، الدار، الدار، النار)).

حرف اللام: وهي من أكثر الحروف التي بنيت عليها الفاصلة في هذه السورة الكريمة فقد وردت في سبع آيات انتهت بقوله تعالى:((المتعال، وال، الثقال، المحال، ظلال، الآصال، الأمثال)) ومثل اللام في العدد ((الراء)) في سبع آيات كما مر، وأكثر منهما حرف ((الباء)) فقد وردت في خمس عشر آية كما ذكر:

حرف ((العين)) في آية واحدة فقط: هي قوله سبحانه:((اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ)).

حرف ((القاف)) في آيتين اثنتين متساويتين مبني ومعنى هما: لفظتا ((واق)).

وقد تمت حرف الروي في فواصل السورة من سبعة أحرف هي:((النون)) و ((الباء)) و ((الدال)) و ((الراء)) و ((العين)) و ((القاف)) كما هو مبين في الإحصائية السابقة.

ومما يأسر الأسماع ويجذب القلوب ويشنف الآذان أن جميع الفواصل التي اشتملت عليها هذه السورة الكريمة يوقف عليه بالسكون مسبوقاً بحرفي مد هما الألف والواو، وذلك علامة على وحدة الجرس في حرف الروي وما قبله للسكون بعد المد وقعاً ترتاح له الأذن.

وهناك ظاهرة تستوقف الباحث المتأمل في نظم الفواصل في هذه السورة الكريمة وتلك الظاهرة هي تماسك البناء فإننا نجد الآيتين والثلاث آيات والأربع آيات تتوالى على حرف واحد روي واحد ثم يقطع هذا الحرف في آيتين بحرف آخر أو بفاصلة تبدو أنها منفردة ولكن القارئ أو السامع سيجد نفسه بعد قليل في الفاصلة التالية وقد عاد إلى الفاصلة التي سبقت بآيتين أو بآية واحدة ثم يكون هنالك عود إلى هذا الحرف بعد آيتين أو ثلاث، ومعنى ذلك تمام الاتصال وتمام ائتلاف وجمال النظم الذي يجعل السورة الكريمة بناء منسقاً متماسكاً تأخذ كل آية بأختها وتدل أوليأتها على أخرياتها.

إن الحروف التي بنيت عليها الفواصل هنا حروف معدودة من حروف الهجاء ومنها النون، والدال، والباء، والراء، كما سبق. والتأمل يري أن هذه الحروف تميزت بالوقف الذي سبق على أعذب مقطع، وأسهل موقف وشارع فيه مقابلة المجرور بالمنصوب، والمرفوع بالمجرور، من ذلك قول الحكيم سبحانه:﴿**وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾ يقابلها - أعلى الآية - قوله تعالى:﴿**وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12)**﴾ فلفظ الفاصلة في الأولى مجرور، وفي الثانية منصوب، وقوله عز اسمه:﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)**﴾ لفظ هذه الفاصلة مرفوع، قوبل بفاصلة لفظها مجرور، من قوله:﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** **(19)**﴾.

ومما يسترعي النظر أنه لم يرد في أصوات فواصل السورة من الحروف الشفوية سوي ((الباء)) ذلك الحرف الذي تكرر في خمس عشرة آية.

والباء من الحروف التي يسبق نطقها في المخرج، بل لشدة سهولتها نسمع الطفل الصغير ينطقها في يسر أول عهده بالكلام.

وإذا تتبعنا بقية الحروف في فواصل هذه السورة، ألفيناها جميعها من الحروف اللسانية، وهي: النون، واللام، والراء، والقاف، والدال. وهي حروف متوسطة من حيث سهولة المخرج على لسان المتكلم.

أما الحروف الحلقية، وحروف أللهاء، وهي أعسر الحروف، وأشقها في النطق، وهي: الهمزة، والهاء، والعين، والغين،،والحاء، والخاء. فقد خلت فواصل تلك السورة الكريمة منها، عدا حرف العين الذي ذكر في فاصلة واحدة فقط، ولم يكرر في الفاصلة التي تليها، أو في آية فاصلة غيرها، على أن هذه الفواصل وإن اتحدت في حرف الروي لا يستطيع القارئ أو السامع أن يلحظ أي تكلف في إيراد تلك الفواصل على هذا النحو، فإن المعنى في كل آية يقتضي فاصلة أشد اقتضاء حتى لقد نجد بعض الفواصل المسجوعة وقد اتحدت الكلمة كلها بجميع حروفها ومعانيها في القرينتين أو في ختام الآيتين المتتابعتين وذلك راجع لشدة اقتضاء المعنى فأنت ترى مثلاً في قوله تعالى:((لكل أجل كتاب)) وقوله:((يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)) إن لفظة كتاب تكررت في آيتين متواليتين وذلك لاقتضاء المعنى، فالكتاب في الأولى يقصد به معنى لكل وقت حكم يكتب على العباد أي يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم)) والكتاب في الثانية معناه ((أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ لأن كل كائن مكتوب فيه([[83]](#footnote-83)))) ومن أبرز خصائص حروف الفاصلة في السورة تناسب الحروف في مخارجها وانسجامها مع المد الناشئ في آخر كل آية الذي ينشأ عنه التأثير الروحي في جو السورة العام من خلال النغم الممتد عبر كل مقطع، وفي هذا ما يحدث في النفس نوعاً من الاطمئنان والراحة النفسية، وبنظرة شاملة إلى مقاطع الفاصلة في السورة كلها يحس المتأمل بعد التفاوت في مخارج الحروف وكل حرف جاء ملائماً لما بعده في السياق من حيث الرصيف والبناء.

ومن حيث التناسق الصوتي في الشدة واللين والتفخيم والترقيق. خذ مثلا قوله تعالى:((ولكن أكثر الناس لا يؤمنون)) وتأمل مخارج الحروف في لفظة يؤمنون كيف نشكل الحرف إيحاء صوتياً عذباً. لا يمل ترداده إذ جاءت المخارج متناسبة في القرب والبعد فالياء من أسفل الفكين والهمزة من أقصى الحلق والميم من الشفتين والنون من طرف اللسان والواو من أعلى الشفتين دون إطباقهما حتى لا ينقطع النفس وحتى يظل الجرس مديداً لا يمل.

\* \* \* \*

**- 3 -**

ولقد كانت الفواصل أبرز مظاهر الائتلاف والتلاؤم. ولعلنا استطعنا في الكلمات السابقة أن نكشف عن طبيعة هذه الفواصل وعن التلاؤم في أجراسها ومعانيها وأثر ذلك كله في نظم السورة الكريمة وخصائص هذه النظم.

\* \* \* \*

ولكن هنالك جواب آخر لذلك التلاؤم في جزئيات هذه السورة وفي كلياتها، بل في داخل كل آية من آياتها، فهناك ملائمة بين اللفظ ومعناه وملائمة بين اللفظ وجبرته من الألفاظ من ناحية الأصوات والدلالات، وهنالك تلاؤم يجمع شمل الوحدات المتعاقبة في هذه السورة الكريمة ويقتضي هذا البحث المتخصص الإلمام بكل جانب من هذه الجوانب.

ومن واجبنا قبل الشروع في تحقيق هذه الغاية أن نلم بمفهوم كلمة التلاؤم وتحديد العلماء لمعناها سواء أكانوا من علماء اللغة ومؤلفي المعجمات اللغوية أو كانوا من علماء الاصطلاحيين الذين تحدثوا عن ذلك التلاؤم في القرآن الكريم بخاصة وفي التعبير الأدبي بعامة.

وإذا بحثنا عن مفهوم التلاؤم ومعناه عندهم وجدنا لهذه اللفظة أكثر من معنى في أكثر من لفظ جاء في لسان العرب مما نحن بصدده في معنى هذه المادة:

1 - اللام: الاتفاق، وقد تلاءم القوم وتأملوا: اجتمعوا واتفقوا وتلاءم الشيئان إذا اجتمعا واتصلا. وقال: التأم الفريقان والرجلان إذا تصالحا واجتمعا ومنه قول الأعشى:

يظن الناس بالملكـ ـين أنهما قد التأما

فإن تسمع بلأمهما فإن الأمر قد فقما

2 - وهذا طعام يلائمني. أي: يوافقني ولا تقل يلاومني، وفي حديث ابن أم مكتوم:

((لي قائد لا يلائمني)) أي يوافقني،ويساعدني، وقد تخفف الهمزة فتصير ياء، ويروي يلاومني بالواو ولأصل له، وهو تحريف من الرواة لأن الملاومة مفاعلة من اللوم.

\* \* \* \*

وفي حديث أبي ذر:((من لا يمكم من مملوكيكم فأطعموه مما تأكلون)) قال ابن الأثير:

((هكذا يروي بالياء منقلبة عن الهمزة، والأصل، لاءمكم)).

3 - ولأم الشيء، لأما، ولاءمه، ولأمه، وألأمه: أصلحه فالتأم وتلام.

4 - واللئم: الصلح. مهموز، ولاءمت بين الفريقين: وإذا أصلحت بينهما، ولاءمت بين القوم ملائمة: إذا أصلحت وجمعت، وإذا اتفق الشيئان فقد التأما، ومنه قولهم: هذا طعام لا يلائمني. ولا يلاومني. فإن هذا من اللوم، واللثم: الصلح والاتفاق بين الناس. أنشد ثعلب:

إذا دعيت يوماً نمير بن غالب رأيت وجوها قد تبين ليمها

5 - وريش لؤام: يلائم بعضه بعضاً. وهو ما كان بطن القذة منه يلي ظهر الأخرى، وهو أجود ما يكون، فإذا التقي بطنان أو ظهران فهو لغاب ولغب([[84]](#footnote-84)) قال أوس بن حجر:

يقلب سهماً رأشه بمناكب ظهار لؤام فهو أعجف شاسف([[85]](#footnote-85))

6 - والتأم الجرح: التئاماً: إذا برأ والتحم، قال الليث: ألأمت الجرح بالدواء، والأمت القمقم: إذا سددت الصدوعه، ولأمت الجرح والصدع إذا سددته فالتأم.

7 - وفلان لثم فلان، ولئامه أي: مثله وشبهه والجمع الآم ولئام. عن ابن الأعرابي وأنشد:

انعقد العام لا نجني على أحد مجندين وهذا الناس ألآم

\* \* \* \*

وقالوا: لولا الوئام هلك اللئام قيل معناه الأمثال وقيل: المتلائمون وفي حديث عمر: أن شابة زوجت شيخاً فقتلته، فقال: أيها الناس لينكح الرجل لمته من النساء ولتنكح المرأة لمتها من الرجال. أي شكله وتربه ومثله، والهاء عوض من الهمزة الذاهبة من وسطه، وأشد ابن بري:

فإن نعبر فإن لنا لمات وإن نغبر فنحن على ندور

أي ستموت لا محالة. وقوله لمات أي أشباه

هذا بعض ما أورده ابن منظور من المعاني التي يستعمل فيها لفظ التلاؤم ومشتقاته إلى غير ذلك من معاني أخرى ليس لذكرها حاجة فيما نعرض له ونقصد إليه.

وأورد الزمخشري في الكشاف:

1 - لأم: صدع ملتئم ومتلائم ومتلائم، وقد لأئمته ظلاءمة ولأمته، وفلان لا يلائمني: لا يوافقني.

2 - وريش لؤام خلاف لغاب إذا التقي بظن فذة وظهر أخرى، وسهم لأم مريش اللؤام وبه فسر: كرك لأمين على نابل، ولبس لأمته وهي الدرع المحكمة الملتئمة.

3 - ولبسوا اللأم وقيل اللؤم كقرية وقري قال المتلمس:

وعليه من لأم الكتائب لأمة فضفاضة فيما يقوم ويجلس

4 - واستلأم: أي تدرع.

5 - ومن المجاز والكناية: هذا طعام لا يلائمني.

6 - وما التأمت عيني حتى فعل كذا: أي ما ثقفه بصري.

7 - وهذا كلام لا يلتئم على لساني. ورجل لؤمه: أي يحكي ما يصنع غيره.

\* \* \* \*

وبتأمل تلك المعاني التي أوردها أصحاب اللغة مما سبق ذكره يتضح لنا أن معنى التلاؤم ومفهومه: الاتفاق، والاجتماع والاتصال والتناسق.

وتلك المعاني وثيقة الصلة بالمعنويات، كما هي وثيقة الصلة بالحسيات: فإنك تقول: تلاءم القوم إذا اجتمعوا واتفقوا، كما تقول: تلاءم الكلام إذا اجتمعت ألفاظه في إطار حسن جميل، وتوافقت أولياته مع أخرياته، ومن معانيه التلاحم، والالتحام كما قال صاحب اللسان:

التأم الجرح التأما إذا ابرأ والتحم))، وهذا المعنى في الكلام من صفات حسنه إذ يقال: كلام متلاحم الأجزاء، ومن معاني التلاؤم: الشبه، والترب والمثل. كما قال صاحب اللسان: فلان لئم فلان، ولئامه أي: مثله، وشبهه، وهذا المعنى يرد وصفاً للكلام إذا تشابهت أطرافه، وتلاءمت، وأصبح بعضه بسبب من بعض.

ونورد في هذا السياق شيئاً مما ذكره علماء البلاغة والأدب فيما يتعلق بمعنى هذه اللفظة ومفهومها.

هنالك ألفاظ اصطلاحية آثرها بعض أولئك العلماء على لفظة ((التلاؤم)) مما يؤدي معناها من مترادفات اللغة، ومن هذه الألفاظ:

1 - التناسب. والمناسبة. بل إن البلاغيين استخرجوا فناً من فنون البديع سموه ((مراعاة النظير)) ويسمي ((التناسب)) ((والتوافيق))، ((والائتلاف)) ((التلفيق)) أيضاً، ويؤخذ من معناه، وجه التسمية، وهو أي ((مراعاة النظير)) جمع أمر وما يناسبه. أي أن يجمع بين أمرين متناسبين، أو أمور متناسبة لا بالتضاد. بل التوافق، في كون ما جمع من واد واحد. لصحبته في إدراك، أو لمناسبة في شكل، أو لتوقف بعضه على بعض.

والجمع في هذا الباب قد يكون بين أمرين نحو قول الله تعالى:﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَان﴾ فقد جمع بين أمرين هما الشمس والقمر ولا يخفي تناسبهما وقد يكون بين ثلاثة...، ومن ((مراعاة النظير)) ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف. وهو: أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه، كقوله تعالى:﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)﴾.

فإن اللطيف يناسب ((لا تدركه الأبصار)) والخبير يناسب:﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾([[86]](#footnote-86)).

وأما المناسبة فهي على ضربين:((مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ فالمعنوية هي: أن يبتدئ المتكلم بمعنى ثم يتم كلامه يناسب معنى دون لفظ والفرق بين الضرب، وبين الملائمة هو: أن الملائمة تكون في مفردات الألفاظ ومعانيها، وهذا الضرب من المناسبة بين الجمل المركبة ومعانيها)).

واللفظية: هي عبارة عن الإتيان بلفظات متزنات مقفاة وغير مقفاة. فالمقفاة مع الاتزان. مناسبة تامة، والمتزنة من غير التقفية مناسبة ناقصة.

2 - زمن الألفاظ التي يؤثرونها على غيرها في شرح معنى التلاؤم:

((المشاكلة)) بل لقد يتوسعون في مفهومها فيخصصون باباً يسمونه: باب المشاكلة وهي عندهم التعبير عن الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً.

3 - ومنهم من أثر كلمة الائتلاف وأمامهم في هذا القدامة بن جعفر ((ت 337هـ)).

الذي جعل عناصر الشعر أربعا هي ك اللفظ، والوزن. والمعنى والقافية وذكر لكل عنصر من هذه العناصر ما يحسن به وما يقبح عند النظر إليه مفرداً ثم عاد فذكر الائتلاف بين عنصر وعنصر آخر من هذه العناصر حيث فصل القول في ائتلاف اللفظ والمعنى وذكر له أنواعاً ستة هي:

المساواة، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والتطبيق، والتجنيس... وائتلاف اللفظ والوزن وهو من دلائل نضج الشاعرية واستوائها حيث طواعية الألفاظ للنغم الذي يؤثره الشاعر وانقياد هذه الألفاظ للوزن التي يتخيره، وائتلاف المعنى والوزن وهذا لا يعدو ائتلاف اللفظ مع الوزن فبالشاعرية المطبوعة وجودة التناسق التام بين الألفاظ يبسط الشاعر معانيه دون أن يحد هذا الوزن من الرغبة في هذا البسط ويركز ما أراد التركيز ويدقق ما يشاء أو يكتفي باللمحة الدالة حين يريد من غير أن يضطره الوزن إلى شيء من الزيادة وذكر قدامة ائتلاف القافية مع ما يدل عليه معنى البيت. والقافية إنما هي لفظة مثل ألفاظ سائر البيت من الشعر فائتلافها كسائر لفظ الشعر المؤتلف مع المعنى...([[87]](#footnote-87)) وممن فصل القول في ائتلاف ابن أبي الأصبع في كتابه ((بديع القرآن)) وملخص الائتلاف عنده: أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً ليس فيها لفظ نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها كلها موصوف بحسن الجوار بحيث إذا كان المعنى غريباً قحاً كانت ألفا غريبة محضة وإذا كان المعنى مولداً كانت الألفاظ مولدة وإذا كان المعنى متوسطاً كانت الألفاظ كلك... ومن أمثلة الائتلاف قوله تعالى:﴿**قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا** **أَوْ** تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾([[88]](#footnote-88)) فألفاظ هذه الآية الكريمة آية في التناسب والائتلاف والذي ينبغي أن ننبه عليه في هذا المقام أن من جودة الائتلاف بين ألفاظ هذه الآية حسن الوضع في النظام بحيث جاورت كل لفظة أختها وجعلت من جنسها في الغرابة أو الاستعمال رغبة في ائتلاف المعاني بين الألفاظ وتناسبها وتعادلها في النظم.

4 - ومن البلاغيين الذين عالجوا مفهوم التلاؤم ومعناه أمام البلاغة عبدالقاهر الجرجاني ((ت 471هـ)) الذي يهيم بكلمة النظم ويؤثرها على كل اصطلاح وإن كان التلاؤم أبرز ما درسه في فكرة النظم ويكفينا شاهدا على مفهوم يتلاؤم وإن من معانيه النظم عند عبدالقاهر، ذلك الأسلوب التحليلي للآية الكريمة التي هي قول الله تعالى:((﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44)﴾)) وقد صدقت الإشارة إلى الآية الكريمة أثناء البحث عن النظم وأنه وجه من وجوده الإعجاز الذي يعنينا في هذا المقام وهو الطريقة التحليلية للآية الكريمة كما شرحها عبدالقاهر حيث يرى أن مما يذخر به نظم الآية هنا حسن مجاورة الألفاظ وجعل بعضها بسبب من بعض حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وأنه لا علاقة للفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في النطق ولكن مرد ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب " وهذا ظاهر في كل كلام تلاءمت ألفاظه وتراكيبه ومعانيه، ودليل آخر على ما ذهب إليه عبدالقاهر في الأخذ بالنظم في معنى التلاؤم هو قوله:((ولكن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما تعلق له بصريح اللفظ ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر([[89]](#footnote-89)) وإذا لابد من مراعاة وضع اللفظة بجانب أختها حتى يتم التلاؤم بين أجزاء الكلام كله.

ويشير الروماني في ((النكت)) إلى معنى التلاؤم بأنه نقيض التنافر وأنه تعديل الحروف في التأليف، وفائدته حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن السورة، وطريق الدلالة))([[90]](#footnote-90)).

والتلاؤم في حقيقة معناه، وطبيعة مداه، ((كلمة جامعة لكل وصف لا بد منه في اللفظ ليكون الكلام خفيفاً على اللسان، مقبولاً في الأذن، موافقاً لحركات النفس، مطابقاً لطبيعة الفكرة، أو الصورة، أو العاطفة التي يعبر عنها الأديب))([[91]](#footnote-91)).

إذا كان من مفهوم التلاؤم: المناسبة بين الألفاظ، والمشاكلة بينها ومن معانيه الاتفاق، والاتساع، كما مر ذكره عند أصحاب اللغة، وعلماء البلاغة، والأدب فلنبدأ الحديث عن مظاهر التلاؤم بين اللفظ وجيرته. ((في سورة الرعد)) لنري مدي تلاؤم اللفظة في الآية القرآنية من هذه السورة الكريمة، من حيث حسن الجوار والتلاحم في الحروف من جهة مخارجها، وأثر ذلك في نظم السورة، متبينين تلك الظاهرة في عدد من آياتها. قال تعالى:﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾** إلى قوله عز وجل:﴿**لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ**﴾.

تخير ما شئت من ألفاظ تلك الآية، وتأمل طريقة نظمها من حيث تلاؤم الحروف، واستواء كل لفظة بجانب أختها. خذ مثلا قوله تعالى:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ وبدا في تحليل الألفاظ الثلاثة الأولى: استواء على العرش، نعم إنه استواء مطلق يليق بجلال الله تعالى. ترسمه الآية هنا على طريقة القرآن في تقريب الأمور المطلقة الغيبية إلى مدارك البشر المحدودة، ثم راع قرب مخارج الحروف، واعتدالها في هذه الألفاظ. فالسين والتاء في لفظة ((استوى)) من أول الفم ومن طرف اللسان، وبعدهما حرفا مد: هما الواو والألف المقصورة مما يغطي النفس إعانة في النطق. وراحة في الأداء، ثم لم التعبير بعلى دون فوق تلك التي تؤدي معنى العلو؟ ذلك لأن لفظة ((على)) تعطي المعنى على أتم وجه يتناسب مع العلو المطلق التي رسمته لفظة ((استوى))، وأعجب من ذلك تقارب الحروف في قوله:((على العرش)) فالعين من أقصى الحلق، واللام من طرف اللسان، وبعدها لام أخرى في لفظة ((استوى)) لكان الناطق بالحرفين يؤدي حرفاً واحداً لسهولة النطق. وقرب المخرج، لي نظم يساوي ذلك التعديل والتلاؤم؟

ثم أخلص إلى الألفاظ الثلاثة الأخر في قوله:﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾** فإلى جانب اللمسة الأولى في العلو المطلق تأتي اللمسة الثانية في جانب العلو المنظور، واللمستان تتجاوران وتتسقان في السياق([[92]](#footnote-92)) وبجانب هذا التجاور انظر الجمال ذكر الشمس بجانب القمر، وأروع منه وصف تلك الحروف فالكلمة الأولى تنتهي بحرف الراء كما في سخر. والكلمة الثالثة تنتهي بها أيضاً كما في لفظ القمر.

ولكن أذكر الشمس قبل ذلك القمر لأجل ذلك التآلف في الحروف فحسب بحيث تأتي الراء في الأولى وفي الثالثة متقابلتين؟ ليس ذلك لأجل هذا بل هناك حكم لا يعلمها سوى اللطيف الخبير. ولعل في تقديم ذكر الشمس على القمر التنويه بأنعام الله بها على سائر المخلوقات.

أما حروف الألفاظ الثلاثة فمعظمها من الحروف لها مس كالسين في سخر والشين والسين في ((الشمس)) وهذه الألفاظ مجتمعة تؤدي معنى العظمة الكاملة، والقوة القادرة، وهذه الحروف في همسها وصغيرها كأنما تتبع أحداث هذين الكوكبين العظميين، وسريانهما في جوانب الكون الفسيح المترامي الأطراف وإذاً فهذا التلاؤم تلاؤم في الحرف واللفظ والمعنى.

إذا كان هذا بعض ما أدركناه عن تلاؤم الستة الألفاظ السابق ذكرها في آية واحدة، فكيف بالحال لو استعرضنا تراكيب السورة بأكملها وبجميع جزئيات هذا التراكيب؟ مثل ذلك لا يأتي لباحث إلا بعد جهد وتوفر طويلين، فلنأخذ بعض آيات أخر.

قال تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**﴾ الآية.. إلى قوله:﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6)**﴾.

الآيات هنا جاءت لرسم خط عريض للجانب السفلي من الكون. وفي ذلك تلاؤم تام إذ أن ما سبق هذه الآيات سيق عن الجانب العلوي من مخلوقات الله تعالى.

وقد مر معنا في معرض الكلام على نظم تلك الآيات ما يكفي عن استعراض كثير من ألفاظها، وإذاً سنومئ إلى مظاهر التلاؤم بين الألفاظ هنا ما وسعنا الجهد إن أول ما يبدو من مظاهر التلاؤم بين ألفاظ تلك الآيات وحروفها ذلك الهدوء الذي يتطلبه الأمر بالتأمل والتفكير في ملكوت الكون فلاحظ مثلا خفة التعبير بلفظة ((جعل)) مكررة في موضعين، ولاحظ التعبير ((يفكرون)) إذ جيء به فيما يستوجب التفكير، والتعبير ((بيعقلون)) فيما يستوجب التعقل، وانظر لتمام التلاؤم بين لفظي ((جنات من أعناب)) فلم التعبير بقوله:((من أعناب)) دون من نخيل أو زيتون أو رمان؟ إن في ذكر الأعناب ما يدعو إلى التأمل. وتمام التلاؤم واضح. فإن الجنة في اشتقاقها مأخوذة من جن أي ستر وغطي ومنه الجنين في الرحم لستره عن الأنظار ومنه جن الليل أي ستر....

وشجرة العنب في شكلها ليست فارعة كغيرها من أنواع الأشجار الأخرى وإنما هي مرسلة تغطي ما تحتها وتستره. فتلاءم أعناب بجانب لفظ جنات معنى. بل ولفظا فهما جمعان.

وراع التعبير: بلفظتي ((يسقى بماء)) فقد جاءتا بعد تعداد أصناف من الثمار والزروع، فلو أن متحدثاً أطال النفس عن ذكر هذه الأصناف كما طال ذكرها وتعدادها في الآية، لذكر بعد كل صنف أو صنفين ذكر السقي بحكم قصوره البياني، ثم ماحياة تلك الأصناف، وما قيمتها بغير السقي بالماء هنا يبدو سر التلاؤم في نسق الآيات جميعها طالت أو قصرت وإذا كانت هذه لمحات عن التلاؤم في الألفاظ فكيف بأسرار التلاؤم في التراكيب إذ طلبه عسير على كل متحدث، لكنه في القرآن الكريم غير شاق ولا عسير، لصدوره عن من هو أعلم، وأحكم.

\* \* \* \*

**مظاهر التلاؤم في التراكيب**

إن دراسة الآية القرآنية تتصل اتصالا مباشراً بدراسة اللفظة المفردة، لأن هذه أساس تلك، ونعد في دراستنا هذه كل آية من القرآن قائمة مقام الجملة، وذلك إيثار للإيجاز. أي أننا نعد الآية وحدة السورة غير غافلين عن معنى الجملة في علم العربية.

وإذا عرضنا لدراسة التراكيب، وتلاؤمها في سورة ((الرعد)) فإنما نعرض لدراسة الآية. مستوضحين كيف أحكمت أدق تنسيق بحيث لا نحس فيها بكلمة يضيق بها مكانها، أو تنبؤ عن موضعها أو لا تعيش مع أخوتها متبينين في كل آية مما نختاره شاهداً على في التركيب، عن كون تلك الآية مكمله لما قبلها، وتلك مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها وما سيقت له. بالإضافة إلى تلاؤم الجمل داخل الآيات.

فالصلة بين كل آية وأخرى هي مظهر التلاؤم في التراكيب، وقد عرضت سورة الرعد في جميع آياتها لجمل كثيرة جاءت آية في الأحكام والترابط والتلاؤم والذي جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فصار البناء المحكم المتلائم الأجزاء.

خذ مثلاً قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾** إلى قوله تعالى:﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** **(16)**﴾.

تأمل كم جملة اشتملت عليها هذه الآية فهي تسع جمل. كل جملة وثيقة الاتصال بما قبلها، وما بعدها. وقبل أن نوضح مظاهر التلاؤم بين تلك الجمل يجب أن نبحث عن صلة تلك الآية بما قبلها، فذلك معين لنا على التعرف على مظاهر التلاؤم بين أجزاء جملها.

وأن وجه صلتها بما قبلها:((هو أن سابقتها تضمنت أن كل من في السماوات والأرض ساجد لله فلزم الإنكار على عبدة الأصنام، والتوجه إليهم ((بقل)) ((يا محمد)) ﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** الآية([[93]](#footnote-93))؟

ويوضح وجه الصلة أن الآية السابقة على تلك هي قوله تعالى:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ** **(15)**﴾ فجاء التلاؤم المحكم بين الآيتين.

والآن لندخل في تفصيل ذلك التلاؤم والترابط بين جمل تلك الآية. أعني قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**....

إن أول جملة تطالعنا في الآية الكريمة هي تلك الجملة المركبة من فعل الأمر ((قل)) وفاعله الضمير المستتر وجوباً والعائد على محمد صلى الله عليه وسلم.

إنها جملة آمرة تترك في النفس بعد انقضاء زمن التكلم مشرئبة متطلعة إلى ما سيلقى إليها، وإلى ما ستؤمر به، وقد حصل مفهوم ذلك الأمر في جملة ((من رب السماوات والأرض)).

والذي يستدعي النظر في هذا التركيب. هو التعبير بلفظة ((رب)) دون موجد أو خالق، إذ في لفظة ((رب)) من معنى الألوهية ما هو أعم وأكمل فيدخل تحتها معنى الخالق الموجود المتصرف رب كل شيء.

ثم تمضي الآية في سرد تلك التراكيب والجمل المحكمة فيأتي الجواب في جملة ﴿**قُلِ اللَّهُ**﴾، ((ولما كان هذا الجواب جواباً يقربه عبدة الأصنام ويعترفون به، ولا ينكرونه. أمر الله نبيه بأن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهاً على أنهم لا ينكرونه البتة)).

ولما بين سبحانه أنه الرب لكل المخلوقات قال: قل لهم:((فلم اتخذتم من دون الله أولياء))، وهي جمادات لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً فعبادتكم إياها محض العبث والسفه، ولما ذكر سبحانه هذه الحجة الظاهرة بين أن من يمثلها يكون كالأعمى، والعالم بها كالبصير. وأن الجهل بها كالظلمات، والعلم بها كالنور.

وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها فكذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير، وأن الظلمة لا تساوي النور، وقد أكد الله سبحانه هذا البيان بالجمل المتساوقة في قوله:﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**﴾([[94]](#footnote-94)) ثم جاء ما يتلاءم مع هذا التوكيد، وهو قوله:﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾** الاسميتين.

أما قوله:﴿**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ فيستوجب أن يأتي بعده في السياق قوله:﴿**وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾ وقد حصل، لأن خالق كل شيء تلائمه وتثبت له صفة الوحدانية، والقهر والقوة. إن هذا النظم لمن براعة الاتساق، والتلاؤم في تركيب كل جملة وصلتها بأختها.

وهذا شاهد آخر من قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ** **(20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** **(21)﴾** إلى شأن الكفار:﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** **(25)﴾**.

في هذا النص ست آيات كل آية اشتملت على أكثر من جملة، وكل جملة اشتملت على تركيب جاء آية في الإحكام والتناسق. إذ كل آية بنيت على صلة وثيقة بما قبلها وما بعدها. ففي الأولى نلحظ أنه سبقها آية تشيد بذكر أولي الألباب ذوي التفكير، والتدبر، والإيمان على حد قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾.

ومن هنا جاءت الآيات الخمس الأولى مرتبطة في تراكيبها بما سبقها متلائمة في النسق، إذ لما انتهى نفس الآية السابقة عليهن عند قوله ﴿**أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾. شرعت الآية الأولى من الخمس المذكورة، في صفات ذوي الألباب، وأنهم السعداء لمحافظتهم على العهد المطلق، والميثاق المطلق والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها، هو عهد الإيمان، والميثاق الأكبر الذي تتجمع عليه المواثيق كلها هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان.

هكذا يمضي التركيب في الآية مقرراً أن وفاء هؤلاء البشر من الناس بالعهد الإلهي، والميثاق الرباني داخل تحته الوفاء بالعهود والمواثيق مع الناس كافتهم.

ثم يمضي التركيب مقرراً في إجمال صفات أولئك السعداء وأنهم أهل طاعة كاملة واستقامة واصلة، وسير على السنة بلا انحراف، ولا التواء([[95]](#footnote-95)) بعد ذلك تتوالى التراكيب مقررة جزاء هؤلاء الناس على صنيعهم وأنه الجنة التي هي مطمع كل مؤمن ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ** **(22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾**.

\* \* \* \*

وبعد أن رتب الجزاء وفق العمل جاءت الآية السادسة والأخيرة من النص تحمل في تراكيبها صفات أخرى لفريق آخر من الناس إذ يقول تعالى:﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾ الآية.

ومظاهر التلاؤم واضحة في سبق صفات السعداء ((وما ترتب على هذه الصفات من الأصول الشريفة، والجزاء الحسن، ثم في العطف ببيان حال الأشقياء، وما يترتب عليها من الأصول المخزية المكروهة، فجاء التركيب متبعاً الوعد بالوعيد، والثواب بالعقاب ليكون البيان في غاية الكمال([[96]](#footnote-96)))).

\* \* \* \*

ومثل ذلك الأسلوب القائم على التلاؤم التام. يجري في آيات السورة جميعها. إليك مثلا قوله تعالى:﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾**، وقوله:﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾** الآية.

ولعلك تسأل عن وجه صلة قوله:((مثل جنة الآية بما قبله. وبيان ذلك هو أن وجه صلة هذا التركيب، يحي الآية الأولى مبينة عذاب الكفار في الدنيا وفي الآخرة فأتبع التركيب يذكر ثواب المتقين([[97]](#footnote-97)))).

وإن شئت تفصيلا في تلاؤم تركيب الآيتين فتأمل قوله:﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)**﴾، وانظر إلى تلاحم الأجزاء وتلاؤمها جاءت الآية بتركيبات ثلاثة: أولها في ذكر عذاب الكفار في الدنيا، وثانيها في ذكر عذابهم في الآخرة، وثالثها في أن هؤلاء لا مفر لهم من عذاب الله في الحالين فأي تلاؤم أبين وأدق من ذلك.

\* \* \* \*

**التلاؤم في المعاني**

ما سبق عرضه من الأمثلة والشواهد على التلاؤم في الألفاظ والتراكيب يمكن أن يستدل به على التلاؤم المعاني، ولكن لزيادة الإيضاح نومئ إلى شيء من مظاهر التلاؤم في معاني الآيات في طائفة أخرى.

ومعلوم أن المعاني القرآنية تتحدث عن كل ما من شأنه إثبات الإلوهية لله الواحد الأحد، بل إن الحديث عن الله جل جلاله له الجزء الأكبر من معاني السورة القرآنية جميعها. فالمتأمل يلحظ في كل سورة بل في كل آية معنى يساق ((لضرب المثل الأعلى لله فهو السميع البصير، على كل شيء قدر، غفور رحيم. عزيز حكيم، حي قيوم، واسع عليم، بصير بالعباد، يحب المحسنين. ولا يحب الظالمين، واحد قهار، كبير متعال، عالم الغيب والشهادة، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن، العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى([[98]](#footnote-98)))).

إلى غير ذلك من معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى، بالإضافة إلى المعاني الكونية، ومعاني الأعمال الصالحة. والأعمال السيئة، وذكر الوعد والوعيد، والجنة والنار، والثواب والعقاب، ونحو ذلك من المعاني السامية التي تحدث عنها القرآن جملة وتفصيلا.

وقد عرضت سورة الرعد لكثير من المعاني الرفيعة حيث تحدثت آياتها عن الله جل ثناؤه، في أروع أسلوب، وأبدع تركيب، وجاء المعنى منسقاً متلائماً مع ما قبله، وما بعده.

فالله هو الذي رفع السماوات بغير عمد، وهذا معنى القوة والعظمة يأتي بعده في جانب ذكر الله قوله تعالى:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**﴾ وهنا يبرز معنى العلو المطلق الذي يليق بجلال من خلق السماوات والأرض وما فيهن، وما بينها.

وبعده يستمر السياق متحدثاً عن تعاقب الليل والنهار، وهنا معنى القدرة القادرة يأتي بعد كمال المعاني الرفيعة السامية لله تعالى.

وبين تلك الآيات ظلال وارفة تحمل من المعاني سابق أو لاحق. ففي جانب الحديث عن الله يأتي معنى يسوقه قوله سبحانه:﴿**لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ** **(2)**﴾ فالمطلوب هنا هو التصديق والإيمان، ثم معنى عن الكون، وما أودع فيه من نعم ومنافع لصالح كل ما يدب على الأرض، فهناك معنى تسخير الشمس والقمر، ومد الأرض وتفجير الأنهار، وتعاقب الليل والنهار.

\* \* \* \*

وبعد تلك المعاني يأتي في السياق ما يلائم ذكرها من معنى التدبر والتفكر. ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾. فالتفكر ومعناه هما الغاية السامية لكل ذي عقل ودين.

ويأتي معنى الربوبية والألوهية الخالصة تسوقه الآية الكريمة من قوله تعالى:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ**﴾، وروعة النظم أن جاء بعد المعنى ما يتطلبه مقام الآية هنا، إذ تسوق الآية الكريمة معنى الإنكار على الكفار لتوحيد الألوهية من قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** ويأتي إثبات ذلك في قوله ﴿**قُلِ اللَّهُ**﴾.

وتجد معنى القوة والقهر في قوله:﴿**الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16)**﴾ يأتي بعده معنى يلائم تلك القوة وهذا السلطان من قوله:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ فمن ذا الذي يستطيع إنـزال الماء من السماء غير الله؟ ذي القوة والرزق المتين، ﴿**أَأَنْتُمْ أَنـزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنـزلُونَ** **(69)**﴾[[99]](#footnote-99)\*.

وضع بين يديك آيات أخر مما تحدثت عنه السورة الكريمة من المعاني.

يقول تعالى:﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعبداللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾.

لقد رسمت تلك الآية معنى الأمر بالعبودية الخاصة لله لا شريك له، والدعوة إليه لا إلى غيره. والمرجع إليه دون سواه. فالمعاني هنا متلائمة مترابطة. إذ بعد تحقيق معنى العبودية. يأتي معنى دفع الشرك وطرحه، وبعد تحقيق هذين الغرضين يأتي معنى الدعوة إلى الله إيماناً به وإخلاصاً في عبادته، ولا أجل ولا أشرف من الأعمال بعد تحقيق العبادة ونبذ الشرك شي سوى الدعوة إليه سبحانه، وبعد تحقيق تلك المعاني تومئ الآية الكريمة إلى المعاد من قوله تعالى:((وإليه مآب)) حتى يقر في النفس البشرية معنى الجزاء، وما فيه من ثواب أو عقاب.

فإن قلت: ما الصلة، وما وجه التلاؤم بين معنى:((قل إنما أمرت أن أعبد الله، ولا أشرك به)) بما قبله؟ قيل لك: هو جواب للمنكرين معناه قل إنما أمرت فيما أنـزل إليّ بأن أعبد الله، ولا أشرك به، فإنكاركم له إنكار لعبادته وتوحيده، فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به([[100]](#footnote-100)))).

وتأمل قوله تعالى:((أفمن هو قائم على كل نفس...)) إلى قوله تعالى:((وما لهم من الله من واق)).

فقد رسمت الآيات هنا معنى إحاطة علم الله بكل نفس، ومعنى الإنكار على اتخاذ الشركاء، وتوجب أن يأتي إنكار الشرك والشركاء بعد معنى إحاطة علم الله بكل شيء، ثم ولي هذا الإنكار معنى اتباع الهوى والإعراض عن سبيل الله، وولي هذا الإعراض ما يستحق عليه المعرض من جزاء في الحياة الدنيا، وفي الآخرة. ثم ختم هذا المعنى يذكر عدم القدرة على الإفلات من عذاب الله في الحالين.

ومسك الختام عن تلاؤم المعاني في سورة الرعد قول الله في خاتمتها:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**﴾.

فالآية هنا تقرر إثبات الرسالة لمحمد صلى الله عليه وسلم في أرقى معاني الإثبات إذ تسوق نفي الكفار لرسالة المصطفى صلى الله عليه وسلم وتدحض ذلك النفي الشنيع ((بما يظهر رسالته من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ذلك الإثبات المتمثل في شهادة الله التي لا مندوحة عنها إلى شاهد آخر([[101]](#footnote-101)))).

إذا كان هذا عن التلاؤم بين الألفاظ، والتراكيب، والمعاني، فكيف به جو السورة العام؟ ذلك ما سنعرض له في المبحث التالي.

\* \* \* \*

**التلاؤم في جو السورة العام**

مر معنا فيما سبق: أن أجزاء النظم ثلاثة، اللفظ المفرد، والتركيب والمعنى، ولكل جنس من هذه الأجناس جزئيات تقوم به، وتعتمد عليه، فاللفظ المفرد جزئياته الحروف، وأصواتها، ومخارجها، والتركيب جزئياته اللفظة مع أختها، والتصرف في طريقة النظم، والمعنى جزئياته بما قبله، وما بعده.

وملاءمته لسابقه ولاحقه، وقد تحدثنا عن مظاهر التلاؤم بين تلك الأجناس والجزئيات كل منها على حدة، فجدير بنا الحديث عنها مجتمعة لندرك شيئاً من مظاهر التلاؤم وإحكام النظم في جو السورة العام.

إن أول ما يستوققنا في ذلك هو وجه ملائمة سورة الرعد لما قبلها من السور، وبيان صلتها به. ويتضح ذلك في أن الله سبحانه:((ذكر في سورة يوسف التي هي قبل سورة الرعد قوله تعالى:﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** **(105)**﴾ فأجمل سبحانه الآيات السماوية والأرضية في هذه الآية من سورة يوسف. ثم جاء بها مفصلة في سورة الرعد([[102]](#footnote-102)).

ولما كانت كل سورة تشتمل على عدد من الآيات القرآنية، وهذه الآيات لها وجه صلتها الوثيق. فيما بينها في الترتيب والتركيب. والملائمة فإننا نلحظ وجه الملائمة بين آيات سورة الرعد تبرز في تناسق الترتيب ودقة التركيب. وبنظرة على آياتها نجدها متناسبة مع المعاني وخصائصها ونجد تفاوتها بين الطول والقصر متقابلا لتنوع المعاني([[103]](#footnote-103)) وهذا من أبرز مظاهر التلاؤم بين أجزاء النظم في جو السورة العام.

وإذا أردنا مزيد من الإيضاح للتلاؤم بين أجزاء النظم في هذه السورة فإننا نجدها من شطرين الأول:((لعرض المشاهد الهائلة في آفاق الكون، وفي أعماق الغيب وفي أغوار النفس([[104]](#footnote-104)))) من ذلك قول الله تعالى في أول السورة:﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ وقوله:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**﴾ وقوله:﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ**﴾.

هذه الآيات تتحدث عن الكون وما فيه من الدلائل التي تبرهن على وجود خالقه ومدبره، ويعقبها في السياق آيات أخر عن علم الله بالغيب ومظاهر التلاؤم في جو الآيات ظاهرة لكل ذي عين وبصيرة، فإنه سبحانه لما أجمل آيات الكون وبسطها، أتبعها بآياته الدالة على واسع علمه المحيط بكل شيء.

ولذا ولي تلك الآيات قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾**... الآية إلى قوله تعالى:﴿**مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)**﴾.

ويظل السياق مستمراً في لمسات تسير أغوار النفس، وتحرك كوامنها من أمن وخوف، ويأس ورجاء. نلحظ ذلك في ثنايا الآيات التالية:﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾** الآيات إلى قوله:﴿**وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾**.

أما الشطر الثاني من السورة:((ففي عرض لمسات وجدانية وعقلية، وتصويرية دقيقة حول قضية الوحي والرسالة، وقضية التوحيد، والإشراك بالله([[105]](#footnote-105)))) وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة التالية:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾ الآيات إلى قوله:((بل لله الأمر جميعاً)).

ويستمر هذا الشطر من السورة في قضية الوحي والرسالة، وبيان موقف المؤمنين، وموقف الكافرين من ذلك، ثم التعقيب بعد ذكر كل فريق بما يستحق من ثواب أو عقاب. ويشير السياق إلى تلك القضايا بقوله تعالى:

﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** **(35)**﴾.

والمتتبع لهذا الشطر يلمس مظاهر التلاؤم العجيب، والرصف البديع بين كل آية وأخرى في جو السورة من أولها إلى آخرها.

ويمكننا استخلاص مظاهر التلاؤم في جو السورة العام فيما يلي:

1 - ((بدأ الكلام في أول السورة بالتنويه بمكانتها، ومكانة غيرها مما أنـزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه الحق الذي لا مرية فيه.

2 - هذا الحق لا مرية فيه ينبغي أن يؤمن به العقلاء لأنه قضية العقل ولكن واقع الناس بخلاف ذلك فأكثرهم لا يؤمنون.

3 - ولما كان الأمان يستدعي إقامة الأدلة، وعرضت آيات السورة أدلة قدرة، وعلمه وحكمته في آفاق السماوات والأرض آيات مفصلات. تقرر صدق المعاد، وأنه أهون على الله من البدء والإيجاد.

\* \* \* \*

4 - ولما كانت دلائل قدرة الله كافية في بيان قدرته على البعث جاء بعد تلك الدلائل ما يقرر إثبات علمه بكل شيء، وأنه مطلع رقيب.

5 - ثم بعد أن فرغت السورة من سرد تلك الدلائل في الكون وما فيه صورت حالة عجز الإنسان، وضعفهم أمام الظواهر الكونية المخيفة التي لا حيلة لهم معها إلا أن يلجأوا بالدعاء إلى قوي أخرى وراء هذه الظواهر يعتقدون أنها ستنجيهم منها، ومن كل كرب، وتلك حالة الكافرين أما المؤمنون فيضرعون إلى الله القادر فيستجيب لهم، ثم يمضي السياق مبيناً أن كل شيء في هذا الكون خاضع لقدرة الله وقوته، وموضحا ًكيف يعلم النبي صلى الله عليه وسلم، ويعالج موقف المشركين بوسائل الإقناع مرحلة بعد أخرى فيها التلويح بذكر العقاب، ثم إلى مرحلة أخرى هي مرحلة تربية للرسول صلى الله عليه وسلم، وتلك موصولة بما قبلها من مراحل حدث فيها الصراع مع المشركين.

وفي القسم الأخير من السورة يروجه الله تربيته لرسول الله صلى الله عليه وسلم معالجا ًما يدور في نفسه، ومبيناً أن كل شيء بعلم الله وإرادته، فما على الرسول إلا البلاغ المبين، وأنه مهما بلغ تكذيب الكفار لمحمد فإن شهادة الله له بالرسالة كافية في دحض حججهم، ومزاعمهم ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**﴾([[106]](#footnote-106)).

إنها لآيات بينات، تنبض بالتصوير الدقيق في كل لفظة وجملة فمن ذا الذي يستطيع أن يصور حالة الكفار وهم يتخبطون في عذاب الله ومن ذا الذي يستطيع أن يقرب إلى الأذهان تلك الأمثال، والتشبيهات الرائعة الحية التي تضربها السورة الكريمة لتجعل منها فصلاً بين الحق والباطل؟ لا شيء سوى هذا القرآن لأنه كتاب من عند الله، أحكمت آياته، وفصلت من لدن حكيم خبير.

\* \* \* \*

**الفصل الثالث**

**التصوير البياني في سورة الرعد**

**الفصل الثالث**

**التصوير البياني في سورة الرعد**

إن للعبارة القرآنية أسلوبها الفريد في التصوير البديع القائم على عرض النماذج الحية في الكون والإنسان، والأحاسيس والمشاعر. وفيما يكشف عن نعيم المؤمنين، ويصف عذاب الكافرين، وفيما يتعلق بوصف الجنة والنار وأحوال السعداء والأشقياء، وفيما يصور مدى علم الله بالغيب، وإحاطته المطلقة بحال الكون ومن عليه.

وقد عرضت سورة الرعد لكثير من المعاني التي عبر عنها بصورة رائعة تآلف نظمها واتسق على أروع طرق في التعبير الذي يرتقي ((بالصورة فيمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهبي هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسدة مرئية([[107]](#footnote-107))))، والطبيعة الكونية حية تنبض بالحركة المتوالية في أفق الكون الفسيح.

وإذا تدبرنا هذه السورة الكريمة استشعرتا عظمة التصوير البياني في ثنايا آياتها، وهي تعرض آيات الله ومظاهر قدرته في السماوات المرفوعة بغير عمد، والشمس والقمر كل منهما يسعى إلى غاية، وفي الأرض وبسطها وتثبيتها بالجبال الراسية، وجعل النهار، وبث الثمرات، وفي الليل والنهار يتعاقبان، وما في الأرض من حدائق وزروع، وفي البرق والخوف منه والطمع فيه، والسحاب وما ينـزل منه من ماء، وجريانه في الأدوية سبلا ذا زبد أغير ذي ذبد وتصوير الرعد في صورة مسبح بحمد الله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ وفي الصواعق وما يحدث منها.

وتلك الصور البديعة تعبر عنها، وترسم ظلالها الآيات الكريمات من قوله تبارك اسمه:﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** **(3) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**.

وقوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)**﴾ وقوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**﴾ إلى قوله:﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾**.

وقوله عز وجل:﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** **(41)**﴾.

تلك سبع آيات تتحدث جميعها عن آيات الله في الكون، ومظاهر قدرته. وإذا تدبرنا المعاني التي أدت هذه الأغراض، وأسلوب الأداء لكل معنى من هذه المعاني. فسنجد الأسلوب القرآني فريداً يمتاز على غيره من كل أسلوب، لتنوعه مرة بالحقيقة وأخرى بالمجاز، والتعبير بالمشاهد الحسية وباستثارة العقول، والاحتكام إلى العواطف وبالتخيل الحسن، إلى غير ذلك مما تفيض به الآيات من سبل التوضيح، ووسائل الإقناع والاستمالة من استعمال صورة المقابلة، والتجنيس، والكنايات، والاستعارات والتمثيل، وعموم وسائل البيان.

ولعل من أبرز ما يطالعنا في ثنايا هذه الآيات من وضوح التصوير الفني فيما ما تعتمد عليه من أسلوب التقابل والتضاد ((لأن المعنى يجر ما يقابله، والضد أكثر خطوراً بالبال، والعقل أسرع استجابة له، وهو الذي يوضح الفكرة، ويعين على فهمها)) وبضدها تتميز الأشياء ((وأدراك الأضداد عملية ذهنية يسير لا تحتاج إلى الكد الفكر))،([[108]](#footnote-108)) وهذه الظاهرة تتبين في مقابل السماوات المرفوعة، بالأرض المبسوطة، وفي الليل والنهار، والخوف والطمع وفي يذهب ويمكث، كل هذا في تنسيق عجيب لبعض معالم الكون في عقد ذي تقابلات فنية رائعة، نلحظها في الرواسي الثابت، والأنهار، الجارية، وبين الزوج والزوج في كل الثمرات، وبين الليل والنهار، ثم بين مشهد السماء ومشهد الأرض كل ذلك في إطار متكامل المشهد والصورة في نمط من النظم والتأليف عجيب.

والتصوير الفني في قوله تعالى:﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾**... لآية قد اشتمل على وجوه كثيرة من البيان. فهناك - القصير في قوله:((الله الذي)) وهو قصر حقيقي استفيد من تعريف طرفي الإسناد ((الله)) و((الذي)) وينجر القصر إلى تسخير الشمس والقمر لأنهما من ملحقات صلة الموصول أي الله وحده الذي رفع، واستوى، وسخر. وهناك الفصل بين الجمل في قوله:﴿**تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)**﴾، والفصل هنا لكمال الاتصال لأن الجمال استئنافية وقعت جواباً لسؤال سائل. ففي الأول كان سائلا قال: هل حال السماوات ظاهر أم خفي؟ الجواب ((ترونها)) وفي الثانية: إن كل تلك الأمور من رفع واستواء وتسخير تحتاج إلى مدبر فمن هو؟ والجواب يدبر الأمر، وفي الثالثة والرابعة: إن هذه الظواهر الكونية آيات مفصلات، فمن الذي فصلها، ولماذا؟ والجواب:﴿**يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2)**﴾.

وفي قوله:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾** الآية فنون بيانية لا تقل عن سابقتها في الآية الأولى: فهناك الحذف في قوله:﴿**وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾**، إذ التقدير - ومياه الأنهار - لأن التمنن بالمياه أكمل من التمنن بأخاديدها، ولأن القدرة والحكمة في خلق الماء أثم منها في خلق الأخاديد([[109]](#footnote-109)) وهناك القصر الحقيقي الذي استفيد من تعريف طرفي الإسناد ﴿**وَهُوَ الَّذِي**﴾ في قوله:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾** ومجيء المسند إليه منكراً للتكثير والتنويع في قوله:((قطع. وجنات. وزرع)) ثم هذه البلاغة التي تبدوا في تقديم المعمول على العامل، في قوله:((قطع. جنات. وزرع)) وفي ذلك رد خطأ المخاطبين إلى الصواب لأنهم كانوا يظنون أن الزوجين خاصان ببعض الثمرات دون بعض فبين لهم أن جميع الثمرات مكونة من زوجين اثنين ذكر وأنثى. والحظ ذلك الإيجاز البليغ في قوله:((قطع متجاورات)) فهاتان لفظتان أغنتا عن الأسباب بذكر قطع متلاصقة طيبة وسبخة، وكريمة إلى زهيدة، وصلبة إلى رخوة، وأخرى صالحة للزرع لا لشجر كل تلك المعاني والصفات جمعتها لفظنا قطع متجاورات([[110]](#footnote-110))، ويتدرج التعبير في الصورة من إيجاز إلى إيجاز على حد قوله تعالى:((يسقى بماء واحد)) فإن هذا التعبير القرآني يحمل في ثناياه ((لطائف بلاغية منها الدالة على لطف الله ووحدانيته وقدرته. وبيان الهدي والحجة الدامعة لمن ضل عن سبيل الله لأنه لو كان ظهور الثمر بالماء والتربة لوجب في القياس أن لا تختلف الطعوم والروائح ولا يقطع التفاضل في الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد، لكن كل ذلك من صنع اللطيف الخبير))([[111]](#footnote-111)) ودليل على عجيب قدرته، وهذه المعاني كلها أغني عن ذكرها التعبير بقوله:﴿**يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ**﴾ هذا بالإضافة إلى ما يحوي هذا النمط الرائع مما يستشير الفكر ويبعث على التأمل الذي يقضي إلى الاعتراف بعظمة الخالق سبحانه.

والحظ دقة التصوير في تقديم ذكر الجنات غلي الزرع، والإتيان به مفرداً جرياً على الأصل لأنه مصدر، وعلى الرغم من أن الزرع عمود المعاش فقد قدم ذكر الجنات عليه تنبيهاً على دقة الصنعة، وإحكاماً فيما يجود به الله على عباده من خيرات، كالعنب، إذ في خلقته ما يبهر العقول، لكونه مياهاً متجمدة في أجسام رقيقة حلوة المذاق، وراع تأخير ((نخيل)) فقد ذكرت بعد زرع لئلا يفصل بين الصفة والموصوف، وحتى لا يطول الفصل بين المتعاطفين، ثم إن في التعبير بالصفة دون الموصوف ((ما يعني عن ذكر الموصوف بغلبته وجمعه([[112]](#footnote-112)))) وتأمل أسلوب التعريض بذم الكفار في قوله:((**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**. **لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)).

فإن هؤلاء حرموا أنفسهم نعمة العقل فعطلوا مقومات التفكير والتدبر، بل عطلوا العقل الذي ميزهم الله به على سائر المخلوقات.

\* \* \* \*

إن الوجه التصويرية لقوله تعالى:﴿**وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ**﴾ الآية لتحمل مشهد قديماً مكروراً منذ خلق الله السماوات والأرض، وهذا المشهد تمر عليه العين في غفلة والنفوس:﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105)**﴾[[113]](#footnote-113)\* لكن التصوير يعرض هذا المشهد جديداً معبراً، وإنه لكفيل حين تتملاه العين أن يوقع في النفس أثرا وجدانياً خاصاً، فهذه القطع المتجاورات من الأرض مختلفة في النبات، بل إن النوع الواحد منه ليختلف في الأشكال فمزدوج ومنفرد، وجميعه يسقي بماء واحد ولكن تختلف طعومه في المذاق وآيا ما كانت هذه الملاحظات فمردها الأول إلى المشاهدة، فمشاهدة هذه اللوحة الطبيعة التي تتوجه إليها الأنظار، لتراها بالبداهة المهمة، والحس اليقظ بعد أن تتملاها الأبصار، وكم في المشاهد المكرورة المألوفة ما يبدو جديراً كأنما تتملاه العين أو مرة حين تتجه إليه بالحس الشاعر المتفتح، والعين المتيقظة للألوان بعد الغفلة الغالبة على بني البشر. وفي الأرض مشاهد كثيرة لعل من أشهد أثراً في الحس والنفس))([[114]](#footnote-114)) تلك الصورة العجيبة التي رسمتها الآية هنا وكان من أشد التصاقها بالإنسان كونها لصالح حياته ونفعه. وهكذا نري التصوير القرآني يتخذ الطبيعة ميداناً يقتبس منه صورة من نبات وحيوان وجماد، بل نجد الآية الكريمة هنا تستمد عناصر التصوير من أقوى وأزكى عناصر الطبيعة ((وهو الماء)) وفي ذلك سر خلود هذا التصوير فبالماء يحيا كل شيء.

واستشعر روعة التصوير في قوله تعالى:﴿**يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾**، ﴿**وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ**﴾، ﴿**نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾**)) وتأمل طريقة الإيضاح وكيفية أداء المعنى إلى الذهن من خلال هذه الصورة، إذ تلف في إطارها صورة تسبيح الرعد، ورؤية البرق، تلك صورة ينتج عنها هذا ((التقسيم الجميل الخوف))([[115]](#footnote-115)) وأنعم النظر في تشبيه هزيم الرعد بصورة إنسان مسبح، وافطن لي التعبير بقوله:((**نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**)) كيف لاءمت كل لفظة أختها فإن عملية نقص الشيء كيفية أخذه من أطرافه لا من وسطه أو أعلاه:((وإذاً ننقصها من أطرافها)) وهذا التعبير مراد به نقص أهل الأرض بابتلائهم بالموت ونوائب الزمان، كأخذهم بالخوف والجوع، ونقص في الأنفس والثمرات.

\* \* \* \*

ويمكن أن نستخلص من معالم الجمال التصويري في السبع الآيات السابقة في انتقال التعبير من إلى صيغة، وتنوع الأسلوب بين الخطاب، والإخبار وذلك من خصائص الإبداع في النظم القرآني حتى لا يسير الكلام على نمط واحد، فإن مثل ذلك الانتقال تجديداً لنشاط السامع والقارئ. حتى يبدو الأسلوب أمر وضوح وإقناع أكثر مما هو مخاطبة للقلوب والعواطف، لأن التصوير في الآيات هنا كائن في مجال إثبات وحدانية الله تعالى وعظيم قدرته الظاهرة في تلك الآيات، والعلامات التي عددتها، وهذه الآيات، وإن كانت واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار إلا أن أكثر هؤلاء الكفار والمشركين والمعاندين لا يؤمنون بموجدها وخلقها، فهم يرونها وكأنهم لا يرونها، ومن هنا انتظم التصوير في أسلوب الآيات من عقد رائع جميل يأتلف من:

1 - الأضداد والتقابلات الفنية العجيبة.

2 - أسلوب القصر والوصل والفصل.

3 - الإيجاز غير المخل.

4 - وأخيراً ضرب الأمثال والتشبيهات المنتزعة من القريب المشاهد نلحظ ذلك في قوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾**.

وإذا أمعنت النظر في إطار هذا التمثيل الذي يصور مثلا للحق، ومثلا للباطل أدركت بعضاً من أسرار الحكمة التي من تؤثر في النفوس والقلوب وتحولها مهيأة للقبول والإضافة إلى ما في التعبير بسيل الأودية من جمال المبالغة، فإن الأودية لا تسيل وإنما يسيل فيها الماء الغزير الذي أنـزله الله من السماء، وذلك ضرب من البلاغة يسميه العلماء ((المجاز الحكمي)).

وتكاد لا تخلو سورة من القرآن من تشبيه أو مثل ذلك لأن هذا اللون من البيان ومن أشرف أنواع البلاغة، وأعلاها - قال المبرد -: والتشبيه جار كثير في الكلام العربي حتى لو قال هو أكثر العرب لم يعد))([[116]](#footnote-116)).

وإذا كان المبرد قد خص كلام العرب بهذا الفن من الكلام فإن التشبيه غلب في أساليب الأدب والبيان عند سائر الأمم قديمها وحديثها على السواء، وذلك لما يؤديه التشبيه من الأغراض الكثيرة التي يحققها في صناعة الكلام ولا نجد مجالا يتسع للإضافة في هذه الأغراض.. وغاية ما نقول في هذا المجال إن القرآن الكريم قد عني بهذا الضرب من الأساليب الأدبية وأعني به فن التشبيه لتلك الأغراض التي يحققها في سائر ضروب التعبير، ومن ثم كانت العناية بالبحث البلاغي في التشبيه والتمثيل أثراً من آثار العناية بالكتاب الكريم لسعة هذين الفنين في اللسان العربي، ولقوة تأثيرهما في النفوس. يقول الله تعالى:﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآَنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ وقال:﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَال﴾ فامتن علينا بذلك لما تتضمنه الأمثال من الفوائد، فإنما يصار إليها لكشف المعاني وأدناه المتوهم من الشاهد([[117]](#footnote-117)).

وتلك الصورة الرائعة في المثل الذي ساقته الآية الكريمة من قوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾**.... الآية ينتظم إطاره من إسناد مجازي، وإسناد حقيقي، وذلك مندرج حيث يراد بالوادي الموضع الذي يسيل فيه الماء الكثير، أو يراد به الماء الجاري فيه فهو من إطلاق المحل وإرادة الحال وعلى الأول فالإسناد مجازي، وعلى الثاني فالإسناد حقيقي ((وإيثار التمثيل بالأودية على الأنهار المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأن الأودية، وشأن ما مثل بها))([[118]](#footnote-118)) ثم إن التصوير هنا مشهد متكامل " تتملاه العين، والأذن، والحس والخيال، والفكر، والوجدان تصوير حي منـزع من عامل الأحياء، لا ألوان مجردة، وخطوط جامدة تصوير تقاس فيه الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات فالمعاني ترسم وهي تتفاعل في نفس أدمية حية أو في مشاهد من الطبيعة تخلع عليها الحياة "([[119]](#footnote-119)) وحول تلك الصور نذكر ما أشار إليه ابن الأثير وهو يتعرض لذكر حد الكتابة بقوله: حد الكناية الجامع لها هو: كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بينهما ثم قال: وكذلك ورد قوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾**.

فكني عن العلم وبالأودية عن القلوب وبالزبد عن الضلال ويمضي ابن الأثير قائلا:((وقد رأيت جماعة من أئمة الفقه لا يحققون أمر الكناية وإذا سئلوا عنها بالمجاز وليس الأمر كذلك. وبينهما وصف جامع كهذه الآية وما جرى مجراها. فإن يجوز حمل الماء على المطر النازل من السماء وعلى العلم وكلك يجوز حمل الأودية على مهابط الأرض، وعلى القلوب، وهكذا يجوز حمل الزبد على الغثاء الرابي الذي تقذفه السهول وعلى الضلال. انتهى كلامه))([[120]](#footnote-120)).

وأرى أن حمل هذه الآية على الكتابة بعيد ولعله من ابن الأثير دليل واحتجاج على ما ذهب إليه في تحديد معنى الكناية، إذ جعل لها جانبي حقيقة ومجاز ولا أثر لذلك في الآية الكريمة إذ التصريح فيها بالحقيقة ظاهر.

والذي يهمنا في هذا المقام هو استيفاء جوانب التصوير في هذا المثل الذي ضربته الآية الكريمة. وأول ما يستوقفنا من جوانب الإبداع ذلك التناسق العجيب بين تلك الصورة وما سبقها في السياق فأنـزل الماء حتى تسيل به الوديان يتناسق مع جو البرق والرعد والسحاب الثقال في المشهد الكوني السابق الذي سبق للتدليل على قدرة الواحد القهار حيث تسيل هذه الأودية بقدرها كل بحسية وكل بمقدار طاقته وحاجته وكل ذلك يشهد بتدبير الخالق لكل شيء([[121]](#footnote-121)).

إن الإطار يضم آية واحدة اشتملت على ثلاثة أمثال ضربه الله في مثل واحد يقول: كما اضمحل هذا الزبد فصار جفاء لا ينفع ولا ترجي بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله، وكما مكث هذا الماء في الأرض فأمرعت وربت بركتها وأخرج نباتها وكذلك الذهب والفضة حين أدخلا النار فذهب خبثهما كذلك يبقي الحق لأهله وكما اضمحل خبث هذا الذهب وتلك الفضة حين أدخلا النار كذلك يضمحل الباطل عن أهله))([[122]](#footnote-122)) وأثر التلاحم ظاهر في جو الآيات ومن خلال ما صورته الآية بأسلوبها البديع المفاجئ فبعد جو المجادلة الذي أثير في الآيات قبلها تأتي المفاجأة في هذه الآية من قوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾**.

كأن السورة قد انتقلت إلى موضوع آخر جديد لا صلة البتة له بما قبله لكن لا يلبث هذا الانتقال في الأسلوب المفاجئ حتى يعود إلى الربط بصلب الموضوع ويستكمل مراحل مواجهة التحدي بين الحق والباطل وبين أنصار الحق وأعوان الباطل إذ يقول الله تعالى:

﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**﴾ ثم يقول:﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾.

وهذه المرحلة جاء على صورة مثلين ماديين مشاهدين جمعا في صورة مثلين ماديين لتشابههما في الشكل والنتيجة. ولنقف على هذا التصوير بإمعان.

فالمثل الأول مشهد من المشاهد الكونية يعيشه الذين يقطنون البادية في الصحاري والقفار وبين السهول والجبال والوديان أنه يشهد مياه تنـزل من السماء فتعمم السهل والوعر))([[123]](#footnote-123)).

والحظ في الإطار التصويري لهذا المثل تلك الألفاظ المتخيرة إلى تلائم الطبيعة الخشنة طبيعة البادية حيث القوة في ضجيج الجرس ﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**﴾ والقوة في الأداء فاحتمل السيل زبداً رابياً فلم احتمل دون جمل أنها قوة في التعبير تتبع قوة المعنى ثم انظر إلى وصف الزبد بقوله ((رابياً)) ففي ذلك بين للمحتمل وأنه لا وزن له فيمكث في الأرض، ولم تقل الآية فاحتمل السيل فوقه، وفي ذلك إيذان بأن الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقاً للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادئ الرأي من غير مداخلة في الحق))([[124]](#footnote-124)).

ولاحظ طبيعة الألفاظ في الثاني من المشهد التصويري وهو قوله تعالى:﴿**وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾**.

ولاستكمال الصورة تأمل مشهد تدفق المياه مجتمعة منحصرة بين الجبال هابطة من كل مرتفع حتى تملأ الأودية وتسيل عنيفة مخيفة حتى ليخيل للناظرين أن الأودية تسير معها وفي ذلك جو يكتنف النفس الإنسانية ويحيطها بشيء من الرغبة والرهبة وهذا من تأثير الأمثال.

ويتضمن المثل المركب في هذه الآية. إشعاراً بتشبيه الصراع بين الحق والباطل وبين أنصار الحق وأعوان الباطل بحالة الصراع بين الجواهر النافعة والشوائب المفسدة عند حركة السيل الجارف، وحركة الغليان في المعادن وأشبهها وتشبيه النتائج في كل من الممثل له بالنتائج في كل من الأمثال.

فإذا اعتبرنا هذا المثل المركب من باب التشبيه لقوله تعالى:﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**﴾ وقوله:﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** **(17)**﴾ فهو من تشبيه التمثيل لأن وجه الشبه فيه منتزع من متعدد. بل هو من روائع التشبيه الغني بالمقابلات الجزئية بين أجزاء من المشبه وأجزاء من المشبه به. مع الحركة المتتابعة العجيبة والنهاية الناطقة بالنتيجة التي فيها باسم لأنصار الحق ووعيد كالح لجنود الباطل. وأول هذه المقابلات الجزئية كون الحق والماء منـزلين من السماء وعلى من يعيش في الأرض مقابل هذه النتائج إما بالحق الذي لا مرية فيه وإما بالباطل الذي هو زاهق لا محالة.

\* \* \* \*

وانعم النظر في صورة تسبيح الملائكة وصور تسبيح الرعد. ففيهما من البديع الرائع ((إدماج الحديث عن الملائكة المسبحة من خيفة الله مع صوت الرعد المسبح بحمد الله استكمالا لعرض الصورة الحركية: ما يظهر منها لأعين الناس.. وما يخفي عنها مما يشاهده غيرهم)).

ولما استكملت الصورة كامل هيئتها وأعطت كل دلالتها على قدرة الله القادر على الإنعام والقادر على الانتقام. حسن التعريض التي ترافق تلك الظواهر في بعض الأحيان فتنـزل بالهلاك على من يشاء الله هلاكه وحسن ختم هذه الصورة الرائعة بما يتصل بالأمر الذي سيقت من أجله وهو إقامة الدليل على قدرة الله تعالى:﴿**وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)**﴾ فعلى الرغم من كل هذه الأدلة المنبثة في الكون يجد الكافرون لأنفسهم مجالا للمجادلة في ذات الله وفي صفاته وفي قدرته على بعثهم، وحينما تضيق بهم الحجة يبيتون ألوان الكيد للرسول الكريم ولرسالته وللمسلمين([[125]](#footnote-125)) وتصرفهم هذا عناد وإعراض عن الله قال تعالى:﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آَيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (105)**﴾([[126]](#footnote-126)).

**- 2 -**

ومن بين الصور البديعة الرائعة ما تضمنته بعض آيات هذه السورة الكريمة عن الغيبيات التي ضم إطارها بيان انفراد الله سبحانه بعلم الغيب، وإحاطته بكل ما في الكون من إنسان أو حيوان أو جماد، وما تحمل كل أنثى وما في الأرحام من أنواع الحمل، وعلم الغيب والشهادة:﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأرْضِ﴾ وتلك الصورة تجمعها الآيات الكريمات من قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11)**﴾ وقوله تعالى:﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** **(33)**﴾.

\* \* \* \*

وقوله في سياق آخر:﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**﴾. هنا سبع آيات تحدثت عن الأمور الغيبية، في إطار بديع محكم يصور مدى علم الله المحيط بكل شيء. فلنتفحص جوانب الإبداع التصويري في هذه اللوحات القرآنية الشفافة.

لعل من أبرز خصائص الإبداع التصويري في قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾** لجوء الآية هنا إلى أسلوب التقابل الفني بين لفظتي، تفيض وتزداد، وما تحمله كل من هاتين اللفظتين من معاني كثيرة كفي عن سردها وذكرها التعبير بهما متقابلين، فإن مما تنقصه الأرحام وتزداد: عدد الولد، وهيئة جسده، فتمام الخلقة، أو مخدج، ومنه مدة ولادته، فقد تكون لتسعة أشهر، أو أقل أو أزيد إلى سنتين عند أبي حنيفة، وأربع عند الشافعي، وخمس عند مالك، زمنه الدم فإنه يقل ويكثر، وقبل هذا كله علم الله المحيط بما في هذه الأرحام من جنس الولد، أذكر أم أنثى؟ وما يتبع ذلك من صفات الحسن والقبح والطول والقصر، وكل صفة أو حال حاضرة أو مترقبة. كل هذه المعاني عبر عنها بلفظتين اثنتين فما أدقه من تصوير، وما أروعه من إيجاز)).([[127]](#footnote-127))

وفي هذا التصوير العجيب، عن مدى علم الله بالغيب، وأحاطته بكل شيء يقف الحس مشدوها يرتعش تحت وقع هذه اللمسات العميقة في التصوير وتحت هذه الإيحاءات الصوتية العجيبة في التعبير نعم يقف مشدوهاً وهو يقفو مسارب علم الله، ومواقعه وهو يتتبع الحمل المكنون في الأرحام، والسر المستور في الصدور ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُور﴾.

يقف الحس مشدوهاً وهو يتبع الحركة الخفية في جنح الليل وسروب النهار، وكل مستخف، وكل سارب، وكل جاهر، وكل هامس.

إن هذه كله مكشوف تحت المجهر الكاشف يتتبعه شعاع من علم الله، وتتعقبه حفظة تحصي الخواطر والنوايا. إلا أنها الرهيبة الخاشعة، التي لا تملك النفس معها إلا أن تلجأ إلى الله تطمئن في حماه، وأن المؤمن بالله ليعلم أن علم الله محيط بما في الظاهر والخفي، ولكن وقع هذه القضية الكلية في الحس. لا يقاس إلى وقع مفرداتها كما يعرض السياق بعضها في هذا التصوير العجيب:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى**﴾ حين يذهب الخيال يتبع كل أنثى في هذا الكون المترامي الأطراف، كمل أنثى في الوبر المدر، في البدو والحضر في البيوت والكهوف، والمسارب والغابات، ويتصور علم الله محيطاً بهذه الأجنحة في خفاياها، وإطلاعه على كل دانق منها، لا يملك المؤمن إلا أن يقول: سبحانك([[128]](#footnote-128)).

إن هذه الصورة البيانية عن علم الله سبحانه بالغيب تأتي ختاماً للسورة ((بحكاية إنكار الكفار للرسالة المحمدية وقد بدئت السورة بإثبات الرسالة فالتقي البدء والختام ويشهد الله مكتفياً بشهاداته. وأنه تعالى هو الذي عنده العلم المطلق بهذا الكتاب وبكل كتاب. وتلك الصورة جاءت آية في الأحكام والتناسب إذ ختمت بها آيات السورة الكريمة التي تزخر بكثير من القضايا قضية الوحي والرسالة وقضية الشركاء، وقضية الوعد والوعيد للكفار وطلبهم المعجزات من الرسول الله صلى الله عليه وسلم. فجاءت تلك الآية الكريمة حاسمة لكل تلك القضايا مكتفية بعلم الله وشهادته سبحانه التي لا يعد لها:﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**﴾ وتأمل في إطار تلك الصورة المبتدأة بفعل الأمر ((قل)) تلك اللفظة التي هي واسطة العقد في تركيب هذه الآية فكأنما تبقي النفوس متطلعة لما سيرد على الكفار في قولهم لست مرسلا وكأنما يتطلع إلى نتيجة ذلك الاعتراض ولما جاءت هذه اللفظة التي هي فعل الأمر ((قل)) انتزعت من النفوس كل تردد واضطراب نعم قل كفي بالله لا غيره شهيداً على ما أقول. وعلى صدق رسالتي. وأمضي متتبعاً جزئيات هذه الصورة البيانية في سياق الآيات من قوله تعالى:﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾**.

وانظر جلال المشهد التصويري وعظمته حين ((يذهب الخيال يتتبع كل هامس، وكل جاهر، وكل مستخف وكل سارب في هذا الكون الفسيح الهائل. ويتصور علم الله جلت قدرته يتعقب كل فرد من بين يديه ومن خلفه ويقيد عليه كل شاردة وكل واردة آناء الليل وأطراف النهار.

إن اللمسات التي رسمتها تلك الصورة عن آفاق الكون ليست بأضخم ولا أعمق من هذه اللمسات الأخيرة. في أغوار النفس والغيب ومجاهيل السرائر، وأن هذه لكف لتلك في مجال التقابل والتناظر))([[129]](#footnote-129)).

وأن لأسلوب التعريف والتنكير في بعض الألفاظ التي يشملها إطار هذه الصورة لمزية تخلع على المشهد مزيداً من الإبانة والإيضاح. فقد جيء بالسر والجهر معرفين بالاسم الموصول ((من)) في قوله تعالى:﴿**أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾** إشارة إلى أن كلا منهما قاصد لما كان منه من أسرار وجهر فكأنه بقصده ميز نفسيه بتعريف. وأما قوله تعالى:﴿**مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾** فقد عرف المستخفي بالوصول ((من)) لأن المستخفي هنا قاصد للتواري والخفاء متتبع له وبذلك ميز بالاستخفاء الذي لا يجديه فاستحق أن يشار إليه بأن معروف غير مجهول ولكن الذي يلفت النظر هو قوله تعالى:﴿**وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)**﴾ إذ لم يأت فيه لفظ ((سارب)) معرفاً بل جاء منكراً، وكان الغرض من تنكيره بيان إيراده قد كان لاستكمال الطرفين المتضادين بالتسوية، وليس الغرض تنبيهه إلى أنه معلوم غير مجهول لأنه في الأصل لا يقصد خفاء نفسه، ولا إظهارها وإنما هو سارب من الساربين، فهو واحد من كثيرين أعمالهم معلومة لله تعالى))([[130]](#footnote-130)).

والخط ذلك الإبداع في دقة التصوير من خلال طرف المبالغة ((في جانب المخاطب))، حيث جاءت تلك المبالغة مدمجة في المقابلة والمعنى أن هذا الظهور وهذا الاستخفاء متعذر على الناس الذين يدركون بحواسهم ما يظهر لهم ويغيب عنهم ما لا تقع عليه أبصارهم.

أما علم الله فلا مبالغة فيه إذ هو جار على الحقيقة التي لا مراء فيها لأن الله سبحانه يعلم السر وأخفى من السر، فليس ذلك متعذراً عليه جل ثناؤه))([[131]](#footnote-131)).

ويمكننا استخلاص ما اشتملت عليه طريقة الأداء في هذه الصورة من وجوه البيان فيما يلي:

1 - التقابل بين الألفاظ، والتركيب: إليك لفظ تغيض يقابل لفظ تزداد، وكذلك الغيب والشهادة، وأسر وجهر، ومستخف وسارب الليل والنهار.

وفي التركيب قوله:﴿**مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾** بقوله:﴿**وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)**﴾ ومن بين يديه، يقابله ومن خلفه.

2 - مراعاة النظير في قوله تعالى:﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)**﴾ بعد قوله:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾**، فكونه سبحانه يعلم الغيب والشهادة فإنه يناسبه من أسمائه الحسنى في هذا المقام قوله:﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)**﴾.

3 - قوة التأكيد في التخصيص الذي يؤديه قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى**﴾ فإنه تأكيد بالجملة الاسمية إفادة تقديم اسم الله تعالى الذي أسند إليه العلم بالغيب في هذه الآية مرتين:

الأولى: إذ جعلت جملة ((يعلم)) خبر عن لفظ الجلالة.

الثانية: إذ كان فاعل يعلم ظهيراً مستتراً يعود على الله.

وإليك تلك الصورة العجيبة عن علم الله بالغيب، وإحاطته بكل شيء إذ يقول تعالى:﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾**... إلى قوله:﴿**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)**﴾ تأمل مشهد تلك الصورة البيانية المؤتلفة من القيومية لله وحده. ((فكل نفس عليه حارس قائم عليها مشرف ومراقب يحاسبها بما كسبت ومن هو؟ إنه لله وحده فأنه نفس لا تأخذنها هذه الصورة وهي في ذاتها حق، وإنما يجسمها التعبير القرآني للإدراك البشري الذي يتأثر بالحسيات أكثر مما يتأثر بالتجريدات. أفذلك كذلك؟ ثم يجعل الكفار لله شركاء وهنا يبدو تصرفهم مستنكراً مستغرباً في ظل هذا المشهد الشاخص المرهوب:﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾** والله وحده القائم على نفس بما كسبت لا تفلت منه ولا تروغ. ويمضي السياق المبدع في التصوير فيرسم ظل التهكم المر بهؤلاء في قول الله تعالى:﴿**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ**﴾ وينتهي هذا التهكم بالتقرير الجاد الفاصل في قوله:﴿**بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)**﴾.. فالمسألة إذاً إن هؤلاء الكفار ستروا أدلة الإيمان وجهدوا نفوسهم عن دلائل الهدي فحقت عليهم النهاية الحتمية إظلال الله لهم وتعذيبهم:﴿**وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)**﴾.([[132]](#footnote-132))

وتأمل الإطار لتلك الصورة كيف زخر بصور بلاغية تبرز في وضع الموصول موضع المضمر في قوله:﴿**بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾** وفي هذا الأسلوب ذم للكفار وتسجيل عليهم.

وكذلك في وضع المظهر موضع المضمر في قوله:﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾** وفي ذلك تنصيص على وحدانية الله ذاتاً واسماً وتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما في هذا الأسلوب من البيان بعد الإيهام على حد قوله تعالى:﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾([[133]](#footnote-133)) حيث جاء الموصول للدلالة على تفخيم أمر المبين)).

بل تأمل لفظة ((أم)) في الآية الكريمة: فإن الأولى بمعنى بل ومجي الاستفهام متلوا بالنفي في قوله:﴿**أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ**﴾ بديع لا تكنه بلاغته وبراعته ولو أتى الكلام على الأصل غير محلي بهذا التصرف البديع لكان على النسق التالي: وجلعوا لله شركاء وما هم دونه إلا أسماء سميتموها([[134]](#footnote-134)) وهذا الإيجاز بالحذف في قوله:﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا﴾** إذ التقدير كشركائهم أو يشركون به بدليل قوله تعالى بعد ذلك:﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾** وراع هنا استعمال صيغة الاستفهام بمعنى الإنكار الإبطالي لا بمعنى طلب الفهم. أي ليس من هو قائم على كل نفس بما كسبت كمن ليس كذلك.

ويستطرد السياق لاستكمال الصورة في قوله تعالى:﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (42)**﴾ وذلك بعد نفس طويل في بعض الآيات ولم يزل المعنى مستمرا يشهد بوحدانية الله وإحاطته بعلم الغيب على نسق قوله تعالى:﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾**.

ومما يبعث على التأمل في الجانب التصويري من قوله تعالى:﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾**.

أن جاء ترتيب الأسباب ثم ترتيب النتائج، نلحظ ذلك في صدر الآية قول الحق سبحانه:﴿**وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾**، فقد عقب السياق بذكر نتيجة مكر أولئك الكفار، وتلك النتيجة هي مر الله الذي يفلت منه أحد ثم هذا المكر من جانب الله العلي القدير ليس ظلماً لأحد من البشر، وإنما هو مبني على علمه المحيط بما في مكنونات الضمائر والخوالج، فلو صنفت نفوس أولئك الكفرة لسلمت من مكر الله، ولكن سبق في علمه المحيط بكل شيء أن هؤلاء استحقوا عاقبة المكر بأخذهم:﴿**ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ** **(32)**﴾.

((والمكر تدبير أمر في خفاء عمن دبر عليه لصرف عما يريد، أو لإيقاعه فيما لا يريد. وقد يكون مذموماً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة مذمومة. وقد يكون محموداً إذا كان الأمر المدبر فيه مؤدياً إلى نتيجة محمودة)).

والضمير في قوله تعالى:﴿**مِنْ قَبْلِهِمُ**﴾ يعود إلى المشركين، ومعلوم أن موضوع السورة يدور حول الحديث عنهم. أي فلا غرابة أن يكون منهم مكر للرسول صلى الله عليه وسلم، وبالدين جاء به، وبالمسلمين فقد سبقتهم أمم كثيرة كافرة مكرت بالرسل، وبالرسالات، وبالمؤمنين بها.

\* \* \* \*

قال جل وعلا:﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقوله عز اسمه:﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

ولا تكاد سورة القرآن في جملتها تخلو من مثل هذه الآيات الكريمة التي تساق لتهدئة قلب الرسول الكريم وتثبيت نفسه وبيان وظيفته، وحمله على الصبر في نشر دعوته، تبليغ رسالته.

والذي يعنينا في هذا المقام هو إمعان النظر في إبداع التصوير في الآيات من سورة الرعد، فإذا تدبرنا قول الله تعالى:﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ واستشعرنا روعة الأسلوب القرآني ألفينا تركيباً لا غموض فيه إذ جملته مؤلفة من مبتدأ وخبر وحال، لكن ما المعنى المراد من كون المكر كله لله؟ إن المكر قد يكون في الخير، وقد يكون في الشر، لأن الله ليس بظلام للعبيد فأخذه الناس بظلمهم قطع لدابر الشر، ونـزوات الباطل، وردع للبشر من التردي مهاوي الفساد والكفر والضلال.

وظلال التصوير القرآني يشي ببيان هذا المعنى إذ تحته ما يلي:

1 - يتصور الكافرون أنهم يدبرون خطط مكرهم في خفاء، وأن خططهم ستحقق لهم الظفر بالرسل ورسالاتهم التي من شأن تسلبهم نفوذهم وسلطانهم في قومهم.

2 - الله سبحانه مطلع عليهم لا تخفي عليه منهم، ولا من أفعالهم خافية فما بظنونه خفياً هو معلوم لله تعالى.

3 - يترك الله الماكرين يتابعون تنفيذ خططهم في المكر، وهو مطلع عليهم وقد دبر لهم من الأمر ما ليس في حسبانهم، حتى إذا ظنوا أنهم قد قاربوا قطف ثمرة مكرهم، فوجئوا بتدبير لا علم لهم به - أفسد عليهم أمرهم ووجدوا أنفسهم قد سقطوا في شركهم الذي نصبوه دون أن يعرفوا كيف سقطوا فيه، وهنا نقول: إن المكر الذي يحاول أن يوجهه الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولدين الله، إنما هو في الحقيقة مكر بالله ولما كان الله مطلعاً على ما يدبرون، لأنه يعلم ما تكسب كل نفس سقط أن يكون ما يحاولونه في حقيقة الأمر مكراً، ولما كان الله فيما يمد لهم قد دبر لهم من حيث لا يعملون ما يفسد عليهم مكرهم وبوقعهم في جزاء عملهم، كان المكر في الحقيقة لله لأن تدبير الله تعالى مجهولة لهم، ونافذة فيهم وفي غيرهم لا محالة.

فأي التدبير في الحقيقة وواقع الأمر؟ أتدبيرهم أم تدبير الله؟ لا شك أنه تدبير الله، لكن محاولتهم قد كانت في ابتغاء الشر، وما دبره الله قد كان في ابتغاء الخير([[135]](#footnote-135)))) يقطع دابر المذنب والكافر وردع من يحوم حول حمي الضلال، وهذا وذاك كله بتدبير الله إذاً فالمكر كله له. لعلمه بكافة الأمور نافعها وضارها.

والتعبير بالمكر في جانب الله تعالى: أسلوب من المشاكلة. وهي ضرب من ضروب البلاغة التي وردت في كتاب الله تعالى.

والمشاكلة هي: التعبير عن الشيء يلفظ غيره لوقوعه في صحبه ذلك الغير، وجمال هذا التعبير أن فيه ائتلافاً بين الألفاظ كما في قوله تعالى:﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾. فإن جزاء السيئة عقوبة، ولكنه تعالى عبر عن العقوبة بالسيئة لوقوعها في صحبة تلك السيئة، ومثل قوله تعالى:﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.

وكذلك المكر هنا في جانب الله الذي من معانيه التدبير لما يبيت أولئك القوم وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التدبير بالمكر لوقوعه في صحبة مكرهم وخير الكلام ما كان أوله يدل على آخره، وما كان بعضه أخذاً برقاب بعض.

ولنتبين بعد ذلك قوله تعالى:﴿**يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ**﴾ فهو تعليل وبيان لإحاطة علم الله بدخيلة الأنفس، وما تخفي الصدور، فقد ظن أولئك الغافلون أنن أحداً لا يعلم بما يمكرون فبين لهم الله أنه ما من شاردة أو واردة. إلا وعلمه محيط بها، وإذاً:﴿**فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾**.

ويمضي السياق في تصوير مدى علم الله بالغيب إذ يقول تعالى:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**﴾.

**- 3 -**

وقد حلفت السورة الكريمة بكثير من الصور البيانية التي تنتظم إنكار الكفار للبعث والنشور. واستعجال العذاب، وتصوير المشركين الذين يلجأون إلى من لا ينفعهم ولا يضرهم، وتمثيلهم بباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاء فلا يصل إليه.

تلك المعاني يبرزها التصوير البديع في الآيات الكريمات من السورة إذ يقول تعالى:﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (5) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنـزلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)**﴾.

وقوله تعالى:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)﴾**.

أربع آيات ((يعجب التعبير في الأول منهن من أمر قوم تلك الصور التي سبق عرضها في أول السورة لا توقظ قلوبهم، ولا تنبه عقولهم، ولا يلوح لهم من ورائها تدبير المدبر وقدرة الخالق، كأن عقولهم مغلولة، وكأن قلوبهم مقيدة فلا تنطلق للتأمل في تلك الآيات))([[136]](#footnote-136)).

وغيرها والذي يشد العقل والشعور، وذلك التصوير البديع الذي أثاره مصدر التعجب من أولئك الكفار وشكهم في إعادتهم خلقاً جديداً، فمن بديع ذلك التصوير. ((التنسيق بين غل العقل وغل العنق: الأول معنوي، والثاني عبر به لاكتمال الصورة في الذهن عن جزائهم بالنار على الكيفية الرهيبة جزاء تعطيلهم مقومات التفكير والتدبر، التي بها أكرم الله بني الإنسان لكن هؤلاء الكفار يأبون هذا التكريم ويعطلونه))([[137]](#footnote-137)).

عناصر التصوير هنا جاءت منتزعة من الواقع القريب، فمن لا يعرف الغل ((الذي هو الحديدة أو القيد يغل به العنق))([[138]](#footnote-138)).

ومن منا لم ير صورة حسية لمجرم تصفد رجلاه، وتغل يده إلى عنقه؟ إن تلك الصورة لتجري في تنفي العقوبات بين الآدميين في حياتهم الدنيا، فكيف بها في عقوبة الآخرة، وكيف بصدورها ممن لا يرد بأسه عن القوم المجرمين؟.

وقد زاد هذا التصوير براعة، تشبيه عوامل الكفر بالأغلال واستعارة هذا اللفظ لها، واشتمال الآية الكريمة على الاستفهام الذي ليس على حقيقته، في قوله:﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ**﴾ فهو للإنكار والتعجب إذ الكفار يتعجبون من تحقيق إثبات البعث وينكرونه أاستعمال ((إن)) في قوله ((وإن تعجب)) مع أن في ((إن)) أن تستعمل في الأمور المشكوك فيها كما يقول بذلك علماء البلاغة، وفي هذا إشارة إلى ندرة تعجبيه صلى الله عليه وسلم فكأن حصول التعجب عنده من الأمور المشكوك فيها إذ التعجب إنما يحصل ممن يجهل الأسباب أما من يعلمها فلا، والرسول صلى الله عليه وسلم يزود باستمرار بالمعارف الربانية عن طريق الوحي فقلما يجهل أسباب الأشياء، وكذلك استعمال ((إذا)) في قوله تعالى:﴿**أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾** لأن مصير الناس إلى تراب من الأمور المحققة الوقوع، وقد ذكر علماء البلاغة أن ((إذا)) تستعمل غالباً في الأمور المحققة لا المشكوك فيها))([[139]](#footnote-139)). والموت لا شك فيه، واستحالة الأجساد إلى تراب يراه سائر الناس، فليسوا يشكون فيه، فقد كبر عليهم أن تستعيد هذه العظام والأجسام صورتها الأولى يوم البعث والنشور، ويمضي السياق مصوراً شأن هؤلاء الكفار بطلبهم تعجيل العقوبة، ورأفة الله بهم، بهدايتهم أولا إلى الحق، فإن لم يؤمنوا فإلى العذاب، يقول سبحانه:﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6)**﴾.

والتعبير في الآية هنا يقدم مغفرة الله وعقابه، في مقابل تعجل هؤلاء الغافلين للعذاب قبل الهداية ليبدو الفارق الضخم بين الخير الذي يريده الله لهم، والشر الذي يريدونه لأنفسهم، ومن ورائه يظهر انطماس عمي البصيرة وعمي القلب، والانتكاس الذي يستحق درك النار))([[140]](#footnote-140)).

وراع ذلك التقابل العجيب بين السيئة والحسنة، والظلم والمغفرة، وما قويت به عبارات الآية الكريمة من التوكيد بأن واسمية الجملة واللازم في قوله تعالى:﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6)**﴾. وتأمل دقة التصوير في قوله تعالى:﴿**وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ**﴾ إن الذهن ليظل صامتاً يكتنه مصارع الغابرين التي عبرت عنه لفظة خلت والمثلات وما حل بهم من سوء ما عملوا أما قوله تعالى:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنـزلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)**﴾ فيكفي في براعة التعبير اشتمال الآية على القص الإضافي في إنما أنت منذر إذ به اكتملت الصورة ببيان وظيفة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وانحصارها في التبليغ والإنذار أما مجمل القضايا التي أثارها السياق في الآيات السابقة فنتائجها راجعة إلى الله وحده وراع ذلك التهجين بذكر المشركين ووصفهم بالذين كفروا. وما له من روعة في التبكيت والنعي على هؤلاء. ثم في هذا القيد بعد ذكرهم وطلبهم المعجزة بقولهم:(من ربه) إن في ذلك لوصف لهم بالإمعان والتردي في الضلال والكفر.

\* \* \* \*

وفي تصوير المشركين الذين يجأرون بالدعاء إلى من لا ينفعهم ولا يضرهم إلا بإذن الله، تعرض الآية الكريمة التالية من قوله تعالى:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾ تعرض نوعاً من التشبيه المسمي بتشبيه التمثيل. وأول ما يشتمل عليه هذا التشبيه من الحسن والروعة أنه ((تصوير أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وقد اجتمعا في الحاجة إلى نيل المنفعة والحسرة بما يفوت من درك الطلبة، وفي ذلك زجر عن الدعاء إلا لله عز وجل الذي يملك النفع والضر. ولا يضيع عنده مثقال الذر))([[141]](#footnote-141)).

وإنه تشبيه تمثيل لكون وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، ففيه تشبيه عدم استجابة الشركاء للداعين لهم بعدم استجابة الماء الباسط كفيه إليه من بعد، فإن باسط كفيه لا يمسك ماء، ومن ثم لا يستطيع أن يبلغ به فاه فهو يحيا في آمال كذاب. ووجه الشبه عدم حصول الفائدة المرجوة في كل من صورة دعاء الشركاء، وصورة طلب الماء من بعد، مع شدة الحاجة والإلحاح، وبسط الكفين في كل من صورة المشبه، والمشبه به.

وقد أعان هذا المثل على التلاحم في جو الآية الكريمة، وما قبلها، إذ نلحظ في السياق السابق ((معترك الخوف والطمع في النفس الآدمية وهاتان الصفتان أثارهما جو البرق والرعد والسحاب الثقال والصواعق المرسلة، وتلك أحداث وظواهر طبيعية مخيفة مطمعة ولا حيلة للعباد العاجزين أن يتصرفوا فيها على ما يريدون ولا مفر لهم إلا أن يلجأوا بالدعاء إلى القوة القاهرة التي هي من صفات القوي القهار ومن خلال المشهد التصويري نرى صنفين من الأدعية تقذف بها حناجر الداعين: دعوة الحق، ودعوة الباطل.

أما دعوة الحق فصاعدة إلى الله يعلمها ويستجيب لمن دعا بها على مقتضي حكمته وأما دعوة الباطل فضائعة ضالة تمزقها الحيرة ولا تصل إلى الله لأنها ليست له ولا تجد من دون الله من يسعفها ويتلقفها لأن الذين من دونه عاجز عن جلب المنفعة ودفع المضرة فضلا أن يسعفوا غيرهم ممن يستجير بهم، فما أخيب هؤلاء الداعين وما أضل دعوتهم فمثلهم كمثل الظاميء الملتهب عطشاً يبسط كفيه إلى الماء من بعد ظناً أن هذه الوسيلة كافية لأن يبلغ الماء فاء وليس بباله.

وكذلك دعاء الكافرين سواء أكانوا منكرين لله أو مشركين به ما هو إلا دعاء ضائع لا يحقق شيئاً مما يرجون([[142]](#footnote-142)) وتأمل روعة الأحكام ودقة التلاحم، بعد إثارة هذا التشبيه تأتي آية أخرى تصور حال عباد الله المؤمنين وكل من في الأرض مسبح داع مؤمن بالله يقول تعالى:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ**﴾ وتلك الآية ستعرض للحديث عنها عند الكلام على الصورة البيانية في جانب حال المؤمنين وحال الكافرين مع الله.

\* \* \* \*

ومما أخرج الصورة البيانية مخرج المشاهد المحسوس اشتمالها على تأكيد الكلام بما يشبه الاستدراك عليه، وذلك في قوله سبحانه:﴿**إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾** فهو مثل يتضمن تأكيد الكلام السابق ولكنه جاء على صورة الاستثناء، والغرض. التهكم بالذين يدعون من دون الله، متصورين أنهم سينتفعون من شركائهم.

وكذلك أسلوب الاختصاص والقصر في قوله تعالى:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ**﴾ وهذا الاختصاص مستفاد من ما حقه التأخير، وفي قوله:﴿**مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾ وهو من قبيل الموصوف على الصفة، أي دعاء الكافرين ليس من الصفات إلا صفة الخسران، والضياع، وعدم حصول الفائدة. بالإضافة إلى هذا الإطناب الجميل الذي ختمت به الآية، ويصح أن يستقل بنفسه، ويستخدم فيما يشبهه مت الأحوال ولذلك فهو تذييل جار مجرى المثل كما يقول البلاغيون.

\* \* \* \*

حقاً إنها لصورة تعبر عن مشهد ((ناطق متحرك لاهث جاهد. فدعوة واحدة هي الحق، وهي التي يستجاب لها. إنها دعوة الله، والتوجه إليه، والاعتماد عليه، وطلب عونه ورحمته وهداه وما عداها ضائع باطل، وهذا المعنى بصورة ذلك التشبيه التمثيلي فكأنما ألفاظه وتراكيبه تنطق قائلة: ألا ترى حال الداعين لغير الله من الشركاء؟ انظر هذا واحد منهم ملهوف ظمأن يمد زراعيه، ويبسط كفيه وفمه مفتوح يلهث بالدعاء يطلب الماء ليبلغ فاه، فلا يبلغه، وما هو ببالغه، بعد الجهد واللهفة والعناء، وكذلك حال الكافرين بالله الواحد حين يدعون الشركاء من دونه([[143]](#footnote-143)))).

**- 4 –**

ولحال الموحد والمشرك والمؤمن والكافر، وتصويرهما بالأعمى والبصير، ووصف النعيم والعذاب، وتشبيه الدين والإيمان بالحبل المبرم ومحاولة الكفار نقض هذا العهد ومحاولتهم قطع ما أمر الله به أن يوصل وإفسادهم في الأرض.

لكل تلك المقاصد والأغراض صور بيانية اتسمت بأسلوب الاقتدار الذي هو التنويع في العبارة من استعارة وتشبيه إلى كناية وتعريض، وإلى حذف وتقديم وتأخير إلى إيجاز وإطناب إلى غير ذلك من أساليب البيان الرائع الذي تحار فيه كنهه العقول والأفكار ويجمع تلك الأغراض طائفة من آيات السورة الكريمة من قوله تعالى:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (15) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾ وقول الله تعالى:﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19) الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ** **(23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾.

إلى قوله سبحانه:﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)**﴾، وقوله:﴿**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)**﴾، وقوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (25)**﴾ إلى قوله تعالى:﴿**وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** **(31)**﴾ وقوله:﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)**﴾.

تلك ثلاث عشرة آية تحمل كل واحدة صورة رائعة أو أكثر من صورة فلنأخذ في التحليل تلك الصور مستوضحين أسرارها الجمالية، وإيداعها في التصوير، انظر لصورة الإنسان وكل ما على الأرض وهم ساجدون لله عن طوعا ًوإن كرهاً وتأمل قوة الإحكام في النظم والتلاحم بين أجزاء الآيات في تلك الصور، إلما أثارت الآية من قوله تعالى:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ**﴾... الآية)) لما أثارت تشبيهاً أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وضربت مثلا لواقع الخيبة التي يتردى فيها الذين يدعون من دونه الله أولياء، وهو مثل مصرح به إمعاناً في النكاية بالمشركين، والنعي عليهم ما هم فيه من حال، وما هم عليه من ضلال، بل ((هو مثل أوردته الآية مورد الاستثناء الذي يوهم إثبات شيء من الاستجابة ثم ينتهي بالتمثيل إلى تأكيد معنى النفي الذي سبق الاستثناء، وهذا لون بديع من التهكم([[144]](#footnote-144)))) نعم لما أجملت الآية لك كله جاء بعده في السياق ما يثبت أن النافع الضار هو الله وحده فهو المستحق للعبادة لا غيره، ولا تقول الآية:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ﴾**.

وما أروعه من إحكام بين أجزاء الآيات وبين كل آية وصلتها بما قبلها وما بعدها، تأمل بديع هذا النظم، وإحكامه في التسلسل إذ لم تزل الآيات مستمرة في معانيها عن الحق ووجوب اتباعه والباطل ووجوب اجتنابه وأنه لا مستحق للعبادة من كل من في السماوات والأرض سوي الله وحده فإذا ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ﴾**.

ما أروعه من مشهد يقف فيه كل ما على الأرض من مخلوقات آدمية وغير آدمية من حيوان أو جماد، وكله مشهد يتجه بمن فيه إلى وجه الله وحده في استكانة وخوف وتذلل وانقياد إن طوعاً وإن كرها حتى ظلال تلك المخلوقات ساجدة لله، وقد أكد السجود والانقياد، ذلك القصر والتخصيص في قوله:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ**﴾ فقد قدم للمجار والمجرور وهما متعلقات بالفعل يسجد فأفاد تقدم ماحقه التأخير قصر السجود على الله سبحانه وتعالى.

فالتصوير في الآية تعبير ناقص بالحركة الدائبة إذ كل من في الكون يعون لله والخلق ((كلهم محكومون بإرادته خاضعون لسنته مسيرون وفق ناموسه:

المؤمن منهم يخضع طاعة وإيماناً، وغير المؤمن ينقاد أحذاً وإرغاماً فما يملك أحداً أن يخرج على إرادة الله، ولا أن يعيش خارج ناموسه الذي سنه للحياة.

والمشهد مشهد عبادة ودعاء، ولذا يمضي السياق متحدثاً عن الخضوع لمشيئة الله بالسجود فهو أقصى رمز العبودية، ويضم إلى شخوص من في السماوات والأرض ظلالهم كذلك: ظلالهم بالغدو في الصباح وبالآصال عند انكسار الأشعة، وامتداد الظلال يضم هذه في السجود. والخضوع. والامتثال...))([[145]](#footnote-145)) وهي في ذاتها حقيقة. فالظلال تبع للشخوص. ثم تلتقي هذه الحقيقة ظلها على المشهد فإذا هو عجيب، وإذا السجود مزدوج. شخوص وظلال. وإذا الكون كله بما فيه خاضع لله. شخوص وظلال فحري أن يستجيب الله للساجدين.

وهذه الصورة أخرى لكنها هنا في جانب المشركين، ترسم ظلالها الآية الكريمة على حد قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)﴾**. إنها صورة يزخر مشهدها بحركة حية مائلة للعباد كأنما يتملاها الحس ويدركها الشعور، وتراها العين من قرب ومن بعد. فالهيكل بارز للناظرين مبني بأمشاج من ألفاظ سهلة متقبلة فإيمان وكفر، وعمي، وبصيرة، ونور وظلمة، ومخلوقات غير قادرة على النفع والضر لأنفسها أو غيرها.

ومما يسترعي النظر ذلك التشبيه القائم على أركانه الثلاثة اتخاذ الأولياء خلقاً يزعمون لهم النفع والضر والإيجاد، وخلقاً لله اعتقد المشركون أن أوليائهم يوجدون مثله، وكاف وسط بين المشبه، والمشبه به وقيل ذلك كله جمال التعبير ((يجعل)) التي بمعنى أعتقد ((أي اعتقدوا أن لله شركاء خلقوا كخلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً([[146]](#footnote-146)))).

\* \* \* \*

((ثم لما دل النظم البديع على أن الفكرة فيما فعلوا من اتخاذ الأصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض، والخطأ البحث بحيث لا يختفي بطلانه على أحد، أنهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلا، وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وأخطائهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقال:((﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾**... الآية([[147]](#footnote-147)))). واكتمال المشهد العجيب في هذه الصورة العجيبة محاط بالأسئلة المنهمكة المواجهة إلى المشركين، ((فما يجدر بالمشرك في مثل هذا الجو إلا التهكم، وما يستحق إلا السخرية والاستهزاء. نعم قل لهم يا محمد:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾.

سلهم والقضية واضحة، فلا رب سوى الله، والفرق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير، وبين الظلمات والنور. وإنما السؤال للتهكم المر اللاذع المعقب عليه بقوله تعالى:﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾)). وهنا تحاط قضية الشركاء في هذه الصورة بسجود من في السماوات والأرض، وظلال طوعاً وكرهاً كلهم في خضوع وانقياد، وفي ختام المشهد ذلك القهر الذي يخضع له كل شيء في الأرض والسماء وقد سبقته في السياق يروق ورعود. وصواعق وتسبيح وخوف وطمع.. فأي قلب يصمد لهذا الهول، إلا أن يكون أعمى مطموساً يعيش في الظلمات حتى يأخذه الهلاك([[148]](#footnote-148)))).

واستوف طريقة الأداء في تلك الصورة البيانية فستجد الألفاظ انتزعت وتخيرت من الواقع القريب وجئ بها لرسم صورة حية عن الجهل والعلم والهدي والظلال وكل لفظة في الصورة تشع بالمعنى المراد وتبث في النفوس والمشاعر ما يحرك الضمائر - ويجعلها متيقظة تتأمل شخوص تلك عن إحساس فياض وإدراك لمعنى الجهل والعلم والهدي والظلال والكفر والإيمان.

((وتدرك الفرق بين الحق والباطل إدراك الفرق بين الأعمى والبصير وفي ذكر الأعمى إشارة إلى الكفر وأهله، وفي ذكر البصير إشارة إلى العلم والإيمان وأهله فالعمى وحده هو الذي يحجب الرؤية كما يحجب عمي البصر رؤية الحق المبين ويصد عن التأمل فيه أنه يدرك أثره ويحس به كل من في السماوات والأرض)).

وراع تلك التقابلات الفنية العجيبة بين طوعا ًوكرهاً والغدو والآصال والأعمى والبصير، والظلمات والنور، ونفعاً وضراً والسماوات والأرض وافطن إلى أسلوب الاقتدار الذي تميز به أسلوب تلك الصور فهناك:

القصر والاختصاص في قوله:﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** وقد تستفيد هذا القصر من تقديم المعمول على العامل ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ**﴾.

وهناك خروج الاستفهام عن حقيقته إلى معنى الإنكار في قوله:﴿**أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾** وهو من باب الاستعارة التبعية في الحروف القائمة على أساس تشبيه الشيء المعلوم الواقع الذي ينكره العقل السليم على فاعله المجهول الذي يستفهم عنه عادة أي هو إنكاره جدير بأن لا يقع في تصوير الإنسان أنه موجود أو يمكن وجوده، ولذلك يصح أن يستفهم عن وجوده والغرض الإنكار على فاعليه أو المتصف به.

وهناك في قوله تعالى:﴿**خَلَقُوا كَخَلْقِهِ**﴾ وهذا التشبيه الغرض منه مجرد المماثلة.

وافطن إلى براعة الإيجاز أولا بحذف جزء الجملة في قوله تعالى:﴿**قُلِ اللَّهُ**﴾ أي هو الله أو الله رب السماوات والأرض.

وثانياً بطي كلام يمكن العلم به من ترتيب الأمور بعضها على بعض. ومنه ما يجيب به المشركون عند سؤالهم (من خلق السماوات والأرض؟ وهم سيقولون هو الله. أو عبارة نحوها. لأنهم ممن يقولن بذلك.

وتأمل بلاغة القصر في قوله تعالى:﴿**الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾ أخذاً من تعريف طرفي الإسناد وهو من باب قصر الصفة على الموصوف والقصر هنا إضافي لأن لله سبحانه صفات أخر يغير الوحدانية والقهر.

وفي قوله تعالى:﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ لأنه لما أضيف لفظة خالق إلى كل شيء كان في قوة قولنا:﴿**اللَّهُ خَالِقُ﴾** بل أقوى منه لأن القصر استفيد من مادة المضاف إليه الدالة على العموم نضأ والقصر هنا حقيقي ومن باب قصر الصفة على الموصوف أي ما خالق كل شيء إلا الله.

وافطن إلى أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله:((﴿**أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**﴾ ثم قوله:﴿**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ**﴾ والالتفات فن من فنون البلاغة زينه هنا طول الفصل بين الجملتين وكون الذين جعلوا لله شركاء في الربوبية قلة نادرة في العرب ولداك جاء الحديث عنهم بالغيبة بخلاف القسم الأول فهم معظم العرب ولذلك جاء الحديث عنهم بالخطاب([[149]](#footnote-149)))).

ويمضي السياق مصوراً حال الموحدين المؤمنين بالله وصفاتهم الإيمانية التي هي الصفات الحقيقة للمؤمن الحق.

ونلحظ تلك الصفات وأهلها في الآيات الكريمات من قوله:﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾**... إلى قوله تعالى:﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** **(24)**﴾.

إن مظاهر التلاحم في نظم هذه الآيات ليأتي متناسقاً تمام مع موضوعات السورة الكريمة. ((فبعد المشاهد التصويرية الهائلة في آفاق الكون وفي أعمال الغيب وفي أغوار النفس التي استعرضها شطر السورة الأول يأخذ شطر السورة الثاني في تصوير لمسات وجدانية وعقلية تصويراً رقيقاً دقيقاً مبتدأ بقضية الوحي والرسالة:﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾** فهنا لمسة في الطبيعة الإيمان وطبيعة الكفر. الأولى علم والثاني عمي. ويمضي خط السير في تصوير طبيعة المؤمنين والصفات المميزة لهم والتي أولها علمهم الإيماني بوحدانية الله وما نـزل من عنده على رسوله صلى الله عليه وسلم، وإشعاع هذا العلم في مقابل ظلال الجهل والعمى الذي لم يهد عقل صاحبه إلى نور الإيمان، وفي هذا أسلوب عجيب في لمس القلوب وتجسيم الفروق، وهو الحق في الوقت ذاته لا مبالغة فيه، ولا زيادة، ولا تحريف.

فالعمى وحده هو الذي ينشي الجمل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التي لا تختفي إلا عمي على أعمى، وإذاً فالناس إزاء هذه الحقيقة الكبرى صنفان: صنف يعلم لهو مبصر مؤمن، وصنف التوى به الطريق فهو أعمى قد ظل سبيل الحق، ولا يستويان مثلا.

والعمى عمي البصرة، وانطماس المدارك، واستغلاق القلوب، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح انفصالها عن مصدر الإشعاع الذي تستنير به القلوب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46)﴾.

ولكن إنما يتذكر أولو الألباب الذين لهم عقول وقلوب مدركة تذكر بالحق فتتذكر، وتنبه إلى دلائله فتتفكر، وهذه صفات أولي الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، وهنا تنتقل الصورة مجسدة بعض صفات المؤمنين التي من أزكاها وفاؤهم. بعهد الله هذا العهد الذي أجملته الآية الكريمة فإنه عهد الله المطلق الذي يشمل كل عهد، وميثاق الله المطلق الذي يشمل كل ميثاق.

\* \* \* \*

والعهد الأكبر الذي تقوم عليه العهود كلها هو عهد الله مع بني آدم كلهم، إذ استخرجهم من ظهر أبيهم كالذر، ثم أشهدهم على أنفسهم:((ألست بربكم)) قالوا بلى، إنه عهد الإيمان، والميثاق الأكبر الذي تتجمع حوله المواثيق كلها، هو ميثاق الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان.

والتصوير البديع هنا انتظم لفظتين اثنتين هما العهد والميثاق، وصدرهما بلفظتين اثنتين هما ((يوفون)) ولا ينقضون هكذا في إجمال تبقي النفس إزاء هذا التصوير معلقة تشرئب إلى الوقوف على نوعيه هذا العهد، وهذا الميثاق وهذا خصائص الأسلوب القرآني إذ أحيانا ًيجمل ثم يفصل، وأحياناً جمل دون تفصيل لتبقي نفس القارئ والسامع معلقة بها الأسلوب تبحث عما وراءه من أحداث.

ويرتب الخط التصويري على العهد الإلهي والميثاق الرباني كل العهود والمواثيق مع البشر سواء مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو مع الناس ذو قرابة أو أجانب أفراداً أم جماعات فالذي يرعى العهد الأول حري بأن يرعى سائر العهود لأن رعايتها فريضة، والذي ينهض بتكاليف الميثاق الأول يؤدي كل ما هو مطلوب منه للناس لأن هذا داخل في تكاليف الميثاق.

فانظر لدقة هذا التصوير كيف يبرز القاعدة الضخمة الأولى التي يقوم عليها بنيان الحياة كله أنها عهد الله سبحانه وميثاقه. ثم يقرر هذه القاعدة في ثلاث كلمات من قوله تعالى:((﴿**وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21)**﴾ نعم يصلون ويخشون ويخافون.

هكذا في إجمال: لأن التفصيل يطول وهو غير مقصود إنما المقصود تصوير الاستقامة المطلقة التي لا تلتوي والطاعة المطلقة التي لا تفلت والصلة المطلقة التي لا تنقطع... ويلمح عجز الآية إلى الشعور المصاحب في نفوسهم لهذه الطاعة الكاملة.

ويتبع تلك الصفات المطلقة صفات أخر للمؤمنين يجسدها التصوير القرآني في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22)**﴾ صفات أربع ينتظمها التصوير في:

1 - الصبر.

2 - إقامة الصلاة.

3 - الإنفاق في طريق مشروع.

4 - درء السيئة بالحسنة.

ومثل تلك الصفات لا تصدق إلا على عباد الله المؤمنين الصالحين الذين شعارهم الإيمان، ودثارهم التقوى ودينهم الطاعة الدائمة.

ما أروعه من تصوير، فلقد عبرت الآيات السابقات عن بعض صفات المؤمنين: من خوف، وجشعة، ووفاء بالعهد والميثاق وهذه الصفات يستلزمها التحلي بصفة الصبر، وإقامة الصلاة، والإنفاق المشروع، ودرء السيئة بالحسنة، وقد جاءت مرتبة في العقد التصويري من الآية، وهذا الصبر جاء مجملا فهو صبر على طاعة الله وصبر عن محارم الله، وصبر على أقدار الله ثم يلي ذلك صفة إقام الصلاة، ويبرزها التصوير لكونها مطهر التوجه الخالص والعبودية الكاملة، ثم يتبعها السياق بذكر صفة الإنفاق مما رزق المؤمنون سراً وعلانية، وهنا تبرز الصلة بين عباد الله التي تجمعهم في الله، وهم على قيد الحياة تلك السمة العالية التي نفس معطيها من البخل، وتزكي نفس آخذها من الغل، وهذا الإنفاق المشروع أثارته الآية في السر حيث تصان الكرامة، وتطلب المروءة وتتحرج النفس من الإعلان به.

وفي العلن حيث تطلب الأسوة، وتنفذ الشريعة، والكل موضعه في الحياة.. وأخيراً لاحظ تلك الصفة التي تنحسر دونها الأطماع فمن ذا الذي يصل إلى درء السيئة بالحسنة إلا مؤمن يقابل بالحسنة في معاملاته مع الناس ابتغاء وجه الله.

أما في دين الله فلا، لأن المستعلي الغاشم لا يجدي مع هذا الخلق وإنما أولي به الدفع الصارم والأخذ الحاسم.

هؤلاء المؤمنون الذين هذه صفاتهم، ما مكانتهم عند الله؟ وما جزاؤهم؟ هنا ينتقل السياق مصوراً هذا الجزء في قوله تعالى:﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾.

انظر إلى هذا المشهد وتأمل التعابير التي رسمته فكأنما تعيشه الآن، وكأنما تراه حاضراً وتسمع الملائكة وتراهم أطوافا محيين ومرحبين سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار.

إنه مشهد حي يأتلف فيه جميع المؤمنين، ويلتئم شملهم بالصالحين من آبائهم، وأزواجهم وذرياتهم الذين فرق الموت بينهم، إنه مهرجان حافل باللقاء والتسليم، والحركة الدائبة والإكرام "([[150]](#footnote-150)) ثم هذه الجنة التي يدخلونها ما صفتها وما الخير الذي وعدوا به.؟

سبحانه:﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)**﴾.

وقد أعان على دقة التصوير ووضوحه تنوع الأسلوب، فهناك الاستفهام الإنكاري في قوله:﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾** والمتأمل يدرك سر تصدير الآيات بهذا الاستفهام إذ أن الذي يستفهم عنه هنا، يؤمن به العقلاء، وينكره عيرهم تكبراً وعناداً وإعراضاً عن الحق وهذا من عمي البصيرة والبصر، فكأن أعينهم في غطاء من ذكر الله تبعا ًلقلوبهم المغلفة بحجاب الكفر والضلال.

انظر إلى جمال الاستعارة في قوله:﴿**كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾** تلك التي أخرجت المعنوي في الصورة المحسوس فقربته إلى الذهن والقوة التي يفيدها القصر في قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)**﴾ وقد أفاد هذا القصر التعريض بذم الكفار فهم لا يتذكرون، ولا تنفهم الذكرى ((وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)).

((وقد زاد هذا التعريض حسناً استعماله بطريقة القصر بإنما([[151]](#footnote-151)) وقد خص الله تعالى الألباب وحدها بالذكر دون سائر الجوارح، لأنها محل التدبير والهداية، ولأن العقل هو النعمة الكبرى التي خص الله بها الإنسان دون سائر المخلوقات.

وتأمل بلاغة الإيجاز في قوله تعالى:﴿**يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**﴾ ((فتحت ذلك صلة الأرحام والقرابات، وتحته الصلة القائمة بين الناس بسبب الإيمان، وذلك بالإحسان إليهم قدر الطاقة، ونصرتهم، والنصيحة لهم فتلك أوثق عري المحبة([[152]](#footnote-152)))) وكذلك في قوله تعالى:((سلام عليكم بما صبرتم)) فقد أكبر هذا الإيجاز من معنى التسليم الذي هو حفاوة خالصة هنا يرتقي الخط التصويري إلى أبدع الصفات التي تمس الأعماق، وتثير العواطف فيضرب مثلاً أعلا لصفة هذه الجنة على حد قوله:﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾** فإن مما يمتع النفوس والقلوب ذلك المشهد الخلوب الرائع مشهد الأنهار الجارية ذات الإمتاع والاسترواح يصورها السياق فيجعل منها مكاناً يبدو للعين، وكأنه جار وإنما يجري فيه وأخيراً تذيل تلك الصورة بقوله تعالى:﴿**تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (35)**﴾ إنه تقابل في الجزاء وفق تقابل في العمل الذي يرسم معناه هذا التصوير البديع القائم على التفصيل والبيان. فقد أعطي الجنة في التعبير بعض الصفات المشوقة إليها والمرغبة فيها فقال:﴿**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾**.

وربما كان إيراد الأكل والظل، والأنهار الجارية، وغير ذلك من النعيم المادي لمخاطبة البشر بما يفقهون. وبما يتصورونه سبباً من أسباب النعيم في الحياة الدنيا، وإلا فإن نعيم الآخرة لا يحد بتلك الصفات والنعم ففي الجنة ((ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)) كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم وهنالك السعادة الكبرى برضوان الله ورحمته كما قال:((ورضوان من الله أكبر)).

وقبل أن تغادر هذه الصورة عن حال المؤمنين إلى من في الضفة الأخرى المقابلة لهم من المشركين، ويجب أن نلقي على الإطار اكتفت تلك الصورة نظرة فاحصة، لنري دقة الإحكام البديع، الذي به ثم الوضوح، وتعانقت الجزئيان مع الكليات في نسق يمتع النفوس ويستقر في الأذهان.

\* \* \* \*

إن من أبرز خصائص الإبداع في التصوير القرآني لهذه الآيات. قوة الربط مع ما بدأت به السورة الكريمة إذ قال الله تعالى - في مطلعها:((**تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ**)) ثم ابتدأ وصف المؤمنين بشأن المنـزل في سياق النص من قوله يبتدرها الملائكة إكراماً لأولئك المؤمنين، ونكرة للتنويع والشمول، ((وفي الآية تقييد يقطع الأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب ومحل هذا التقييد قوله تعالى:((**وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**))([[153]](#footnote-153)).

وفي قوله سبحانه:((أكلها دائم وظلها)) إيجاز بحذف الخبر إذ التقدير وظلها دائم.

وانظر لجمال تلك التقابلات الفنية العجيبة في سياق الآيات بين السر، والعلانية، والسيئة والحسنة، وتأمل ((تقديم المجرور في قوله:((ويدرءون بالحسنة)) على المنصوب في قوله:((السيئة)) ففي ذلك إظهار لكمال العناية بأمر الحسنة وشرفها))([[154]](#footnote-154)).

وعلى الضفة الأخرى، المشركون بالله، وحالهم، ووصف عذابهم في مقابل حال المؤمنين الموحدين، ووصف نعيمهم.

وحين يعرض السياق لتصوير حال هؤلاء المشركين، نرى الخط التصويري يجمل ثم يفصل، متخذاً أساساً يفرع منه عاقبة المشركين كما تتخذ أساسا يفرع منه جزاء المؤمنين، وكلا الحالين في إجمال وتفصيل، بأسلوب ذي تقابل فني في المبني والمعنى، فبعد أن فصل حال المؤمنين وبينها في تسع صفات هي:

1 - وفاؤهم بالعهد.

2 - عدم نقضهم الميثاق.

3 - وصلهم ما أمر الله به أن يوصل.

4 - خشيتهم ربهم.

5 - خوفهم سوء الحساب.

6 - صبرهم ابتغاء وجه الله.

7 - إقامتهم الصلاة.

8 - إنفاقهم سراً وعلانية.

9 - درؤهم السيئة بالحسنة.

بعد هذا التفصيل والبيان، أخذ السياق في حصر صفات أولئك البعداء الأشقياء الكافرين بالله. فهم:

1 - ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه.

2 - يقطعون ما أمر الله به أن يوصل.

3 - يفسدون في الأرض.

4 - لا تنفعهم الذكرى.

وعند الإبانة عن عاقبة الفريقين، نرى مجمل ما يلاقيه المؤمن من جزاء حسن هم أهل، وذلك من خلال قوله تعالى:﴿**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾**.

ونرى تفصيل عاقبة المشركين في قوله سبحانه:

1 - ﴿**لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾**.

2 - ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾**.

3 - ﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (18)**﴾.

والأمر ما جاء الإجمال في جزاء المؤمنين، وجاء التفصيل في عاقبة المشركين، ففي ذلك كناية بالمشركين إذ عددت الآيات عاقبتهم لتعدد سلبهم الضائعة يلجأون إليها - والجزاء من جنس العمل.

أما المؤمنون فطريقتهم واحدة هي التوجه إلى الله وحده، والتصديق برسالة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فجاء ذكر جزائهم واحداً هو الحسنى لكن هذا الجزاء في حقيقته كثير عظيم، وفي الذروة منه رضي الله عنهم.

وفي هذا الإجمال والتفضيل في جزاء الفريقين استكمال لأسلوب تقابل الأضداد، وحبك المعاني، ولذلك اتبعت هذه الآية ببيان السبب الداعي إلى كون العاقبة ((الحسنى)) في الآخرة، وأنها جزاء المؤمنين. وأن السيئة في الآخرة هي جزاء الكافرين.

وقد استدعى هذا التفريق والتفصيل إجمال الآية الكريمة حال الفريقين في قوله تعالى:﴿**أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنـزلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (19)**﴾.

فانظر إلى شدة الإحكام، والتلاحم في التصوير، فآية تجمل وأخرى تفصل وكل ذلك في تناسق عجيب، ولا شك أن الإيجاز بلاغة والإطناب بلاغة أيضاً، والتنويع بينهما في الأساليب يزيد الكلام حسناً وبهاء، فليس الإيجاز قصوراً، وليس الإطناب تطويلا لغير فائدة، بل الفائدة محققة فيهما على حسب اقتضاء المقام.

\* \* \* \*

هذه العاقبة السيئة منها ما يجسده التصوير حتى يبدو وكأن الكافر يراه رأي العين، وإنما هو موعود به في الآخرة، فاسمع لوقع المطارق:﴿**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾**.

إن عذابهم في الآخرة أشق:﴿**وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (34)**﴾.

ومنها ما يصوره السياق معجلا به أو واعداً بحلوله في الحياة الدنيا نعم يقول الحق جل وعلا:﴿**وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾**. فلندعهم إذاً لأمر الله، وإذا كان الله قدر أن لا يهلكهم هلاك استئصال في حين واحد كبعض الأقوام قبلهم، فإذن قارعه من عنده بعد قارعة تنـزيل بهم فتصيبهم بالضر والكرب، وتهلك من كتب عليه منهم الهلاك، أو تحل قريباً من دارهم، فتروعهم، وتدعهم في قلق وانتظار لمثلها. وفي ذلك ترهيب لهم لعلهم يقلعون عن غيهم وعن وتأمل هذا الأسلوب من قول الله سبحانه:﴿**لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**، فهو أول وعيد صريح يلعنه الله في هذه السورة الكريمة بمعجل العذاب في الحياة الدنيا للكافرين بعد كل ما سبق فيها من التلويح به في معارض القول))([[155]](#footnote-155)).

وقد اعتمد التصوير البياني في هذه السورة على أسلوب ((الاختصاص)) كما في قوله تعالى:﴿**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾**، أي هم مختصون فلا تكون لغيرهم، وقد استفيد هذا الاختصاص من تقديم ما حقه التأخير وهو الخبر على المبتدأ، إذ وجه الإعراب للذين جار ومجرور خبر مقدم، واستجابوا لربهم صلة الموصول، والحسنى مبتدأ مؤخر)).

ولوضع الاسم الموصول في قوله:﴿**لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا**﴾ موضع المؤمنين، وفي قوله:﴿**وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا**﴾)) موضع الكافرين، إشعار بأن مضمون الصلة هو السبب فيما ترتب لكل من الفريقين من جزاء.

\* \* \* \*

وتأمل حسن هذه الاستعارة في قوله تعالى:﴿**وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ إذ أطلق لفظ المهاد وهو المكان الممهد الموطأ، وأريد به مكان تعذبهم في جهنم غير الممهد ولا الموطأ، والغرض من هذه الاستعارة التهكم والاستهزاء، فليس ما وعدوا به خيراً مما هم فيه من حال وسوء مآل))([[156]](#footnote-156)).

ولو أردنا تقصي بدائع التصوير في كل آية سبقت لوقفنا أمام جلال القرآن وروعته مبهورين، فما ذكرناه قليل من كثير من روائع الفن البلاغي الذي تزخر به كل آية بل كل جملة من تراكيب القرآن الكريم.

**الفصل الرابع**

**خصائص النظم في سورة الرعد وغيرها من السور**

**الفصل الرابع**

**خصائص النظم في سورة الرعد وغيرها من السور**

**- 1 -**

درسنا في الفصلين السابقين على وجه التفصيل محاسن النظم في سورة الرعد، وقد عالجنا فيهما عناصر النظم التي نستطيع إجمالها فيما يلي:

فقد درسنا الألفاظ المفردة المختارة، والتراكيب المحكمة، وبناء الفواصل كما درسنا الإغراض والمقاصد، والمعاني والصور في هذه السورة الكريمة وكذلك وجوه التلاؤم والمطابقة بين المعاني وما تقتضيه من الألفاظ والعبارات، وبذلنا جهدنا في الإبانة عن مواضع الجمال وأسراره، وتأثيره في الباب السامعين والقارئين.

وقد بان من هذه الدراسة. ما يمتاز به النظم القرآني الذي يعد أروع مثال وأبرع نمط تمثلت فيه أرقى خصائص البيان العربي الذي جاء الكتاب الكريم في أروع صورة منه. مصدقا ًلقول الله عز وجل ((بلسان عربي مبين)).

\* \* \* \*

وإذا كنا قد خصصنا سورة الرعد بهذه الدراسة المفصلة التي بذلنا فيها بتوفيق الله ما وسعنا من الجهد. فإن في كتاب الله تعالى من عجائب الأسرار ما لا يستطيع بشر إدراك كنهها واستقصاءها... وإذا كنا قد فعلنا ذلك وآثرنا سورة الرعد بهذه الدراسة المتأنية، فلقد كان ذلك مثالا لروائع نظم القرآن في كافة آياته وسوره.

ومن رأينا أن الكتاب الكريم متساو في هذه الروعة، فكله أمثلة للحسن ومعرض للجمال، ورعاية للتصوير التام للبلاغة العربية، وهي مطابقة الكلام لمقتضيات الأحوال، ولا نرى ما يراه بعض العلماء الذين يقولون: إن هناك تفاوتاً في النظم القرآني، وأن بعضه يفضل بعضاً في الفصاحة. أي أن بعضه أفصح من بعض.

فقد ذهب إلى القول بمثل هذا جماعة من العلماء. منهم ((الخطابي)) في رسالته (بيان إعجاز القرآن) الذي يرى أن مراتب الكلام ودرجاته في البلاغة ثلاث: الأولى على طبقات الكلام، والثانية أوسطه وأقصده والثالثة أدناه وأقربه.... وقد حازت بلاغة القرآن من كل قسم حصة، وأخذت من كل نوع شعبة... فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين وصفتي الفخامة والعذوبة))([[157]](#footnote-157)).

وكلام الخطابي هنا يدعو إلى النظر والتثبت، إذ يوهم بالتفاضل على حد قوله:((فأخذت بلاغة القرآن من كل قسم حصة، ومن كل نوع شعبة)) ويفهم من كلامه هذا، أن بعضاً من القرآن الكريم في الدرجة العليا من البلاغة وبعضاً منه في الدرجة الوسطى، وأن منه ما هو دون هاتين الدرجتين.

والذي نراه: أن بلاغة القرآن في الدرجة العليا، ولا امتزاج في آياته وكافة سوره بشيء من هذه الأوصاف التي قررها دون شيء، ولو استقر رأي الخطابي على أن القرآن إنما هو في الدرجة العليا من البلاغة لما حصل فيما قاله ما يوهم بالتفاوت، ألم يقل بما ذهب إليه الرماني في رسالته ((النكت)) بأن درجات البلاغة ثلاث: منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان منها في أعلى طبقة فهو معجز، وهو القرآن!

\* \* \* \*

وممن قال بالتفاصيل في بلاغة القرآن وفصاحته ((ابن سنان الخفاجي)) إذ يقول:((إن زيادة بعض القرآن على بعض في الفصاحة أمر ظاهر لا يخفي على من علق بطرف هذه الصناعة، وشدا شيئاً يسيرا. وما زال الناس يفردون مواضع من القرآن يعجبون منها في البلاغة، وحسن التأليف كقوله تعالى:﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾...)) الآية. وقوله تعالى:﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ الآية. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾** وقوله عز وجل:﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾ الآية، وقوله تعالى:﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يا أولي الألباب﴾.

وأمثال هذا ونظائره كثيرة. فلو كانوا يذهبون إلى تساويه في الفصاحة لم يكن لإفرادهم هذه المواضع المعنية المخصوصة دون غيرها المعنى))([[158]](#footnote-158)).

عجيب أمر الخفاجي في هذا الاستدلال! إذ كيف يسلم أحد بتفاوت القرآن الكريم في الفصاحة لمجرد أن السابقين استدلوا على ذلك بهذه الآيات ونظائرها وخصوصاً دون غيرها بالمزية؟ هل كان في وسع الخفاجي الإحاطة بكل ما أثر عن السابقين من شواهد في دراساتهم القرآنية حتى يسوق هذا شاهداً على ما ذهب إليه.

إن الاستدلال على فصاحة القرآن كله، وتساويه فيها قار في ثنايا مؤلفاتهم، مستشهدين بهذه الآيات وغيرها من آي الذكر الحكيم، ثم إن ما ذهب إليه في هذا الاستدلال صريح باختلاف الآية القرآنية بل الآيات مبني ومعنى وحكماً. فكيف ذلك والله جل ثناؤه يقول:﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)﴾؟

وإذ يفرد الدارسون آيات معدودات من القرآن الكريم مأخوذين ببلاغتها، ومسحورين ببديع تأليفها، فليس معنى هذا الإعجاب أن غير هذه الآيات لم يقع من نفوسهم هذا الموقع، أو لم يجدوا فيه قوة الإعجاز التي وجدوها فيما مثلوا به.

ولكن الحقيقة أن ما أفردوه بالاستشهاد إنما كان نماذج لغيره من آيات الكتاب الكريم المساوية في الروعة والجمال.

والمألوف المعهود عند كل باحث ودارس أن يجتزئ بمثل هذه النماذج ليدل بالقليل على الكثير، إذ أن باحثاً ما لا يمكن أن يحصي كل ما يريد لأنه هنا وفي القرآن بالذات سيضطر إلى أن يكرر ويعيد، لأن الحكم واحد في جميع الأحوال والاستشهاد لا يقتضي الخصوصية، وذلك مألوف في كل علم وفي كل فن.

\* \* \* \*

ثم أن الاستشهاد يختلف باختلاف المستشهدين أو المحتجين، وباختلاف الموضوعات التي يستشهد عليها بآيات القرآن، فإن آيات الاستشهاد مفرقة في أنحاء المعرفة وآثارها فهنالك آيات استشهد بها في المسائل الفقهية، واستخراج الأحكام، وآيات استشهد بها على سلامة اللغة وصحة دلالتها، وهناك آيات استشهد بها على بلاغة القول، وفصاحة البيان، وهنالك آيات استشهد بها على صحيح الأخبار..... وهكذا تتعدد الشواهد، وتكثر الآيات التي يتأكد بها كل غرض من الأغراض التي وفاها الكتاب الكريم حقها.

\* \* \* \*

وفي العلماء من أشار إلى هذه المسألة، وكان رأيه مثل ما رأينا في عموم بلاغة القرآن وفصاحته، منهم ((الباقلاني)) الذي يقول:

((وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حد واحد في حسن النظم، وبديع التأليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنـزلة العليا، ولا إسفاف رفيه إلى الرتبة الدنيا)).

وإذا أردنا أن نطبق تلك المزية التي بينها الباقلاني - على حد عدد من الآيات لوجدنا كل آية بعينها تصلح لأن تكون شاهدا على ما ذكره من سمات حسن النظم والتساوي في براعة التأليف، ولكن لذلك موضعه من هذه الدراسة، فلنمض مع الباقلاني إذ يقول:((وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز في جميعها على حد واحد لا يختلف. وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحد تفاوتاً بيناً، ويختلف اختلافا ًكثيراً، ونظرناً القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة...))([[159]](#footnote-159)).

وما ذهب إليه الباقلاني وغيره صحيح لا يقبل الجدل، وإن كان هنالك تفاوت أو اختلاف فليس محله النظم أو التعبير القرآني. وإنما موطنه في الأغراض والمقاصد، لأن هذه الأغراض، وتلك المقاصد خضم زاخر في الكتاب الكريم الذي وصف أحوال النفس الإنسانية وبين نظام الحياة وقواعد الأدب والسلوك، وأصول الإيمان بالله سبحانه، وملائكته وكتبه ورسله وكرر أصناف الثواب وأنواع العقاب، إلى غير ذلك من الأغراض المختلفة التي لا تحاول إحصاءها في هذا المجال وإنما نكتفي بالإشارة إلى بعضها وذلك اختلاف طبيعي كالاختلاف الذي يكون بين عمل أدبي في الحكمة، وعمل أدبي آخر في الفخر أو الرثاء أو في الوصف. أو غير تلك الأغراض التي تعرض للأديب، ولله المثل الأعلى في كل شيء.

وفي جملة من فند رأي القائلين بالتفاصيل ورده ((شمس الدين الخويبي)) الذي نقل خلاصة رأيه ((بدر الدين الزركشي)) في كتاب ((البرهان في علم القرآن)) وأورد ما قاله: من أن بعض العلماء جوز أن يقال: بعض كلام الله أبلغ من بعض. وذلك لقصور نظر من ذهب إلى مثل هذا، وينبغي أن يعلم أن معنى قوله القائل: هذا الكلام أبلغ من هذا الكلام. أن هذا في موضعه له حسن ولطف، وذاك في موضعه له حسن ولطف، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذاك في موضعه، فإن من قال: إن ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** **(1)**﴾ أبلغ من ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾ يجعل المقابلة بين ذكر الله، وذكر أبي لهب وبين التوحيد، والدعاء على الكافرين، وذلك غير صحيح. بل ينبغي أن يقال:﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾ دعاء عليه بالخسران، فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه؟ وكذلك ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)**﴾ لا توجد عبارة تدل على الوحدانية أبلغ منها، فالعالم إذا نظر إلى ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** **(1)﴾** في باب الدعاء والخسران، ونظر إلى:﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)**﴾ في باب التوحيد، لا يمكنه أن يقول: أحدهما أبلغ من الآخر، وهذا القيد يغفل عند بعض من لا يكون عنده علم البيان))([[160]](#footnote-160)).

**- 2 -**

وإذ قد اتضح لنا عموم بلاغة القرآن، وأن لا تفاوت بين آية في درجة البلاغة والفصاحة، وبديع النظم والتأليف، فما خصائص النظم في سورة الرعد؟ ذلك ما ستعرض له في هذا المقام.

لقد تكلمنا عن هيكل سورة الرعد، وقلنا: إن هذه السورة كغيرها من سور القرآن في بناء هيكلها فهو من افتتاح، وموضوع، وخاتمة وإذا نظرنا في فاتحتها وجدنا أربعة أحرف: هي ((الألف)) و((اللام)) و((الميم)) و((الراء)) وقد مرت الإشارة إلى اجتهادات المجتهد في تفسير هذه الحروف.

والذي يلفت النظر هنا ((تضمنها)) إشارة انتباه السامع لن ما سيلقي إليه ويمكن القول: بأن من خصائص نظم سورة الرعد ما تضمنته فاتحتها من إثارة انتباه السامع، وتهيئة ذهن القارئ، وتحقيق التناسب بين هذه الحروف وبين الكثير من آيات السورة، وما اتسمت به توازن في المخرج بين القرب والبعد والتوسط.

أما عن خصائص النظم في موضوع هذه السورة فيحسن أن نرجئ الحديث عنه، لاشتماله على الإطار والمضمون، وهذا يتطلب شيئاً من البسط يحسن الإتيان به بعد الحديث عن الخاتمة لصلتها بالفاتحة.

إن من خصائص نظم القرآن الكريم يجيء خواتم سورة كفواتحها بجماع الحسن، لأن فاتحة السورة أول ما يقرع الأذن، ويثير الانتباه وخاتمة السورة آخر ما يقرع السمع ويحسم الموقف.

ولذا جاءت خاتمة سورة الرعد متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقي معه تشوف إلى شيء سيذكر بعد، ويمكن القول بأن خصائص نظم الخاتم هنا:

1 - تميزها بأسلوب الحوار كما في قوله:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾**.

2 - التقابل العجيب بين انتصار فاتحة السورة لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبين دحض إنكار الكفار لها في الخاتمة.

3 - الأسلوب المقنع من غير ما جدل أو مشاقة وذلك بين من خلال قول الله تعالى:﴿**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾**.

4 - ذلك النغم الممتد في جرس آخر كلمة من هذه الخاتمة الرائعة والتي هي لفظة ((الكتاب)) من قوله تعالى:﴿**وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (43)**﴾ وينشأ عن هذا تأثير روحي يبقي النفس مرتبطة بهذا القرآن وبمن أنـزله، وبمن نـزل عليه.

ولنأخذ الآن في بيان خصائص النظم في عنصر الثالث لهيكل سورة الرعد وهو موضوعها.

إن للبنات الأولى التي تكونت منها تلك السورة هي الحروف والألفاظ فالتراكيب، أو الآيات، لأن ما نعنيه بالآية القرآنية من السورة هنا هو ما نعنيه بالجملة المركبة على وجه التقريب. إذا تقرر ذلك فلا بد من مراعاة عنصر آخر هام ذلك هو المعنى. فتكون جزئيات النظم في هذه السورة وغيرها من السورة أربعة أشياء:

أولها: الحروف.

ثانيها: الألفاظ.

ثالثها: التراكيب.

رابعها: المعاني.

ويتبع تلك الجزئيات نظام الفاصلة والتلاؤم بن أجزاء النظم فيها، والأمثال، والتشبيهات، وأثر ذلك في تلاحم الأجزاء([[161]](#footnote-161)).

\* \* \* \*

والإطار العام لسورة الرعد ينتظم ثلاثاً وأربعين آية، وقيل ينتظم خمساً وأربعين آية في ثمانمائة وخمس وخمسين كلمة في ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف))([[162]](#footnote-162)).

وليس الباحث مهما بلغ من قوة الاستنباط أن يدعي الإحاطة بخصائص النظم كله في هذا الإطار، ولا أن يحكم قائلا: إن هذه هي خصائص النظم القرآني في تلك السورة، أو غيرها من السور، لأن كلام الله سبحانه لا يقف عند حد في بلاغته، وفصاحته، وإعجازه.

وحسبي أن أشير إلى تلك الخصائص قدر الطاقة، وإن كان الحديث يغري بالإفاضة، وما يستعذب التكرار في كلام كما يستعذب في كلام الله تعالى.

**خصائص نظم الحروف والألفاظ**

إذا أنت تلوت سورة الرعد كلها أو بعضها، ألبيت لفيفا ًمن الحروف المتسمة باللين، والتقارب في المخرج مما يشكل إيحاء صوتياً يبقي الجرس معه رتيباً لا يمل. ولست بواجد في نظم حروف هذه السورة. وكذلك غيرها من السور. حرفاً نابياً يكد اللسان، بل تلمس ظاهر التناسب، والمشاركة بين الحروف جميعها في عموم الآيات. أما ألفاظ تلك السورة الكريمة: فمن خصائص نظمها التنويع في اللفظة المفردة من اسم إلى فعل، ولكل موضعه وصلته بسابقه. ولاحقه اقرأ قوله تعالى:﴿**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**﴾ وقوله تعالى:﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾**.

فهناك مشهدان متشابهان من غير شك فكلاهما علويان، والمقام واحد في الجملة لاستدعائهما الإيمان بالله الواحد الأحد ((ولكن الأسلوب والأسلوب والألفاظ في الأول في الثاني لا يستطيع أحد أن يزعم أنها ألفاظ متفقة أو متحدة مكررة))([[163]](#footnote-163)).

ولعل من أبرز خصائص نظم الألفاظ في سورة الرعد. استخدام الألفاظ الموحية المعبرة ذات التناسق العجيب ووضوح الدلالة على المعنى المراد كما مر معنا في ((أسر)) ((وجهر)) ومستخف وسارب، وسراً وعلانية ويذهب جفاء، ويمكث في الأرض.

وتخير الألفاظ ذات الإيحاء والتعبير بالصيغ الفعلية المختلفة من أبرز الخصائص في تلك السورة. خذ مثلا قوله تعالى:﴿**الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (20) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (21)**﴾ وقوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ انظر كم صيغة للفعل المضارع في الآية الأولى، يقابلها عدد من صيغ الفعل الماضي في الآية الثانية، نظم وإبداع عجيب.

وإن لتوالي المد والغنة واختلاف الحركات والسكنات في حروف الألفاظ لمزية في نظم السورة مما يعطي كل لفظ هيئة تختص بها حروفها: فحرف ينقر وحرف يصفر وثالث يهمس وآخر ذو مد يحدث نغماً وترنيماً. كما مر معنا في لفظ السيئة والحسنة، والناس، والمثلات، والعقاب وغيرهن.

\* \* \* \*

ومن أبرز خصائص النظم في سورة الرعد فيما يتعلق بتراكيبها تلك الخصائص التالية:

1 - الترابط المحكم بين الآيات.

2 - التناسق البديع بين كل جملة وأختها.

3 - التلاؤم بين الآيات والجمل من حيث المعنى.

4 - تنوع آيات السورة، واختلافها بين الطول والقصر.

ويكفي أن نسوق شاهداً واحداً لإحدى هذه الخصائص، إذ قد فصلنا القول في نظم سورة الرعد الفصلين السابقين.

فمثلا عن الترابط المحكم بين الآيات نلحظ تلك الخاصية في قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾.

هذه الآية نربو جملها على أحد عشرة جملة، فلنتبين وجوه الترابط بين بعض هذه الجمل.

لما قال سبحانه:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** تبين أن الجملة هنا توحي بسؤال ولا بد له من جواب، ولذا قال عقبها مباشرة ﴿**قُلِ اللَّهُ**﴾ وفي هذا إفحام للخصم من أول وهلة لإقراره بأن رب السماوات والأرض هو الله، ولكن نكرانه محض سفه وعناد يستلزم تقريعه بهذا الجواب المباشر، وأنه لا محل لجدال يسبق هذا الجواب.

وبعد جملة الجواب المفحم يجيء السياق بما ينكر على المشركين فعلتهم حيث يقرون في بواطنهم بألوهية الله لكنهم يشركون معه غيره. لذا جاء الإنكار ﴿**أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾** ولأمر ما جاءت لفظة أولياء منكرة ففي ذلك تحقير لأولياء المشركين تجيء الجمل بعده في سرد لصفات الأولياء وأنها جمادات لا تنفع ولا تضر بل لا تنفع نفسها ولا نرد الضر كنها، نعم ﴿**لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾**.

ويهيمن السياق على جمل الآية بهذه الخاتمة المهيمنة ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (16)**﴾.

وأما عن خاصية التلاؤم في التركيب فقد سبق أن أشرنا إليه بشيء من التفصيل، ولعل في ذكره هناك ما يغني عن تكراره.

وعن تنوع آيات السورة بين الطول والقصر، فتلك ظاهرة تتميز بها كافة سور القرآن الكريم على حسب المعنى الذي تتحدث عنه السورة وتسوقه الآية، ولعل من أقصر آيات سورة الرعد قوله تعالى:﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9)**﴾ وقوله تعالى:﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ ومن طوالها قول تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**، وقوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17**﴾ إلى غير ذلك من الآيات الأخرى في السورة الكريمة اللواتي على غرار ما مر ذكره طولا وقصراً.

**- 3 -**

ومن خلال تلك الألفاظ والتراكيب التي تحدثنا عن بعض خصائص نظمها، ومن خلال كافة ألفاظ السورة وتراكيبها، نلمح المعاني البديعة الشريفة التي ليس فيها معنى غريب، وإنما هي واضحة وضوح موضوعها الذي تهدف إليه وهو غرس عقيدة التوحيد.

وهذه المعاني جاءت متناسقة مرصوفة رصف الألفاظ والتراكيب وتجلت في أجمل معرض وأحلى بيان وشاهد ذلك قول الله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10)**﴾.

المعنى في الآيات الثلاث عن مد إحاطة علم الله بما يجري في هذا الكون الفسيح ظاهراً كان أم خفياً، وقد جاءت معاني الآيات متناسقة يأخذ كل معنى بحجز الآخر بين الإجمال والتفصيل. نلمس ذلك من خلال قوله تعالى:﴿**اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾**)) فهنا معنى مجمل يأتي بعده معنى مفصل من خلال قول الله بعده ﴿**وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾** ثم يأتي بعد ذلك معنى مجمل عن عظيم قدرة الله، وواسع علمه المحيط بكل شيء. فيقول جل ثناؤه:﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8)**﴾.

ثم هذا الشيء ما كنه حقيقته، وما مدي ظهوره بين الناس؟ إنه بين خفي مستور، وظاهر مشاهد، وعلم الله محيط به في الحالين. فهو سبحانه لا غيره ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾**.

ثم لما فصلت الآيات وأجملت تلك المعاني، زادت هذا الإجمال وهذا التفصيل وضوحاً فقال سبحانه:﴿**سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾**.

مثل تلك الآيات من القرآن كثير من ذلك قوله تعالى في سورة أخرى:﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ وقوله تعالى:((﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾)).

وتلك آية من السورة الكريمة تتضمن معنى الوعد والوعيد على حد قوله تعالى:﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (6)**﴾. انظر كيف تتلاحم المعاني، وتتصل على الرغم من طول سياق الآية فبعد أن قال سبحانه:﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ**﴾ جاء الوعيد بقوله:﴿**وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾** وعند ذكر الحسنة يأتي قوله:﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾**. وفي معرض ذكر السيئة يأتي قوله:﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ تقابل بديع في المبنى والمعنى.

ونظير تلك المعاني في النسج والإبداع قول الله تعالى في سورة آخر:﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50)﴾ وقوله تعالى:﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53)﴾ إلى غير ذلك من الآيات الأخرى في سور أخر.

\* \* \* \*

**خصائص نظم الفواصل القرآنية في السورة**

مر معنا في مبحث الفاصلة القرآنية في سورة الرعد إحصاء للحروف التي بنيت عليها فواصلها ومن خلال هذا الإحصاء يمكن أن نجمل خصائص نظم الفواصل فيما يلي:

1 - التغاير والتنويع في مبنى الفاصلة كما مر معنا في فاصلة. يتفكرون. يعقلون. خالدون. وبعد هذا النسق تأتي فاصلة مبنية على حرف آخر كما ذكرنا في فاصلة: العقاب - هاد - الكتاب - مآب - وغير ذلك كثير في فواصل السورة.

وفي هذا التنويع تمكين من الترنيم الذي يعين القارئ، ويشوق السامع، ويدفع عنهما السأم والملل، الذي قد تؤدي إليه الرتابة الملتزمة، ولذا جاءت فواصل السورة الكريمة، وغيرها مما يشبهها من السور على أعذب المقاطع وأسهل المواقف.

2 - ومن خصائص نظم الفواصل في هذه السورة حذف أصلي من آخر بعض الكلمات، كما مر معنا في هاد. ووال. وواق. فإن الأصل. هادي. ووالي. وواقي.

\* \* \* \*

3 - واختلاف مبني الفاصلتين في موضعين، والمحدث عنه واحد لكنته لطيفة من سمات خصائص النظم في فاصلة سورة الرعد من ذلك قول الله تعالى:﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ (29)﴾.

فالمحدث عنه المؤمنون وما هم عليه من ثبات واطمئنان في الحياة الدنيا، وما أعد لهم في الآخرة من جزاء. وقد بنيت الفاصلة الأولى على حرف الواو يعقبها حرف الباء الساكن للوقف. أيضاً، لكن الجرس الصوتي في الأولى مديد في انقطاع سريع، وفي الثانية مديد من غير انقطاع، وفي ذلك تعبير عن نعيم الدنيا وأن مآله الانقطاع والانتهاء، وتعبير عن نعيم الآخرة الذي لا ينقطع ولا يزول.

\* \* \* \*

**خصائص نظم الأمثال والتشبيهات في السورة**

وقد حفلت سورة الرعد بطائفة من الأمثال والتشبيهات الرائعة التي كان من أبرز خصائص نظمها: اشتمالها على عناصر قوية من ظواهر الكون والحياة مما يمكن لها البقاء والاستمرار مع تماسك التصوير في إطار التشبيه والمثل.

ولظاهرة تخير الألفاظ لتأليف هذين اللونين سمة بارزة مما جعلهما يحدثان التأثير في العواطف، وترغيباً وترهيباً.

ولجريان الأمثال والتشبيهات في السورة على طرف من الإيجاز الإطناب خاصية في النظم على حسب استدعاء المقام، وشاهد ذلك قول الله تعالى:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾ ففي الآية هنا تشبيه تمثيلي انتزع وجه الشبه فهي من المتعدد، وطال إطاره لأجل اكتمال الصورة ووفائها بالمعنى، لكن اقرأ قوله تعالى:﴿**خَلَقُوا كَخَلْقِهِ**﴾ ففي الآية تشبيه سيق لمجرد المماثلة وكفى في إطاره ثلاث ألفاظ هي الفعل ﴿**خلق**﴾ والاسم ﴿**خلق**﴾ وكاف التشبيه.

أما عن الأمثال فالإيجاز ظاهر في قوله تعالى:﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾** الآية، والإطناب ظاهر في قوله تعالى:﴿**أَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾** الآية.

\* \* \* \*

هذه بعض خصائص النظم القرآني في سورة الرعد وما فات على المحصل أكثر ويمكن تلخيص هذه الخصائص فيما يلي:

1 - تحقيق التناسب بين افتتاح السورة وبين أكثر آياتها.

2 - التوازن في مخارج الحروف بين القرب والبعد والتوسط.

3 - أسلوب الحوار في أكثر آيات السورة، واعتماد الخاتمة عليه.

4 - التناسب في المعنى بين الافتتاح والخاتمة.

5 - التغاير في الألفاظ والتراكيب.

6 - استخدام الألفاظ المعبرة الموحية ذات التناسق العجيب بين المدلول والمعنى.

7 - التكرار المفيد والتناسق بين الألفاظ.

8 - ظاهرة التقديم والتأخير والحذف وفقاً لمقتضيات المعاني.

9 - الدقة في اختيار الألفاظ، والتعبير بالصيغ الفعلية المختلفة.

10 - التناسب الصوتي في مقاطع الألفاظ والتراكيب.

11 - الترابط المحكم بين الآيات والجمل في داخلها.

12 - التناسق البديع بين كل جملة وأخرى.

13 - ظاهرة التلاؤم في الألفاظ والمعاني وفي جو السورة العام.

14 - تنويع الآيات، واختلاف إطارها بين الطول والقصر.

15 - وضوح المعاني، وتناسقها بين الإجمال والتفصيل.

16 - تلاحم معاني مع طول السياق وقصره.

17 –كثرة المقابلات الفنية بين الألفاظ والمعاني.

18 - التنويع في مبني الفاصلة القرآنية في السورة.

19 - حذف أواخر الكلمات في مقاطع بعض الفواصل.

20 - اختلاف مبني الفاصلتين في موضعين والمحدث عنه واحد.

21 - رتابة الجرس الصوتي في غالب الفواصل.

22 - اشتمال السورة على الكثير من الأمثال، والتشبيهات وأثر ذلك في تلاحم أجزائها.

23 - أسلوب الإيجاز والإطناب على حسب ما يستدعي المقام.

24 - دقة التصوير في أسلوب الحقيقة والمجاز.

25 - تنوع الأسلوب في أداء المعاني مرة بطريق الاستعارة ومرة بطريق التشبيه، أي مرة بالحقيقة وأخرى بالمجاز.

**خصائص النظم القرآني بين سورة الرعد وغيرها من السور**

لقد سبقت الإشارة في أول هذا الفصل إلى خصائص النظم في سورة الرعد، وفي هذا المبحث سنتعرض لخصائص النظم بين تلك السورة وغيرها من سور القرآن، لا على سبيل موازنة أو مفاضلة، فمثل هذا الصنيع مما لا يجدي الباحث، فالقرآن كله آية في السمو، والإبداع في النظم، وقد أشرنا إلى أقوال بعض القائلين بالتفاوت في بلاغة القرآن وفصاحته وبينا فساد ما ذهبوا إليه.

فلنبحث الآن في خصائص نظم القرآن الكريم مشيرين إلى الأوجه التي تتقارب في النظم بين سورة الرعد، وغيرها من الآيات في سور أخرى من حيث الإطار والمضمون على سبيل المثال لا الحصر.

\* \* \* \*

أما موضوع سورة الرعد، والإطار الذي ينتظم هذا الموضوع فكثيرة تلك السور القرآنية التي تشبهها في ذلك. فهذه سورة فاطر مثلا عدد آياتها خمس وأربعون آية، ومن موضوعاتها إثبات عقيدة التوحيد وإقامة الأدلة على وحدانية الله سبحانه وعظيم قدرته، والعودة إلى عبادة الله، والإيمان برسالة محمد، يتضح ذلك من خلال الكثير من آياتها التي منها قول الله تعالى:

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)**﴾[[164]](#footnote-164)\* ففي الآية هنا دعوة إلى الإيمان بألوهية الله في أسمي معاني الدعوة الخالصة، ويأتي عقب هذه الآية قول الله تعالى:﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ** **(4)**﴾[[165]](#footnote-165)\* تدعو الآية هنا إلى إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وتهدئة نفسه بأنه سبق في الأمم قبل أمته من كب الرسل، فلا تذهب نفسك حسرات على من كذب ولم يؤمن. ويقارب تلك الآية في الإطار والمضمون قول الله تعالى في سورة الرعد:﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (32)**﴾.

وقد تطول بعض السور التي تشبه سورة الرعد في الموضوع ويقصر البعض الآخر. فمما طال في السياق مثلا سورة يوسف إذ آياتها أحد عشرة آية ومائة ((111)) ومما عالج موضوع العقيدة مع القصر في السياق غالب سور المفصل من ذلك ((سورة الكوثر)) و((الإخلاص)) فمجموع آياتها أربع آيات فقط، والكوثر ثلاث، والسور التي تتراوح بين الطول والقصر كسورة الرعد كثيرة، من ذلك أيضاً سورة الكهف ومريم وإبراهيم، وغيرهن.

وسبق أن أشرنا إلى سمات الحروف في ألفاظ سورة الرعد من حيث المخارج، والأصوات، ونظير خصائص نظم هذه الحروف آيات كثيرة تتسم حروف ألفاظها بالهمس والجهر والترقيق والتفخيم، إليك قول الله تعالى في سورة ((الفجر)):﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ** **(27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً** **(28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي** **(29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)**﴾.

تأمل ما ضمته تلك الآية من الحروف، وما تميزت به من صفات المد والتفخيم والترقيق، والغنات والحركات والسكنات فهناك من المد ((يا - ها - جعي - إلى - را - خلي - في - عبا - دي - خلي - تي -)) ومن التفخيم تكل الحروف المشددة ((أيتها - النفس - المطمئنة - ربك - راضية مرضية - وكذلك ما ضمته من حركات الكسر مما يشكل نغما ًمديد الصوت كالكسر في العين من ارجعي واللام في ادخلي - والدال في عبادي - والتاء في جنتي))([[166]](#footnote-166)).

ومما نلحظه في نظم القرآن الكريم ظاهرة أسلوب الحوار، مما يساعد على نشاط السامع والقارئ ولفت نظرهما إلى ما يتلى، فمن سورة الرعد اقرأ قوله تعالى:﴿**قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾** واقرأ أيضاً خاتمتها تحس بما للأسلوب الحواري من روعة في الأداء وجودة النظم، وأضيف إلى ذلك قوله تعالى منها:﴿**وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾** ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنـزلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ﴾**، ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾**، ﴿**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾**.

ولكن هل هذه الخصوصية لا توجد إلا في سورة الرعد؟ لا، فليس الأمر كذلك، وإنما هناك سور كثيرة نهجت هذا النهج في التعبير. إليك قوله تعالى في سورة الكهف:﴿**وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ** مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (34) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (35)﴾... ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37)﴾ ومن الأسلوب الحواري في هذه السورة قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾.... ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آَتِنَا غَدَاءَنَا﴾... ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾... ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67)﴾.

ويمضي السياق في هذا الحوار الحركي المتكرر حتى قوله تعالى:﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾، ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ﴾... ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي﴾ ومن بين الأمثلة البديعة لهذه الخاصية، ذلك الأسلوب الحواري سورة سبأ، عن حال المستكبرين، والمستضعفين، بياناً أن الله تعالى لم يرض في سننه لأحد من عباده بذل الاستضعاف، ومهانة الاستسلام للباطل وأهله مهما علوا واستكبروا في الأرض... يقول تعالى:﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (31)﴾... ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (32) وَقَالَ الَّذِينَاسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾.

هذه المحاورات تختلف اختلاف يدفع عنها سمة التكرار، ويتشاجع فيها المستضعفون فيلقون باللوم والمسؤولية في وجه المستكبرين فيقول جل ثناؤه في سورة الأحزاب:﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا** **(67) رَبَّنَا آَتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا** **(68)**﴾. إنه أسلوب حواري بديع تستشف من خلاله روائع النظم المحكوم بين الألفاظ والمعاني السامية التي أراد الله فيها أن لا يذل المستضعفون، ولا يطغي ويتخير المستكبرون([[167]](#footnote-167)).

وإذا أمعنت النظر في الأساليب القرآنية من حيث النظم وجدت التغاير في الألفاظ مع اتحاد المعنى. من ذلك قول الله تعالى:﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُول﴾ فإن لفظة ((رسول)) هنا بمعنى هاد مرسل من عند الله لدلالته الناس إلى ما ينفعهم في أولاهم وأخراهم، والحيلولة دون ما يضرهم مما نهى الله عنه.

ومثل تلك اللفظة تأتي مغايرة لهذه، من ذلك قوله تعالى في سورة الرعد:﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (7)**﴾ أي رسول.

وعند الكلام مثلا على شأن السماوات والأرض تقول الآيات من سورة الرعد ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾** الآية، وقوله تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾** الآية:

ويقول جل ثناؤه ((ق)):﴿**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾** إلى قوله تعالى:﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾** فلمعنى متحد في الآيات جميعها، لكن الألفاظ متغايرة متنوعة، فقد جاء التعبير في سورة الرعد برفع، ومد، وفي سورة ((ق)) بنينا - وزينا - ومددنا.

وعن شأن الجبال أتى التعبير ((بجعل ((في سورة الرعد، وبألقينا في سورة ((ق)) وهذا ليس للتصرف في فنون القول فحسب بل تصرف في المعاني على حسب قوالب الألفاظ حتى لا تشد لفظة عن معناها، ولا ينبو معنى عن لفظه.

والتغاير في مبنى الفواصل من خواص نظم القرآن الكريم، وتأتي هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع والقارئ، وللملائمة والاتساق، ومراعاة المعنى، فليس لمجرد الحلية اللفظية، وتتحقق تلك الظاهرة في كثير من السور.

إليك قوله تعالى في سورة مريم:﴿**ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** **(2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا** **(3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾** إلى قوله تعالى:﴿**قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾**.

ويستمر السياق على حرف واحد هو الألف إلى نهاية قوله تعالى:﴿**وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا** **(15)**﴾.

ثم تبدأ قصة مريم وعيسى عليه السلام على نفس النسق المنتهي بفاصلة الألف فيقول:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا** **(16)**﴾ إلى قوله سبحانه في شأن ابن مريم:﴿**وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا** **(33)**﴾.

وفجأة يتغير مبني الفاصلة فيأتي على نظام حرف آخر هو النون كما في قوله تعالى:﴿**ذَلِكَ عيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ** **(34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ إلى قوله تعالى:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** **(40)**﴾ وعندما نقف على نهاية كل فقرة من هذه الفقرات المشتركة في حرف الفاصلة نجد أن الفقرة وحدة مستقلة من حيث المعنى، فحرف الفاصلة قد روعي فيه المعنى والغرض.

ففي القصتين كان حرف الفاصلة الألف وقبلها ياء مشددة أو حرف آخر وعندما انتهى سرد حوادث القصة، وأريد تقرير الحكم والتعليق عليه، اختلف الحرف تبعاً لاختلاف الموضوع، لأن لهجة الحكم تقتضي أسلوباً ذا نغم رخيم غير نغم وأسلوب الاستعراض، وتقضي إيحاء صوتيا ًقوياً رصيناً بدل الصوت الرخي المسترسل الذي تنهجه القصة.

وتنويع حرف الفاصلة ليس للاستمرار في شكل التغاير، وتنغيم الصوت وإنما هو فوق تلك السمات لخدمة المعنى وتقريره، كما وضع لنا في سياق الآيات السالفة الذكر.

وبمجرد الانتهاء من إصدار الحكم، وإلقاء ذلك القرار عاد نظام الفاصلة في هذه السورة إلى طريقته الأولى، التي هي بتاء الفاصلة على حرف الألف، لأن السياق عاد إلى قصص جديد على حد قوله تعالى:﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا** **(41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾** إلى قوله تعالى:﴿**لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا** **(44)**﴾.

وشبيه بنظام هذه الفاصلة في سورة مريم، نظام الفاصلة في سورة الرعد. فهناك حرف الألف في أواخر كثيرة من الآيات، وفجأة يتغير نظام الفاصلة فتبني على حرف الباء كما قال تعالى:﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28)﴾.

ثم يعود السياق إلى الألف وبعدها حرف آخر وهكذا حتى نهاية السورة.

ومن عجيب نظم الفواصل ((مناسبتها لآياتها، يدرك ذلك كل من يملك أدنى ذوق باللغة، فقد روي ما يؤكد تلك الخاصية في نظم القرآن ويثبتها فإن أعرابياً سمع قارئاً يتلو قول الله تعالى:﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)﴾ ولم يكن الأعرابي يقرأ القرآن، فقال: إن هذا ليس بكلام الله لأن الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل، أنه إغراء عليه([[168]](#footnote-168)) وسمع آخر يقرأ قول الله تعالى:﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وختم الآية بـ:﴿اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾** فاعترض الأعرابي وقال: ما هذا بقرآن فانتبه القارئ فقرأ:﴿جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38)﴾ فقال: أما هذا فنعم، عز، فحكم، فقطع، وأخرج ابن أبي حاتم عن طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال:((أملى عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية)):﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ إلى قوله تعالى:﴿**خَلْقًا آَخَرَ﴾**.

﴿**خَلْقًا آَخَرَ﴾** قال معاذ بن جبل:﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال معاذ: ضحكت يا رسول الله. قال صلى الله عليه وسلم ((بها ختمت)).

فانظر إلى قوة الإحكام في صياغة الآيات، وكيف تستحوذ على العقول وتحرك المشاعر، وتشحذ الأوراق. حتى يدرك السامع بفطرته السليمة ختام الآية وأن من يخالفها في النسج و الصياغة ليس بقرآن.

ومن بديع نظم الفواصل، اختلاف الفاصلتين في موضوعين والمحدث عنه واحد لنكتة لطيفة، وقد سبق أن أشرنا إلى هذه الظاهرة وسقنا الأمثلة عليها من سورة الرعد وغيرها من السور، والذي يعنينا في هذا المقام وهو ما يأتي على العكس من ذلك. ((أي اتفاق الفاصلتين والمحدث عنه مختلف كقوله تعالى في سورة النور:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ**﴾ إلى قوله سبحانه:﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58)**﴾ ثم قال:﴿**وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** **(59**﴾ فقد اتفق مبني الفاصلتين في لفظة ((حكيم)). من الآيتين السابقتين.([[169]](#footnote-169))

ومما يستوقف الناظر في صياغة الآيتين هنا: أن جاء لفظ الآيات معرفاً في الأولى ((بأل)) وفي الثانية بضمير الغائب من قوله تعالى:﴿**يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ﴾** وهذا التنويع في الصياغة، ولعل مما دعا إليه قرب السياق بين الآيتين إذ لو جاءت لفظة ((الآيات)) معرفة بأل في الآيتين لحدث ما يذهب برونق التعبير. فتعالى الله الحكيم العليم.

\* \* \* \*

ومن بدائع نظم القرآن الكريم ظاهرة التكرار الذي يجعله البلاغيون من أقسام الإطناب. الذي هو محاسن الفصاحة خلافا ًلبعض من غلط وله فوائد كثيرة، منها التقرير فقد قيل:((الكلام إذا تكرر تقرر)) وقد نبه الله تعالى على السبب الذي لأجله كرر القصص، والإنذار في القرآن، إذ يقول تبارك اسمه:﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113)﴾ وفي معرض سياق نعم الله وتسخيرها لعباده، وتفضله بها عليهم اقرأ قوله تعالى:﴿**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** **(22)**﴾.

((وقف قليلا عند التعبير بكلمة ((لكم)) لقد ذكرت مرتين)) ﴿**جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾**، ﴿**وَأَنـزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾**.

ذلك لتكون أبلغ في التذكير بنعم الله الظاهرة في خلق السماء والأرض.. وعلى هذا النسق قوله تعالى في سورة النحل:﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾** وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ وقوله ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾** الآيات، والكلام من حيث الصحة يستقيم أمره مع حذف المكرر من هذه الجملة:﴿**وَجَعَلَ لَكُمْ﴾** والاكتفاء بحرف العطف الذي يدل عليها... ولكن بديع نظم القرآن لا يقف عند مجرد أن يكون الكلام صحيحاً من الناحية التركيبية، وإنما يترقى في الإعجاز بمراعاة هذه اللفتات التي لا يتيسر لصناع الكلام أن يوفقوا إليها بهذه الدقة البالغة([[170]](#footnote-170)).

ومن فوائد التأكيد، وزيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول، من ذلك قوله تعالى في سورة غافر:﴿**وَقَالَ الَّذِي آَمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ** **(38) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ**﴾.

فقد كرر في الآية لفظة ((النداء)) ولفظة ((قوم)) وفي ذلك تقرير للمعنى وتأكيد وتطرية لنشاط السامع.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ الآية([[171]](#footnote-171)). فقد كرر لفظة ((ثم)) ولفظ ((ربك)) وليس في هذا التكرار ما يعيب الأسلوب، أو يخدش المعنى. بل هناك سور كرر غالب إطارها أو كله، من ذلك سورة الرحمن:﴿**فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** وسورة المرسلات:﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾، ﴿**الْحَاقَّةُ** **(1) مَا الْحَاقَّةُ** **(2)**﴾، ﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2)**﴾** وخاصية التكرار نلحظها في ثنايا الرعد من قوله تعالى:﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنـزلَ عَلَيْهِ آَيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾**، ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنـزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ﴾ الآية.

ولتخير الحروف على غيرها - فضلا عن تخير الألفاظ - مزية في النظم عجيبة، من ذلك تخير حرف الجر ((في)) على غيره في سورة النساء، وتخير حرف الجر ((من)) على غيره في نفس السورة، والموضوع متشابه.

فالأول قول الله تعالى:﴿وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾.

والثاني قول الله تعالى:﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾.

وسر الاختيار الدال على بديع النظم ((أن كلا من هذين الحرفين قد دل دلالة تخالف ما يدل عليه الآخر ففي الآية الأولى المال لليتامى الذين لم يبلغوا الحلم، وإنما أضيف إلى المخاطبين في قوله:﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ ليلفت أنظارهم إلى العناية بهذا المال كما يعتني الموصي بماله الخاص وهذا من دقة لفت النظر في الأسلوب القرآني - ولا يجوز دفع المال إلى اليتيم الذي لم يبلغ الرشد حتى يختبره الموصي بإسناد بعض الأموال التجارية إليه، وغيرها فإن ظهر له حسن تصرف في المال دفعه إليه دون تباطؤ، وهذا ما أشارت إليه الآية التالية:﴿**وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا**﴾))([[172]](#footnote-172)).

ولكن أثناء الوصاية على المال، وقبل بلوغ النكاح من أين يأكل اليتيم؟ وما مصدر نفقاته؟ - هنا بيت القصيد - إذ يبرز للتأمل سر التعبير:﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾، ويستنبط العلماء من هذا التعبير أن الموصي، عليه أن يشغل هذا المال فيما يترجح ربحه، ونفعه، ويطعم ويكسو اليتيم من الربح لا من رأس المال، لأن ذلك يكون عرض للزوال الإتيان على الأصل، ولهذا السر اختير التعبير ((بفي)) دون ((من)).

\* \* \* \*

أما الآية الثانية فالمال لورثة الميت، وقد حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين، واستشرفت نفوسهم وتطلعت إلى هذا المال الذي كان بين ظهرانيهم وهم يعلمون أنه لا استحقاق لهم فيه بغرض مقدار.

ولقطع هذا التطلع، ولأن تطيب القلوب أمر الله سبحانه بأن يرزق هؤلاء من هذا المال على سبيل البر والسخاء، وكان التعبير الذي يؤدي هذا الغرض هو قوله:﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾ منه وهكذا يبرز لاختيار الحروف ما يبرز لاختيار الألفاظ من روعة في النظم والتأليف([[173]](#footnote-173)).

وللترابط المحكم بين الآيات والجمل روعة في إحكام النظم، فإن ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض أو لعدم تمام الأولى إلا بالثانية، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان.

وإما أن يظهر الارتباط، بل يسبق إلى الذهن أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، ومن هنا إما أن تكون الثانية معطوفة على الأولى وفائدة ذلك العطف ((جعلهما كالنظرين والشريكين([[174]](#footnote-174)))) على نحو ما درسه علماء البلاغة وضربوا له الأمثلة الكثيرة.

لكن الذي يلفت النظر أن الجملة تكون معطوفة على ما قبلها فيشكل وجه الارتباط من ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء:﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾** إلى أن يقول:﴿**وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾.

فقد يقال: أي ارتباط بين الإسراء وبين، ﴿**وَآَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾. ووجه الاتصال هنا: أن التقدير: أطلعنا محمدا ًصلى الله عليه وسلم على الغيب عياناً وأخبرناه بوقائع من سلف بياناً لتقوم أخباره على معجزته برهاناً أي سبحان الذي أطلعك على بعض آياته لتقصها ذكراً، وأخبرك بما جرى لموسى وقومه من الكرتين لتكون آيتهما قصة أخرى.

أو أنه أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه كما أسري بموسى من مصر حين خرج منها خائفاً يترقب ثم ذكر بعده:﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** **(3)**﴾ ليتذكر بنو إسرائيل نعمة الله عليهم قديماً حين نجاهم الله من الغرق، إذ لو لم ينج أباهم من أبناء نوح لما وجدوا وأخبرهم أن نوحاً كان عبداً شكوراً، وهم ذريته والولد سر أبيه فيجب أن يكونوا شاكرين كأبيهم.

\* \* \* \*

تأمل كيف أثنى الله على نوح، وكيف لاقت صفته بالفاصلة، وثم النظم بها مع خروجها مخرج المرور عن الكلام الأول إلى ذكره ومدحه بشكره. وأعجب لهذه التدرج العجيب في الموعظة العظيمة من قوله تعالى:﴿**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**﴾، ولم ينقطع بذلك نظام الجمل إلى أن خرج السياق إلى قوله تعالى:﴿**عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾**.

وتلك خاصية من أنواع الارتباط نلحظها في الآية الكريمة من سورة الرعد هي قوله تعالى:﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ﴾** فقد يقال: أي ارتباط بين صلب الآية من قوله تعالى، وبين قوله تعالى بعده، ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾**؟.

ووجه العطف على التقديرين واضح، أما الأول فالمعنى أتترك عبادة من هو قائم على كل نفس، ولم يكف الترك حتى جعلوا له شركاء؟ وأما الثاني فالمعنى: إذا انتهت المساواة بينهما فكيف تجعلون لغير المساوي حكم المساوي؟))([[175]](#footnote-175)).

والشواهد على تلك الخاصية كثيرة لم نأت على شيء منها سوى ما ذكرنا منعاً للاستطراد. والتكرار. ففي كتاب الله تعالى من عجائب أسرار النظم وبدائعه ما لا يحصي له عد.

\* \* \* \*

وما مر ذكره من الخصائص ما هو الملامح جزئية يتسم بها النظم القرآني في سورة الرعد وغيرها، وهذه الملامح تنوح بها لفظة مفردة، أو جملة مركبة في ثنايا سور القرآن الكريم، أو حرف أوثر التعبير به على غيره.

وإن أردنا الإلمام بخصائص النظم القرآني على وجه العموم ألفينا خصائص للنظم عجيبة تجل عن الحصر. منها:

((أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه - خارج عن المعهود من نظام كلام البشر، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد([[176]](#footnote-176)))).

\* \* \* \*

وأن نظمه على كثرة سوره وطولها وقصرها قد تميز بتناسب في الفصاحة على ما وصفه الله به إذ يقول تعالى:﴿**اللَّهُ نـزلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾**([[177]](#footnote-177)) وقوله تعالى:﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** **(82)**﴾([[178]](#footnote-178)) أما كلام الآدمي ن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال.

وهناك خاصية في النظم عجيبة يتميز بها أسلوب القرآن الكريم. وهي أن هذا الكتاب المبين، على اختلاف فنونه، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة، والطرق المختلفة، يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب والمتنافر في الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف.

\* \* \* \*

ولكتاب الله تعالى ميزة في حسن الرصف، وجودة التأليف. يدرك هذه الميزة كل من يملك أدنى ذوق يحتكم إليه في حسن الأسلوب وقوته، ووضوحه. وجماله. فإذا سمع أحد آيات الله تتلي في بيت من بيوت الله، أو في منتدى قوم، أو على قارعة طريق أحسن من أعماقه أن هذا الكلام الذي يسمعه ما هو إلا قرآن عظيم، وإذا فبديع تأليفه يميزه على غيره من كل كلام مسموعاً كان أو مكتوباً، وشاهد تلك الخصوصية شهادة أعدائه الألداء من قريش. كما ورد في قصة الوليد بن المغيرة التي أفادت أنه لم يملك إلا أن يقول:((إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وأنه ليعلو وما يعلى)) ولا أرى داعيا ًلاستعراض مثل تلك المواقف التي حدثت بين ظهراني السادة من قريش، سواء ممن آمن، أو ممن أعرض.

ومن خواص نظم القرآن أن تذكر منه الكلمة في تضاعيف كلام، أو تقذف ما بين شعر فتأخذها الأسماع، وتتشوف إليها النفوس، ويرى وجه رونقها بادياً غامراً سائر ما تقرن به كالدرة التي ترى في سلك من خرز، وكالياقوتة في واسطة العقد.

وتكون غرة جمعه، والنادي على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه وجماله واعتراضه في حسنه ومائه.

ومن أروع خصائص النظم القرآني أنه سهل سبيله فهو خارج عن الوحشي المنكر، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريباً إلى الإفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المعزي منه عبارته إلى النفس وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول غير المطمع مع قربه في نفسه ولا موهم مع دنوه في موقعه أن يقدر عليه، أويظفر به([[179]](#footnote-179)))).

((ونظم القرآن لا يلتزم السجع فقد نجد سوراً قصيرة مسجوعة، وقد نجد صحفاً من السور الطوال كذلك، ولكن هذه الظاهرة لا تطرد فيه، فكثيراً ما ينتقل من السجع إلى الكلام المرسل([[180]](#footnote-180)))).

ومما يمتاز به النظم والأسلوب في القرآن الكريم، أن الذي ينقسم عليه الخطاب من البسط والاقتصار، والجمع والتفريق، والاستعارة والتصريح والتجاوز والتحقيق، ونح ذلك من الوجوه التي توجد في كلام الناس موجودة في القرآن، وكل ذلك ما يتجاوز حدود كلام البشر المعتاد في الفصاحة، والبلاغة، والإبداع([[181]](#footnote-181)).

فانظر مثلا إلى بديع التشبيهات، والتمثيلات، وما حققته من الأغراض في قوله تعالى:﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (5)**﴾ فقد يتراءى للناظر في صورة هذا المثل ((أنه يكفي في التشبيه أن يقال مثلهم كمثل الحمار الذي لا يعقل، ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقاً والتحاماً حتى يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة فلم ينتفعوا بما فيها وبين الحمار يحمل أسفار العلم، ولا يدري مما ضمته شيئاً، فتمام الصورتين يأتي من هذا القيد الذي نظمها، وتقيد حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة)).

ولأجل أن يزداد الأمر وضوحاً هذه آيات قصار في إطارها يسوقها القرآن في شأن أبي جهل، وكل كافر،،ما يلقاه من عذاب يوم القيامة يقول الحق تبارك وتعالى:﴿**إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ** **(43) طَعَامُ الْأَثِيمِ** **(44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ** **(45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ** **(46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ** **(47) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ** **(48)**﴾ الآيات([[182]](#footnote-182)).

لقد اشتمل إطار هذه الآيات على أكثر من تشبيه، في صورة هول العذاب الذي يلقاه الكافر في جهنم، تعجز كل وسائل التعبير الأخرى عن بلوغ مدى هذه الصورة في التأثير القوي الذي لا يقف عند جوانب الحس، وإنما يتعداها إلى كل أبعاد النفس البشرية، فيزلزل قوى الشر فيها، وتقوم كلمة في هذه الآيات بأداء دورها في تحقيق الغرض، وإبداع هذه الصورة القرآنية المعجزة مع تناسق تام والتئام عجيب.

صحيح قد ندرك جانباً من هذه الأدوار لكل كلمة في الآيات، كذلك بمقدار ما نملك من وسائل نقد الكلمة، وحسن البصر بالأساليب، والذوق المثقف الذي به يمكن أن ندرك خفي الفرق بين التراكيب، ولكن على الرغم من ذلك تبقي جوانب من الإعجاز مستورة، ولآلي مكنونة يغوص من أجلها علماء جيل فيستخرجون منها على حسب ما تؤهلهم له قدراتهم المتفاوتة - بعضاً من بدائع النظم المحكم في القرآن الكريم.

الذي يهمنا في هذا المقام أن نقف على شيء من بدائع التشبيه الذي أوردته الآية في قوله تعالى:﴿**كَالْمُهْلِ**﴾، ﴿**كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46)﴾**.

أن أول ما يدعو إلى التأمل رصف تلك الألفاظ في إطار التشبيه:﴿**الزَّقُّومِ (43)**﴾، ﴿**الْأَثِيمِ (44)**﴾، ﴿**كَالْمُهْلِ**﴾، ﴿**يَغْلِي**﴾ ﴿**الْحَمِيمِ (46)**﴾، وإذا كان الزقوم من أخبث الشجر المر الذي يعرفه القوم من بين ما يعرفونه من نبت الصحراء، وتنفر منه نفوسهم، فإن النظم القرآني لا يقف عند حدود هذه المعرفة على ما فيها من قدر كبير عن بشاعة هذا الشجر المر، بل يضيف إليها عن طريق التصوير البياني ما يزيد النفس منها نفوراً، فاعتصار هذه الشجرة الخبيثة ومصلها المر:﴿**كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45)**﴾ أي كدر الزيت الأسود المغلي، أو كالمعدن المصهور المذاب يلقى به في البطون، فهي أوعيته، يا للهول!! وبالبشاعة المنظر، وقبل أن تفيق النفس من هول هذه الصورة، تثوب إلى رشدها تسلمها الآيات إلى صورة أخرى تدفع بها في طريق الخوف إلى مدى أبعد، فيأتي قوله تعالى:﴿**يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46)﴾**.

إن الآيات هنا تصور مشهداً مفزعاً مما سوف يحدث للكافر يوم القيامة، ولكننا مع بدائع هذا النظم المعجز، ومع ما اكتنف الآيات من سابق ولاحق نقف أمام أحداث تلك القوارع التي لم يزل يتفوه بها الزمن وتزول الفواصل بين ماض وحاضر ومستقبل، حتى ليخيل إلينا أن الآيات هنا تحكي أحداثاً وقعت بالفعل، ومضت عليها القرون، مع أنها في الواقع أمور مستقبلية صرف تحدث بعد أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد اخترقت بنا الآيات حجب الغيب البعيد،وطوت الآباد من الزمن طياً لنضع بين أيدينا مشاهد متعددة الألوان، ترد بأسلوب الماضي وكأنها تحكي لتؤخذ منه العبرة، وهذه الطريقة التي انفرد بها النظم القرآني تؤكد الثقة في وقوع هذه الأحداث، فكأنها حديث بالفعل ولا مجال لشك فيها فقد أخبر عنها علام الغيوب([[183]](#footnote-183)))).

وبين أيدينا في الآيات السابقة كثير من الألفاظ التي تستحق الوقوف طويلا للتأمل في طريقة نسجها وتأليفها، ونكتفي في الاستدلال على ذلك بواحدة منها، تلك لفظة ((اعتلوه)) من قول الله تعالى:﴿**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ (47)**﴾ إن لهذه الكلمة من التأثير ما ليس لغيره مما نفسرها به. إذ تحسد صورة جر الكافر إلى وسط النار بأقصى العنف والغلظة. وهذا من بديع نظم القرآن إذ تقرن في تأليفه كل لفظة لا تبغي حولا عن مكانها من حيث حسن النظم وقوة المعنى، ((وهذا ما تنبه إليه الجاحظ من حيث الدقة في مواقع الألفاظ في الذكر الحكيم، وكيف أن الكلمة المرادفة لأخرى لا يصح أن تستخدم مكانها، بل إن صيغة الكلمة ينبغي أن لا تتغير، وأن تظل على صررتها من الإفراد والجمع، وأيضاً فإن الكلمات كأفراد الأسرة أو على الأقل منها ما تقوم بينها واشجة الرحم.

\* \* \* \*

وقد يستخف الناس ألفاظاً، وغيرها أحق. بذلك منها ألا ترى أن الله تبارك وتعالى: لم يذكر في القرآن ((الجوع)) إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام. والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيب.

ولفظ القرآن الذي عليه نـزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضيين، ألا تراه لا تجمع الأرض أرضين ولا السمع أسماعاً، والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولي في الاستعمال([[184]](#footnote-184))).

وتلك الخصائص للنظم القرآني ثابتة أصلية فيه، وليست وليدة تنقيح وتكلف وتهذيب لأن القرآن منـزل من عند أحكم الحاكمين.

وتلك الخاصية في النظم نلحظها في التشبيه القرآني من سورة الرعد إذ يقول تعالى:﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (14)**﴾.

فقد يقال: يمكن أن يتم التشبيه على نحو من قولنا:((إلا كظمآن يريد الماء، وهو لا يستطيع الوصول إليه)).

ولكن الأمر هنا على خلاف ما ذكرته الآية من حسن الصياغة ودقة النظم فقد هذا قيد الظمآن بأنه يبسط كفيه إلى الماء عن قرب لعلها تصيب شيئاً منه، وهيهات ذلك، كما هو حال المشركين يدعون من دون الله وأنى يستجاب لهم.

\* \* \* \*

ومن سمات النظم أن المعاني التي تضمنها القرآن الكريم في أصل وضع الشريعة، والأحكام، والاحتياجات في أصل الدين، والرد على الملحدين على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها في اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع.

وذلك أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأساب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر، والأمر المتقرر المتصور.... ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني، والمعاني وفقها لا يفضل أحدهما الآخر فالبراعة أظهر، والفصاحة أثم([[185]](#footnote-185))، حتى يرتقي الإبداع في النظم إلى طريقة لا يستطيع حذاق الكلام مجاراتها بل لو ضمنوا كلامهم لفظة واحد من غرر الألفاظ القرآنية - وكل ألفاظ غرر - لتبين بريقها للناظر وأوغلت في البعد عن أساليبهم المعتادة.

ومثل هذا النهج لا يتحقق إلا في نظم القرآن الكريم. وهذا شاهد على تلك الخاصية. يقول جل ثناؤه في سورة البقرة:﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾.

لاحظ لفظة ﴿حَرْثٌ﴾ وما لها من مزية في نظم الآية الكريمة فإن لوجودها وربطها مع قرينتها، وتعيين موضعها من العبارة تأثيرا في الإيحاء الصوتي، والقيمة والأهمية في أداء المعنى البلاغي، وفخامته وعذوبته، بل لاختيارها على غيرها دلالة على كمال المعنى وتشخيص له.

((إن هذه اللفظة جيء بها لتشبيه النساء بها دون الأرض مثلا أو الحقل أو الزرع، أو غير ذلك من مترادفات اللغة، ولعل في إيثارها على غيرها لما فيها من لطف الكناية في ذلك التشابه بين صلة الزرع بحرثه، وصلة الزوج بزوجته في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك النبت الذي تخرجه الزوجة، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح. بينما هذه اللطائف لاستفاد من كلمة((الأرض أو الحقل)) ونحوهما، فالأرض قد تكون جدباء سبخة لا تصلح للحراثة والزرع، وكذلك الحقل إذ لا يدل على عمل المالك فيه([[186]](#footnote-186)))).

من أجل تلك المعاني واللطائف أثرت الآية لفظة (حرث) على غيرها من مترادفات اللغة التي تدل على المعنى لكنها لا تصل إلى براعة لفظ (حرث) في مدلولها الواسع وإيحائها وجمال وقعها في النفوس.

وأمثال تلك الفرائد في القرآن كثيرة خذ مثلا قوله تعالى:﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)﴾ أليست كلمة ﴿عَسْعَسَ﴾ توحي بدنو الليل وتهاديه في آفاق الكون وتؤدي هذا المعنى أكثر من لفظة ((قرب أو دنا)) وكذلك تنفس، أي إشراقة لرواء هذه اللفظة. بجانب ذكر الصبح، لكان الصباح مخلوق ذو رثة وروح ينفث في الآفاق بصيصاً من النور والإشعاع، تحسه وتعيشه وتتملاه في قريب وبعيد.

\* \* \* \*

ولو أردنا استقصاء الأمثلة والشواهد على تلك الخاصية لأفضي بنا ذلك إلى الإطالة، ولكن كما قلنا:((لا يستعذب التكرار في كلام كما يستعذب في كلام الله تعالى: فإليك مثال آخر على تلك الخاصية: يقول الحق سبحانه:﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (97)﴾.

أن لفظة ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ توحي بحركة الانـزلاق السريع كلما حاول القوم اعتلاء سد ذي القرنين وصعوده، ولفظة ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ تعبر عن القوة التي يمارسها القوم لهدم هذا السد أو إحداث خلل فيه. فأي بلاغة وأي نظم تجاري مثل هذا التأليف والأسلوب.

ومما يميز القرآن الكريم ((خلو حروفه مما يخرج الكلمة عن حد الفصاحة فقد تجنب القرآن في تأليف ألفاظه، وتراكيبه - الحروف المستهجنة مما يجري في لغة الأنباط، والأعاجم، والأكراد لما فيها من الركاكة والتواء اللسان، ومما يجري في لغات بعض العرب على نحو ما روي من كشكشة بني تميم، وكسكسة بني بكر، وطمطمانية حمير، وكالغمغمة في لغة قضاعة، والفرانية واللخلخانية في لغة أهل العراق، وكل هذه اللغات نجد في حروفها عاهة ولكنه، وقد جاء الكتاب الكريم منـزهاً في تأليفه عنها([[187]](#footnote-187)))).

ومن سمات النظم القرآني وفوائده ((مزج المقاصد والأغراض التي يهدف إليها، وتفريقها في السور الكثيرة، والطويلة منها والقصيرة، بالمناسبات المختلفة، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب، المحركة للشعور. النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به، وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من الإيحاءات الصوتية التي تحرك في القلب وجدان الخشوع، والرغبة والرهبة، والعرفان بكمال الله جل ثناؤه([[188]](#footnote-188)))).

ولغة القرآن الكريم في مادتها الصوتية تبعد عن طراوة لغة أهل الحضر، وخشونة لغة أهل البادية، وتجمع - في تناسق محكم - بين رقة الأولى وجزالة الثانية، وتحقق الروعة بفضل التوفيق والاتساق البديع.

إنها ترتيب في مقاطع الكلمات في نظام أكثر تماسكاً من النثر وأبعد في الحسبان من نظم الشعر، ويتنوع في خلال الآية الواحدة ليجذب نشاط السامع، ويتجانس في آخر الآيات لكن لا يختل الجرس العام للوقفات في كل سورة([[189]](#footnote-189)))).

\* \* \* \*

ومن جملة خصائص النظم القرآني ما أشار إليه الدكتور محمد زغلول سلام في كتابه ((أثر القرآن في تطور النقد العربي)) فقد أورد عدة خصائص يتميز بها أسلوب القرآن في التأليف والصياغة نقلا عن رسالة ((الخطابي)) ((بيان إعجاز القرآن ومما ذكره في هذا الصدد)). إن نظرية النظم تقوم على صلة الألفاظ بعضها ببعض في العبارة أو الآية، وأن الكلام على هذا الاعتبار ثلاثة أقسام:

1 - لفظ حامل.

2 - ومعنى به قائم.

3 - ورباط لها ناظم.

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلا من نظمه.

وكان من خصائص النظم القرآني إخضاع الألفاظ للسياق ومقتضي الحال، من ظروف الكلام والمتكلم، والمعاني التي أريد التعبير عنها. فليس غريب اللفظ - مثلا - بليغاً في ذاته، ولا تصح تسمية لفظ بأنه بليغ، يقول الخطابي:((وأما ما ذكروه من قلة الغريب في ألفاظ القرآن، بالإضافة إلى الواضح منها فليست الغرابة مما اشترط في حدود البلاغة، وإنما يكثر)) وحشي الغريب في كلام الأوحاش من الناس، والأجلاف من حفاة العرب، الذين يذهبون مذاهب العنجهية، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنـزيله والتخير له، وليس ذلك معدوداً في النوع الأفضل من أنواعه، وإنما المختار منه النمط الأقصر الذي جاء به القرآن وهو الذي جمع البلاغة والفخامة إلى العذوبة والسهولة.

ولاجتماع تلك الخصائص في النظم القرآني اتسم أسلوبه الفريد بكل صفات الأسلوب من الجمال، والقوة، والوضوح. ((وكان من أسرار جمال التعبير القرآني إثارة الأحاسيس النفسية المختلفة. كالرحمة، والحب، واللذة، الألم، والغضب، والخوف، والانتقام.

وفي معرض تلك الأحاسيس يقول الحق سبحانه:﴿**إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** **(23) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** **(24)**﴾[[190]](#footnote-190)\*.

وفي سياق آخر يقول تعالى:﴿**سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ** **(7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** **(8)**﴾[[191]](#footnote-191)\*.

تأمل في الآية الأخيرة لفظة ﴿**شَهِيقًا**﴾ وانظر لجمال الاستعارة وما أدته من كمال المعاني، إذ حقيقة ((الشهيق)) هنا الصوت الفظيع كشهيق الباكي، فالاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذلك أعظم الزجر، من أجل تلك المعاني يخاطب القرآن الكريم الغرائز الإنسانية، يستثيرها كاستثارة غريزة الغيظ، وشعور الغضب في النفس، ويخلع تلك الغرائز على النار لتدل على حقدها وتهيؤها للانتقام من الكافرين بابتلاعهم حتى تثبت الخشية، والرهبة، والخوف في النفوس فتذعن للخير وتبتعد عن المعصية))([[192]](#footnote-192)).

ونلخص من كل تلك الخصائص ((إلى أن القرآن الكريم في أسلوب تأليفه كان له أثر واسع النطاق في الميدان الأدبي، ولا بما فيه من أهداف أخلاقية فحسب، ولكن بما فيه أيضاً من أسلوب جميل معجز في الجمال أي أن الصورة الأولى وحدها منه هي التي قامتا بدور كبير في تكييف الوضع الفني، والاعتبارات الفنية التشكيلية))([[193]](#footnote-193)).

وطبيعي أن جمال الصورة يتبع جمال جزئياتها في الحرف وتأليفه واللفظة المفردة، وانتقائها ووضعها في مكانها اللائق بها، وفي التراكيب وأحكامه في الرصف من حيث تلاقي أول منه بآخر.

ومن براعة النظم القرآني ما يسميه البلاغيون، بالتغايير، والمماثلة، والانسجام.

أما التغايير فيعني: مغايرة المعنى مغايرة اللفظ - وهو غير التناقض - ومثال ما جاء النظم فيه متغايراً بين اللفظ والمعنى قول الحق سبحانه:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فإن معنى هذه الآية بهذا النظم يغاير قوله تعالى: في نفس المعنى لنظم آخر:﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

ففي الآية الأولى قدم الله تبارك وتعالى - وعده بالرزق للآباء عن وعده برزق الأبناء، وفي الآية الثانية يأتي العكس، وسبب المغايرة بينهما أن الخطاب في الآية الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى:﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ فاقتضت البلاغة تقديم وعد الآباء المملقين بما يغنيهم من الرزق، واقتضت تكميل المعنى بعدة الأبناء بعد عدة الآباء ليكمل سكون الأنفس ولي يبق لها تعلق بشيء.

وفي الآية الثانية الخطاب للأغنياء بدليل قوله تعالى:﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ فإنه لا يخشى الفقر إلا الغني، أما الفقير ففقره حاصل. فاقتضت البلاغة تقديم وعد الآباء بالرزق، ليشير هذا التقديم، إلى أن الله وحده - هو الذي يرزق الأبناء ليزول ما توهمه الأغنياء، من أنهم بإنفاقهم على الأبناء سيصيرون إلى الفقر بعد الغنى، ثم كمل الطمأنينة بعدتهم بالرزق بعد عدة أبنائهم.

وأما المماثلة: فمعناها تماثل ألفاظ الكلام كلها أو بعضها في الزينة دون التقفية كقوله تعالى:﴿**وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ** **(1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ** **(2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ** **(3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ** **(4)**﴾ فالطارق، والثاقب، وحافظ ممتثلات في الزنة دون التقفية.

وقيل: المماثلة تماثل الألفاظ في المعنى مع اختلاف اللفظ.. ويكون مثل هذا في الكتاب العزيز:﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾**.

وأما الانسجام: فهو أن يأتي منحدراً كمنحدر الماء المنسجم بسهولة سبك، وعذوبة ألفاظ، وسلامة تأليف... وهو على ضربين: ضرب يأتي مع البديع الذي لم يقصد، وضرب لا بديع فيه، فمن الضرب الأول قوله تعالى:﴿**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (86)**﴾.

فأنت ترى سهولة هذا النظم، وعذوبة هذه الألفاظ، وما في هذا الكلام من الانسجام، مع ما وقع فيه من التعطف. في قوله تعالى:﴿**إِلَى اللَّهِ﴾**، ﴿**وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ﴾** فإن إنما عدل عن قوله:﴿**وَأَعْلَمُ مِنَ﴾** وهو أوجز من الأول ليأتي في الكلام تعطف يزيده حسناً، وفيه زيادة خضوع، وترقق مع تمكين فاصلة الآية.

\* \* \* \*

ومثلها الآية التي بعدها. وهي قوله تعالى:﴿**يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** لوقوع التعطف فيها كالأول.

ومثال الضرب الثاني من الانسجام - وهو الخالي من البديع - قوله تعالى:﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (199)﴾ وقوله عز وجل:﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (123)﴾ وأكثر آي القرآن من شواهد هذه الباب))([[194]](#footnote-194)).

وتلك الخصائص في نظم القرآن الكريم - أعني التغاير، والمماثلة والانسجام، قد اهتدي إليها البلاغيون بذوقهم المستنير، وأدرجوها تحت اصطلاحاتهم البلاغية، وألحقوها بفن البديع، ولا شك أن وجودها في النظم القرآني أصل فيه من غير تكلف، ووجودها في كلام غيره، إما عن تكلف، أو غير تكلف لكنه في الحسن دون درجة القرآن.

ومن روائع نظم القرآن: اجتماع الحسن له ((حول حرف واحد في الآية يثير النفس ألواناً من المعاني لا تجدها إذا استبدلت به حرفاً آخر واستمع إلى قوله تعالى:﴿**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ** **(55) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** **(56)**﴾.

ألا تشعر بما حول هذه ألفا من استفهامات تثيرها، فكأن الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون لمنكري البعث: ألا تزالوا مصرين على إنكاره؟ وماذا أنتم فاعلون؟ وكيف تلقون رباً أنكرتم لقاءه))([[195]](#footnote-195))؟

\* \* \* \*

وبما أن القرآن الكريم قد بلغ الذروة في البلاغة والإعجاز حرفاً ولفظاً وتركيباً فقد حوى في نظمه ((جميع قواعد البيان والبديع دون أن يترك قاعدة واحدة منها، ولم يستطيع بليغ من بلغاء العرب وغيرهم من أمم الأرض أن يصل إلى هذا الكمال مهما كان نبوغه.

ولشدة تماسك أجزاء الآيات وتراكيب الجمل داخلها وتناسق بعضها مع بعض في حسن النظم خيل لبعض من وهم بل غلط حتى قال إن في بعض آيات القرآن شعراً جاء موزوناً مقفي من غير قصد. ولم يكتف بمثل هذا القول الفاسد بل دعاه اجتهاده السقيم إلى أن يدخل بعض الآيات أو جملا منها تحت بحور الشعر فيعد هذه من الطويل وتلك من الوافر، وأخرى من البسيط.

وما دعاهم إلى ذلك إلا الاتساق بين الألفاظ، والائتلاف بينها وبين المعاني، ولا أرى داعياً لذكر ما استشهدوا به من الآيات فحاشا القرآن الكريم أن يخضع في نظمه، لقواعد الشعر ومصطلحاته، وأوهام قائليه، وخيالاتهم:﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (69)﴾ ﴿تَنـزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾**([[196]](#footnote-196)).

\* \* \* \*

ومن أرقى خصائص النظم القرآني ((أن الباحث فيه حيثما قلب نظره وجد أسرارا من الإعجاز اللغوي، منها ما يكمن في نظامه الصوتي البديع بجرس حروفه، ومقاطع فواصله، منها ما هو في ألفاظه التي تفي بحق كل معنى في موضعه، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد، ولا يعثر على موضع يقال إنه بحاجة إلى لفظ ناقص، ومنها ما هو في ضروب الخطاب التي يتقارب فيها أصناف الناس في الفهم، مع إقناع وإمتاع العاطفة في تكافؤ واتزان، فلا تطغي قوة أحد هذين على الأخرى([[197]](#footnote-197)))).

وأمثلة تلك الظاهرة في نظمه البديع تصدق على جميع سوره الطويلة منها والقصيرة، وخاصة في بعض الآيات التي تستثير العواطف، ويحتكم أسلوبها إلى دعوة العقول للتدبر، والاتعاظ، كأسلوب الوعد والوعيد والترغيب والترهيب.

من أجل خصائص الإبداع في النظم القرآني، ظاهرة التجدد التي لم يزل القرآن معها حياً متجدداً يفوق طاقة الدارسين، ولا يزال كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لا تبديل لكلمات الله، فمهما سطا على أسلوب القرآن وتأليفه ملحد - بالتغيير والتبديل - فإن أسلوبه الطري وتأليفه الرائع لا يمكن من تسول له نفسه وتمنيه، أن يصل إلى ما يريد وحسبك فشل مدعي النبوات، ومن سار في ركابهم ممن قلدهم.

والقرآن بتلك الخصائص سيبقى المثل الأعلى لكل فن من فنون البيان الذي اشتهر به العرب، وهم أهل الفصاحة واللسان.

\* \* \* \*

ومعنى ذلك أن كتاب الله كان مجتمع الخصائص الممتازة التي عرفها العرب وزاد عليها القرآن الكريم ما أعجزهم عن معارضته، والإتيان بمثله مع تحديه البالغ لهم، بعشر سور، بل بسورة، بل بآية أو جملة إذ التحدي عام في الجميع بدليل قوله تعالى:﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)﴾ الآية فقوله بمثل هذا القرآن دليل على التحدي عامة وكان القرآن نمطاً رفيعاً، ونظاماً فريداً، فيه من القوة والجمال ما قد يخفي على غير أهل الذوق وأرباب البصيرة بالفن الأدبي.

ولذلك لا يعرف فضل القرآن إلا من كثر نظره، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال ما أوتيت العرب))([[198]](#footnote-198)).

والأمر كما يقول ابن قتيبة ((وللعرب المجازات في الكلام، ومصدر طرق القول ومآخذه، ففيها الاستعارة والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، الكناية، الإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين،،والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص، وبكل هذه المذاهب نـزل القرآن، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية والرومية، وترجمت التوراة والزبور، وسائر كتب الله تعالى بالعربية، لأن العجم لم تتسع في المجاز اتساع العرب.

إنما ذكر ابن قتيبة هذه الفئة لورودها في الكتاب الكريم ولأنه رأى جماعة يطعنون على الكتاب ببعض ما خفي عليهم مما فيه من فنون الأقوال وأساليب الكلام، فأراد أن يبين أن القرآن نـزل بألفاظ العرب، ومعانيها ومذاهبها في الإيجاز والاختصار، والإطالة، والتوكيد، والإشارة إلى الشيء وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقض، وإظهار بعضها وضرب الأمثال لما خفي.

ولو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفاً، حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس، وسقطت المحنة، وماتت الخواطر، ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة، وكل باب من أبواب العلم من الفقه والحساب والغرائض والنحو، فمنه ما يجل ومنه ما يدق ليرتقي المتعلم في رتبة بعد رتبة حتى يبلغ منتهاه، ويدرك أقصاه ولتكون للعالم فضيلة النظر، وحسن الاستخراج ولتقع المثوبة من الله على حسن العناية.

ولو كان كل فن من العلوم شيئاً واحداً، ولم يكن عالم ولا متعلم، ولا خفي ولا جلي، لأن فضائل الأشياء تعرف بأضدادها، فالخير يعرف بالشر، والنفع بالضر، والحلول بالمر، والقليل بالكثير، والصغير بالكبير والباطل بالظاهر))([[199]](#footnote-199)).

وبعد، فقد طال بي السير في صحبة هذه السورة الكريمة، والتأمل فيما اشتملت عليه من آيات الروعة والإعجاز. ومع ذلك أشعر بأنني أمام هذا الفيض الزاخر من آيات الحسن والإبداع الذي يمتاز به كلام الله العلي القدير وكأنني أمام بحر لا شاطئ له، كلما حسبت أنني وصلت إلى المراد من هذه الرحلة الطويلة ألفيتني في شوق إلى الاستزادة من هذا المعين الذي لا ينضب. ولكن لكل شيء غاية وأمداً ينتهي إليه. وقد بذلت من الجهد ما رأيت أن ثمرته تكفي لتكون معلما ًمن معالم عظمة (النظم القرآني) وروعته أسرار إعجازه.

وكان أهم ما توجهت إليه العناية في هذه الدراسة:

1 - الإبانة عن معنى النظم ومفهومه عند أصحاب اللغة، وعند علماء البيان الذين عرضوا له، وارتضوه أهم وجه من وجوه إعجاز الكتاب الكريم. وأشرت إلى سائر وجوه الإعجاز لبيان منـزلة هذا الوجه منها وذلك ما تضمنه الفصل الأول من هذه الدراسة.

2 - ثم تناولت النظم في سورة الرعد، فاحصا عن عناصر هذا النظم في جزئياته وكلياته مبتدئاً بالألفاظ المفردة، ومشيراً إلى اختلاف العلماء والنقاد في تقديم قيمة اللفظ المفرد، وانتهيت إلى مظاهر إحكام التأليف في هذه السورة وفقاً لمقتضيات المعاني التي تضمنتها. وكذلك بحثت عن مظاهر التلاؤم والائتلاف بين أجزاء النظم في هذه السورة، وعن الفواصل ونسقها وأكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل وخصائص كل منها ولم تفتني الإشارة إلى اختلاف العلماء حول ورود ((السجع في القرآن وإيثارهم لفظة)) ((الفاصلة)) على لفظة ((السجع)) وأدليت بوجهة نظري في ذلك الاختلاف وبسطت الرأي الذي أطمئن إليه.

وكان البحث في هذه المسائل موضوع الفصل الثاني.

3 - ثم خصصت الفصل الثالث لدراسة التصوير البياني في سورة الرعد وتعرضت للآيات التي تعالج أهم الأغراض فيها والمعاني التي وردت للإبانة عنها، عن متانة الأداء ودقته وروعته في التعبير عن هذه المعاني.

4 - ثم عمدت إلى شيء من الموازنة بين خصائص النظم في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن مشيراً إلى خصائص المفردات والتراكيب والمعاني ونسق الفواصل، وذلك حتى أستطيع وصل هذه السورة الكريمة بسور القرآن الكريم وذلك ما تضمنه الفصل الرابع.

وإذا كنت قد أشرت إلى شيء من الجهد الذي بذلته في الدراسة في هذه الكلمات السريعة التي تقتضيها هذه الخاتمة الموجزة فإني أرى أن هذه الإشارة لا تكفي عن الرجوع إلى ما فصلته في تلك الفصول، وما ناقشته من الآراء، وما استخرجته من بدائع النظم القرآني في هذه السورة، وما بسطته من آراء اطمأننت إليها بما وسعني من المعرفة والذوق الفني.

ومع كل هذا لا أستطيع أن أزعم أنني قلت كل شيء فإنني كما ذكرت في تقديم هذه الرسالة قد اجتهدت ما وسعني الاجتهاد وحسبي أنني مهدت الطرق لمن يريد أن يخوض هذا الخئم الزاخر باحثاً عن لآلئه التي حاولت أن أفتح شيئاً من أصدافها.

ويستطيع الذين تتاح لهم السبيل للغوص على أسرار الجمال في النظم القرآني أن سلكوا الطريق التي سلكت، ولعلهم يوفقون إلى ما هو خير منه، في خدمة كتاب الله تعالى حتى تتكامل هذه الدراسة الفنية للقرآن الكريم الذي هو المعجزة الكبرى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومجتمع شريعتنا وأحكام ديننا الحنيف.. والذي هو منطلق الآداب السامية الرفيعة، وقواعد السلوك التي ينبغي أن يتحلى بها من يريد خير الدنيا والآخرة.

ولا أحب أن أثني عنان القلم قبل أن أزجي الشكر خالصاً لأستاذي الدكتور بدوي طبانة على حسن رعايته وعنايته بهذا الجهد وصاحبه فجزاه الله خير الجزاء وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين.

\* \* \* \*

**ثبت المراجع**

1 - الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي المطبعة الأزهرية بمصر - الطبعة الثانية - 1343هـ - 1925م.

2 - أثر القرآن في تطور النقد العربي: الدكتور - محمد زغلول سلام - المعارف بمصر - الطبعة الثانية - 1961م.

3 - أساس البلاغة: جار الله محمود بن عمر الزمخشري طبعة دار صادر - بيروت 1385هـ.

4 - الأسس الجمالية في النقد العربي: الدكتور عز الدين سيد - مطبعة دار النصر. القاهرة. الطبعة الثانية. 1968م.

5 - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: عز الدين عبدالعزيز ابن عبدالسلام مطابع دار الفكر. دمشق. الناشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

6 - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي مطبعة المدني. 1386هـ.

7 - إعجاز القرآن البياني: الدكتور. حفني محمد شرف مطابع الأهرام، 1390هـ. 1970م.

8 - إعجاز القرآن: محمد بن الطيب الباقلاني مطبعة دار المعارف بمصر. الطبعة الثالثة. 1972م تحقيق أحمد صقر.

9 - إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي مطبعة الاستقامة القاهرة الطبعة. الثانية. 1384هـ 1965م.

10 - الإعجاز البياني: الدكتورة. عائشة عبدالرحمن ((بنت الشاطئ)) مطبعة دار المعارف بمصر. الطبعة الأولى 1391هـ 1971م.

11 - الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال أحمد محمد بن المنير. السكندري المالكي طبعة دار الفكر. بيروت.

12 - بحث جديد عن القرآن: محمد صبيح طبعة دار العامة - القاهرة الطبعة السادسة.

13 - بديع القرآن: عبدالعظيم بن عبدالواحد المعروف ((بابن أبي الإصبع)) مطبعة دار نهضة مصر - الطبعة الثانية - تحقيق حنفي محمد شرف.

14 - البرهان في علوم القرآن: بدر الدين الزركشي مطبعة الحلبي - الطبعة الثانية - تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم 1391هـ.

15 - البلاغة تطور وتاريخ: الدكتور - شوقي ضيف مطبعة دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية.

16 - بيان إعجاز القرآن: حمد بن محمد الخطابي مطبعة دار المعارف - الطبعة الأولى - تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام.

17 - البيان العربي: الدكتور بدوي طبانة المطبعة الفنية الحديثة بمصر - الطبعة الرابعة - 1388هـ - 1968م.

18 - البيان والتبيين: عمرو بن بحر الجاحظ طبعة دار الفكر.

19 - تأول مشكل القرآن: عبدالله بن مسلم بن قتيبة مطبعة الحلبي - شرح وتحقيق أحمد صقر.

20 - التبيان في علم القرآن المطلع على إعجاز القرآن: كمال الدين أبو المكارم عبدالواحد المعروف بابن الزملكاني مطبعة العاني - بغداد - الطبعة الأولى - 1383هـ تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي.

21 - التبيان في شرح الديوان: ضبط وتصحيح مصطفى السقاء وإبراهيم الإبياري - وعبدالحفيظ شلبي - مطبعة الحلبي 1391هـ.

22 - التصوير الفني في القرآن: سيد قطب طبعة سنة 1386هـ - 1966م.

23 - التعبير الفني في القرآن: الدكتور - بكري الشيخ أمين مطبعة دار الشروق - الطبعة الأولى 1393هـ.

24 - التعابير القرآنية والبيئة العربية: ابتسام مرهون الصفار الطبعة الأولى - مطبعة الآداب النجف - 1387هـ - 1967م.

25 - تفسير أبي السعود: أبو السعود محمد العمادي الحنفي مطبعة السعادة بمصر - تحقيق عبدالقادر أحمد عطا.

26 - التفسير البياني: الدكتورة - عائشة عبدالرحمن ((بنت الشاطئ)) مطبعة دار المعارف بمصر 1962م.

27 - تفسير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن: محمد بن جرير الطبري طبعة دار المعرفة بيروت - الطبعة الثانية 1392هـ - 1972م.

28 - تفسير الفخر الرازي: للإمام الفخر الرازي المطبعة البهية - بمصر - الطبعة الأولى 1357هـ - 1938م.

29 - تنوير المقياس من تفسير ابن عباس: لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروز أبادي - مطبعة الاستقامة - القاهرة 1380هـ.

30 - تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري تحقيق إبراهيم الابياري. دار الكتاب العربي 1967م مطابع سجل العرب القاهرة.

31 - التيارات المعاصرة في النقد الأدبي: الدكتور. بدوي طباعة مطبعة لجنة البيان العربي. الطبعة الأولى 1382هـ 1963م.

32 - الجمان في تشبيهات القرآن: عبدالله بن محمد المعروف بابن ناقيا البغدادي المطبعة العصرية بالكويت - الطبعة الأولى 1387هـ تحقيق عدنان محمد زرزور - ومحمد رضوان الدايه.

33 - جمهرة اللغة: محمد بن الحسن بن دريد الطبعة الأولى - الناشر مكتبة المثني - ببغداد.

34 - الحيوان: عمرو بن بحر الجاحظ - مطبعة شركة الكتاب اللبناني بيروت الطبعة الأولى - 1387هـ تحقيق فوزي عطوي.

35 - درر البيان في تفسير أمثال القرآن: محمد بن أبي بكر المعروف ((بابن القيم)) المطبعة العربية بمكة المكرمة.

36 - دفاع عن البلاغة: أحمد حسن الزيات مطبعة الاستقلال - الطبعة الثانية 1967م.

37 - دلائل الإعجاز: عبدالقاهر الجرجاني طبعة الموسوعات بمصر - الناشر محمد رشيد رضا.

38 - رسالة في إعجاز القرآن: الدكتور - مصطفى مسلم 1393هـ - 1973م.

39 - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود الألوسي مطبعة إحياء التراث العربي بيروت.

40 - سر الفصاحة: عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي مطبعة محمد علي صبيح - 1389هـ شرح وتصحيح عبدالمتعال الصعيدي.

41 - سنن الله في المجتمع من خلال القرآن: محمد الصادق عرجون الدار السعودية للنشر - جدة - الطبعة الأولى 1391هـ.

42 - سورة الرعد - دراسة أدبية وفكرية ولغوية: عبدالرحمن حنبكة الميداني الطبعة الأولى - 1391هـ - 1971م.

43 - شروح التلخيص: لسعد الدين التفتازاني وابن يعقوب المغربي وبهاء الدين السبكي مطبعة الحلبي.

44 - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: لأبي الحسين أحمد ابن فارس - مطابع بدران بيروت - تحقيق مصطفى الشويمي.

45 - الصبغ البديعي في اللغة العربية: الدكتور - أحمد موسى - الناشر دار الكتاب العربي 1388هـ - 1969م.

46 - الصحاح: إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبدالغفور عطا - مطابع دار الكتاب العربي بمصر 1377هـ.

47 - الصناعتين: أبو هلال العسكري الحسن بن عبدالله مطبعة الحلبي - الطبعة الثانية - تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم.

48 - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحي بن حمزة العلوي. مطبعة المقتطف بمصر 1914م تصحيح سيد بن علي المرصفي.

49 - عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية: الدكتور - أحمد أحمد بدوي - الطبعة الثانية - الناشر مكتبة مصر.

50 - غرائب القرآن ورغائب الفرقان: الحسن بن محمد النيشابوري مطبعة دار المعرفة - بيروت 1392هـ.

51 - في ظلال القرآن: سيد قطب الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

52 - في الميزان الجديد: الدكتور - محمد مندور دار نهضة مصر للطباعة والنشر 1973م.

53 - القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي الطبعة الثانية - مطبعة الحلبي 1371هـ - 1952م.

54 - قدامة بن جعفر والنقد الأدبي: الدكتور. بدوي طبانة المطبعة الفنية الحديثة بمصر - الطبعة الثالثة 1389هـ - 1969م.

55 - القرآن الكريم هدايته وإعجازه: الدكتور محمد الصادق عرجون - الناشر مكتبة الكليات الأزهرية 1386ه- 1966م.

56 - الكشاف عن حقائق التنـزيل وعيون الأقاويا في وجوه التأويل: جار الله محمود بن عمر الزمخشري طبعة دار الفكر بيروت.

57 - لسان العرب: جمال الدين محمد منظور مطبعة دار صادر بيروت.

58 - اللغة الشاعرة: عباس محمود العقاد مطبعة الاستقلال - القاهرة.

59 - مباحث في علوم القرآن: مناع خليل القطان مطبعة مؤسسة الرسالة. بيروت الطبعة الخامسة - 1398هـ.

60 - المثل السائر: ضياء الدين نصر الله محمد بن الأثير مطبعة الحلبي - تحقيق محي الدين عبدالحميد - 1358هـ.

61 - مدخل القرآن الكريم: الدكتور - محمد عبدالله دراز - طبعة دار القلم الكويت - الطبعة الثانية.

62 - مشاهد القيامة في القرآن: سيد قطب طبعة بيروت.

63 - معترك الأقران: جلال الدين السيوطي طبعة دار الفكر العربي.

64 - المعجم الوسيط: إخراج - إبراهيم مصطفى - أحمد حسن الزيات - حامد عبدالقادر. محمد علي النجار.

65 - المغني: عبدالجبار الهمذاني الاسترابادي مطبعة دار الكتب بمصر - الطبعة الأولى 1380هـ - 1960م.

66 - من بدائع النظم القرآني: الدكتور. السيد عبدالفتاح حجاب مطبعة الجندي.

67 - من بلاغة القرآن: الدكتور - أحمد أحمد بدوي مطبعة نهضة مصر الطبعة الثانية 1950م.

68 - من منهل الأدب الخالد: محمد المبارك طبعة دار الفكر بدمشق. الطبعة الثانية - 1383هـ.

69 - النبأ العظيم: محمد عبدالله دراز طبعة دار القلم الكويت - الطبعة الثالثة - 1394هـ.

70 - نظرية عبدالقاهر في النظم: الدكتور. درويش الجندي مطبعة الرسالة - 1960م.

71 - ند الشعر: قدامة بن جعفر طبعة دار السعادة - القاهرة - تحقيق كمال مصطفى - 1963م.

72 - النكت في إعجاز القرآن: علي بن عيسى الرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والروماني وعبدالقاهر الجرجاني مطبعة دار المعارف بمصر - الطبعة الأولى - تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام.

73 - الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت الطبعة الثامنة.

\* \* \* \*

**فهرس الموضوعات**

|  |
| --- |
| **الموضوع** |
| مقدمة:.............................................................................  موضوع البحث - أهميته - منهجه - خطة الدراسة....................................  تمهيد...............................................................................  الدراسات القرآنية ومظاهر العناية بها قديماً وحديثاً  **الفصل الأول:**......................................................................  معنى النظم - بعض وجوه إعجاز القرآن - النظم وجه من وجوه الإعجاز استعراض طائفة من أقوال العلماء في ذلك - فكرة النظم عند عبدالقاهر الجرجاني معناها - ومفهومها.  **الفصل الثاني:**......................................................................  عناصر النظم في سورة الرعد - الألفاظ المفردة وقيمتها - الاختلاف في تقدير اللفظ المفرد - التركيب وأحكامه وفقاً لمقتضيات المعاني - مظاهر التلاؤم بين أجزاء النظم في سورة الرعد - نسق الفواصل في سورة الرعد - أكثر الحروف التي بنيت عليها هذه الفواصل وخصائص.  **الفصل الثالث:**.....................................................................  التصوير البياني في سورة الرعد - حصر لبعض الآيات التي تعالج غرضاً واحداً - المعاني التي أدت هذه الأغراض كيف عبر عن هذه المعاني.  **الفصل الرابع:**......................................................................  خصائص النظم بين سورة الرعد وغيرها من سور القرآن الكريم دراسة لبعض الألفاظ القرآنية، والتراكيب، والمعاني، والفواصل، وخصائص هذه العناصر.  **المراجع**............................................................................ |

1. () البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص18, 20 ط الرابعة. [↑](#footnote-ref-1)
2. () الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص15 ط دار المعارف بمصر. [↑](#footnote-ref-2)
3. () سورة الرعد الآية 31. [↑](#footnote-ref-3)
4. () بيان إعجاز القرآن الخطابي من 47 تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ط د. م بمصر. [↑](#footnote-ref-4)
5. () انظر البيان العربي للدكتور بدوي طياته ص 334, 335 ط الرابعة. [↑](#footnote-ref-5)
6. () المصدر السابق من 356. [↑](#footnote-ref-6)
7. () المصدر السابق ص55, 66. [↑](#footnote-ref-7)
8. () المصدر السابق ص71, 72. [↑](#footnote-ref-8)
9. () انظر تحليل الآية في التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص 280. [↑](#footnote-ref-9)
10. () انظر البيان العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص130, 131 ط الثالثة 1394هـ مطبعة الكويت. [↑](#footnote-ref-10)
11. () انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص 61 ط الرابعة. [↑](#footnote-ref-11)
12. \* يرى بعض العلماء المعاصرين.القول: بالإعجاز التشريعي, وخلاصته: أن القرآن دستور تشريعي كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرق مثال, وسيظل إعجازه التشريعي قريباً لإعجاز العلمي وإعجازه اللغوي إلى الأبد ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث في العالم أثراً غير وجه التاريخ.. راجع ذلك مفصلا في مباحث في علوم القرآن لمناع القطان. [↑](#footnote-ref-12)
13. () انظر إعجاز القرآن للخطابي ص7 ورسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص81, 82. [↑](#footnote-ref-13)
14. () انظر رسالة إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص271, 272, 277, 277. [↑](#footnote-ref-14)
15. () انظر إعجاز القرآن للرافعي ص162 ط الثامنة مطبعة الاستقامة القاهرة. [↑](#footnote-ref-15)
16. () انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص 285. [↑](#footnote-ref-16)
17. () انظر إعجاز القرآن للرافعي من ص 175 الطبعة الثامنة – مطبعة الاستقامة بالقاهرة. [↑](#footnote-ref-17)
18. () الصيصاء: حب الحنظل الذي ليس في جوفه لب. انظر لسان العرب ص 51 جـ7. [↑](#footnote-ref-18)
19. () النظم: جمع نظام والنظام الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ. لسان العرب ص 578 مادة نظم. [↑](#footnote-ref-19)
20. () لسان العرب المجلد الثاني عشر ص 578, 579 لابن منظور طبعة دار صادر. بيروت. [↑](#footnote-ref-20)
21. () أساس البلاغة للزمخشري ص 641 طبعة دار بيروت. [↑](#footnote-ref-21)
22. () المعجم الوسيط الجزء الثاني ص 941. [↑](#footnote-ref-22)
23. () انظر الصحاح للجوهري المجلد الثاني ص 584. [↑](#footnote-ref-23)
24. () القاموس المحيط للفيروز أبادي الجزء الرابع ص. [↑](#footnote-ref-24)
25. () جهر اللغة لابن دريد الجزء الثالث ص 125. [↑](#footnote-ref-25)
26. () تهذيب اللغة للأزهري الجزء الرابع ص 391. [↑](#footnote-ref-26)
27. () انظر نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص 24 مطبعة السعادة بالقاهرة. تحقيق كامل مصطفى. [↑](#footnote-ref-27)
28. () نظرية عبدالقاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص 23 مطبعة الرسالة. [↑](#footnote-ref-28)
29. () انظر الصناعتين أبي هلال ص 167, 168, 171, 172 مطبعة الحلبي تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم. [↑](#footnote-ref-29)
30. () انظر دلائل الإعجاز ص 314, 316 ونظرية عبدالقاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص53. [↑](#footnote-ref-30)
31. () نظرية عبدالقاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص 54 مطبعة الرسالة. [↑](#footnote-ref-31)
32. () نظرية عبدالقاهر في النظم للدكتور درويش الجندي ص 57, 62, 70 مطبعة الرسالة. [↑](#footnote-ref-32)
33. () عبدالقاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية للدكتور أحمد أحمد بدوي ص 116 ص 117. [↑](#footnote-ref-33)
34. () انظر: في الميزان الجديد للدكتور محمد مندور ص 189. [↑](#footnote-ref-34)
35. () المصدر السابق ص 189. [↑](#footnote-ref-35)
36. () انظر إعجاز القرآن البياني للدكتور حنفي محمد شرف ص 102 مطابع الأهرام. [↑](#footnote-ref-36)
37. () انظر دلائل الإعجاز ص 246 طبعة المراغي. [↑](#footnote-ref-37)
38. () انظر دلائل الإعجاز ص 32, 33 طبعة المراغي. [↑](#footnote-ref-38)
39. () انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة س 227 الطبعة الرابعة. [↑](#footnote-ref-39)
40. () انظر البيان والتبيين للجاحظ ص 19 طبعة دار الفكر, والمجاز البياني للدكتور حنفي محمد شرف ص 23, 26 مطابع الأهرام, وأثر القرآن في تطوير النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام ص 81 الثانية المعارف. [↑](#footnote-ref-40)
41. () انظر البيان والتبيين للجاحظ ص 19 طبعة دار الفكر, والمجاز البياني للدكتور حنفي محمد شرف ص 23, 26 مطابع الأهرام, وأثر القرآن في تطوير النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام ص 81 الثانية المعارف. [↑](#footnote-ref-41)
42. () انظر البيان والتبيين للجاحظ ص 19 طبعة دار الفكر, والمجاز البياني للدكتور حنفي محمد شرف ص 23, 26 مطابع الأهرام, وأثر القرآن في تطوير النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام ص 81 الثانية المعارف. [↑](#footnote-ref-42)
43. () انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص 10, ورسالة في الإعجاز للدكتور مصطفى مسلم ص 72. [↑](#footnote-ref-43)
44. () انظر النكت في إعجاز القرآن للروماني ص87, 88 وما بعدها تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام مطبعة دار المعارف بمصر ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر. [↑](#footnote-ref-44)
45. () انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للروماني والخطابي وعبدالقاهر ص 24, 25. تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلا. [↑](#footnote-ref-45)
46. () انظر مبحث العناية بالدراسات القرآنية في هذا المبحث. [↑](#footnote-ref-46)
47. () انظر مقدمة الصناعتين لأبي هلال ص 7 تحقيق علي البجاوي وأبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-47)
48. () سورة غافر آية 14, 15, 16. [↑](#footnote-ref-48)
49. () انظر إعجاز القرآن الباقلاني ص 51 وما بعد تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف. [↑](#footnote-ref-49)
50. () انظر الإعجاز البياني لبنت الشاطئ ص95 والمغني لعبد الجبار الجزء السادس عشر ص 316 وما بعدها مطبعة دار الكتب بمصر. [↑](#footnote-ref-50)
51. () انظر من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوي ص 388 الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-51)
52. () انظر الحيوان للجاحظ ص 444 الطبعة الأولى 1287هـ تحقيق فوزي عطوي مطبعة شركة الكتاب اللبناني بيروت. [↑](#footnote-ref-52)
53. () انظر الصناعتين لأبي هلال العسكري ص 63, 64 الطبعة الثانية تحقيق علي البجاوي ومحمد أبي الفضل أبراهيم مطبعة الحلب. [↑](#footnote-ref-53)
54. () انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبانه ص 193 الطبعة الثالثة 1389هـ الحديثة. [↑](#footnote-ref-54)
55. () انظر ذلك مفصلا في البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص 194, 206 الطبعة الرابعة المطبعة الفنية الحديثة 1388هـ. [↑](#footnote-ref-55)
56. () انظر ذلك مفصلا في البيان العربي للدكتور بدوي طبانه ص 194, 206 الطبعة الرابعة المطبعة الفنية الحديثة 1388هـ. [↑](#footnote-ref-56)
57. () المصدر السابق ص 273. [↑](#footnote-ref-57)
58. () انظر دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني ص 35 التأثير محمد رشيد رضا. [↑](#footnote-ref-58)
59. () انظر دلائل الإعجاز لعبدالقاهر ص 33 طبعة المراغي. [↑](#footnote-ref-59)
60. () انظر من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوي ص 230 الطبعة الثانية. مطبعة نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-60)
61. () انظر ظلال القرآن لسيد قطب المجاد الخامس ط بيروت ص 63, 4 غ, 110. [↑](#footnote-ref-61)
62. () انظر تنوير المقاس من تفسير ابن عباس لأبي طاهر محمد بن يعقوب الاستر ابادي. [↑](#footnote-ref-62)
63. () من تفسير سورة الرعد في الظلال لسيد قطب. [↑](#footnote-ref-63)
64. () انظر تفسير الرازي الجزء 19 ص 8 الطبعة الأولى, المطبعة البهية بمصر 1357. [↑](#footnote-ref-64)
65. () انظر تفسير أبي السعود الجزء الثالث ص 201 مطبعة السعادة بمصر. [↑](#footnote-ref-65)
66. () انظر تفسير الرازي الجزء 19 ص 12 الطبعة الأولى 1257هـ المطبعة البهية بمصر. [↑](#footnote-ref-66)
67. () المرجع السابق ص 14, 15. [↑](#footnote-ref-67)
68. () انظر ظلال القرآن لسيد قطب الجزء الخامس ص 76 الطبعة الخامسة. طبعة بيروت. [↑](#footnote-ref-68)
69. () انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص 159 تحقيق حفني شرف مطبعة نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-69)
70. () ظلال القرآن لسيد قطب ((تفسير سورة الرعد)) الجزء الثالث عشر من المجلد الرابع طبعة دار الشروق ببيروت. [↑](#footnote-ref-70)
71. () تفسير الطبري الجزء الثالث عشر من المجلد السابع ص 75 الطبعة الثانية دار المعرفة بيروت. [↑](#footnote-ref-71)
72. () انظر تفسير الرازي الجزء 19 ص 18 الطبعة الأولى 1357هـ الطبعة البهية بمصر. [↑](#footnote-ref-72)
73. \* انظر التبيان في شرح الديوان للعكربي ص 411 مطبعة بولاق. [↑](#footnote-ref-73)
74. \* سورة الشورى الآية 28. [↑](#footnote-ref-74)
75. () انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ص 65, 66 تحقيق حفني شرف الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-75)
76. () انظر روح المعاني للألوسي الجزء الثالث عشر ص 123 مطبعة إحياء التراث. بيروت. [↑](#footnote-ref-76)
77. () انظر البيان والتبين للجاحظ ص 201 وما بعدها ط دار الفكر. [↑](#footnote-ref-77)
78. () النكت في إعجاز القرآن الرماني ص 89, 90, 91 ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الرماني والخطابي وعبدالقاهر تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الأولى مطبعة دار المعارف بمصر. [↑](#footnote-ref-78)
79. () انظر البرهان للزركشي الجزء الأول ص 53, 54 تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. [↑](#footnote-ref-79)
80. () شرح التلخيص لسعد الدين التغتازاني الجزء الرابع ص 445 وما بعدها. مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-80)
81. () إعجاز القرآن للباقلاني ص 58, 59 الطبعة الثالثة 1972م. مطبعة دار المعارف تحقيق أحمد صقر. [↑](#footnote-ref-81)
82. () انظر القاموس المحيط 3803 للفيروز أبادي. [↑](#footnote-ref-82)
83. () انظر تفسير الكاشف الزمخشري طبعة دار الفكر بيروت. [↑](#footnote-ref-83)
84. () لغاب ولغب: الغب الريش القاسد مثل البطنان منه, ومنهم لغب ولعاب قاسد لم يحسن عمله. لسان العرب مادة لغب. [↑](#footnote-ref-84)
85. () لنجف شاسف: الأعجف الهزيل, والنصل الرقيق.. والشف: القاحل الشامر واليابس لسان العرب مادة أعجف وشف. [↑](#footnote-ref-85)
86. () انظر شروح التلخيص ص 301 وما بعدها لسعد الدين التفتازاني الجزء الرابع مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-86)
87. () انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طباعة ط الثالثة ص 294, 295, 296, 315, 318, 322 المطبعة الفنية الحديثة بمصر 1389هـ. [↑](#footnote-ref-87)
88. () انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبع تحقيق حفني محمد شرف ص 77 الطبعة الثانية مطبعة دار طبعة مصر. [↑](#footnote-ref-88)
89. () انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص 226, 227 ط الرابعة المطبعة الفنية الحديثة 1388هـ. [↑](#footnote-ref-89)
90. () انظر النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص 876, 88 تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام. [↑](#footnote-ref-90)
91. () انظر دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات ص 122 الطبعة الثانية مطبعة الاستقلال بالقاهرة. [↑](#footnote-ref-91)
92. () انظر ظلال القرآن لسيد قطب الجزء الخامس ص 70 طبعة بيروت. [↑](#footnote-ref-92)
93. () انظر تفسير الرازي الجزء 19 ص 31 ط الأولى 1357هـ المطبعة البهية بمصر. [↑](#footnote-ref-93)
94. () انظر تفسير الرازي ص 31 الجزء 19 الطبعة الأولى 1357هـ المطبعة البهية بمصر. [↑](#footnote-ref-94)
95. () انظر ظلال القرآن لسيد قطب جـ 13 ص 89 طبعة بيروت. [↑](#footnote-ref-95)
96. () تفسير الرازي ص 46 الجزء 19. [↑](#footnote-ref-96)
97. () المصدر السابق ص 8. [↑](#footnote-ref-97)
98. () انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوي ص 253 الطبعة الثانية 1370هـ مطبعة نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-98)
99. \* سورة الواقعة 69. [↑](#footnote-ref-99)
100. () انظر الكاشف الزمخشري ص 362 طبعة دار الفكر بيروت. [↑](#footnote-ref-100)
101. () انظر تفسير أبي السعود ص 235 تحقيق عبد القادر أحمد عطا مطبعة السعادة بمصر. [↑](#footnote-ref-101)
102. () سورة يوسف الآية 105. [↑](#footnote-ref-102)
103. () روح المعاني للألوسي الجزء 13 ص 84 مطبعة إحياء التراث العربي بيروت. [↑](#footnote-ref-103)
104. () من منهل الأدب الخالد لمحمد المبارك ص 13 بتصرف (1) ظلال القرآن لسيد قطب الجزء 5 ص 87. [↑](#footnote-ref-104)
105. () ظلال القرآن لسيد قطب الجزء 5 ص87 مطبعة بيروت. [↑](#footnote-ref-105)
106. () انظر سورة الرعد دراسة لسيد حنبكه ص 98, 99, 263 بتصرف. [↑](#footnote-ref-106)
107. () انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص 34. [↑](#footnote-ref-107)
108. () انظر قدامة بن جعفر والنقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة ص 278 الطبعة الثالثة المطبعة الفنية الحديثة 1389هـ. [↑](#footnote-ref-108)
109. () انظر الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز لعبد العزيز بن عبد السلام ص 203 ط دار الفكر بدمشق. [↑](#footnote-ref-109)
110. () الكشاف الزمخشري ص 349 ط دار الفكر بيروت. [↑](#footnote-ref-110)
111. () انظر البرهان للزركشي ص 426 جزء 3 تحقيق أبي الفضل إبراهيم. مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-111)
112. () انظر روح المعاني للألوسي ص 92, 102 ج 13 مطبعة إحياء التراث العربي بيروت. [↑](#footnote-ref-112)
113. \* سورة يوسف الآية 105. [↑](#footnote-ref-113)
114. () التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص 59, 61, 1286هـ. [↑](#footnote-ref-114)
115. () انظر الصيغ البديعي للدكتور أحمد موسى ص 33 الناشر دار الكتاب العربي القاهرة – 1388هـ - 1969م. [↑](#footnote-ref-115)
116. () انظر في تشبيهات القرآن لابن نافيا البغدادي ص 95. [↑](#footnote-ref-116)
117. () انظر الإنفاق في علوم القرآن للإسيوطي ص 131 جزء 2 الطبعة الثانية 1343هـ المطبعة الأزهرية بمصر. [↑](#footnote-ref-117)
118. () روح المعاني للألوسي ص 129. جـ 12 مطبعة إحياء التراث العربي ببيروت. [↑](#footnote-ref-118)
119. () انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب ص 35. [↑](#footnote-ref-119)
120. () انظر المثل السائر لابن الأثير ص 204 تحقيق محي الدين عبد الحميد. [↑](#footnote-ref-120)
121. () انظر الظلال لسيد قطب ص . [↑](#footnote-ref-121)
122. () الإتقان في علوم القرآن للأسيوطي ج 2 ص 132 البيان في تفسير أمثال القرآن لابن القيم بتصرف ص 13. [↑](#footnote-ref-122)
123. () انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن جنبكة ص 148. [↑](#footnote-ref-123)
124. () انظر تفسير أبي السعود ص 213. [↑](#footnote-ref-124)
125. () انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 116. [↑](#footnote-ref-125)
126. () سورة يوسف الآية 105. [↑](#footnote-ref-126)
127. () انظر الكشاف للزمخشري ص 351 طبعة دار الفكر بيروت. [↑](#footnote-ref-127)
128. () انظر تفسير سورة الرعد في الظلال لسيد قطب. [↑](#footnote-ref-128)
129. () انظر الظلال لسيد قطب ص 75, 76. [↑](#footnote-ref-129)
130. () سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 96. [↑](#footnote-ref-130)
131. () البرهان للزركشي ص 53 الجزء الثالث تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم الطبعة الثانية 1391هـ مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-131)
132. () انظر الظلال لسيد قطب الجزء الرابع ط دار الشروق. [↑](#footnote-ref-132)
133. () انظر تفسير أبي السعود ص 228. [↑](#footnote-ref-133)
134. () انظر الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لأحمد بن محمد بن المنير السكندري ص 361. علي هامش الكشاف للزمخشري – طبعة دار الفكر بيروت. [↑](#footnote-ref-134)
135. () انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 200, 256, 257. [↑](#footnote-ref-135)
136. () تفسير ظلال القرآن لسيد قطب. [↑](#footnote-ref-136)
137. () المصدر السابق ص 91, 92. [↑](#footnote-ref-137)
138. () التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد القيامة ص 261 لابتسام مرهون الصفار الطبعة الأولى. مطبعة الآداب في النجف 1387هـ نقلاً عن الصحاح للجوهري ولسان العرب لابن منظور. [↑](#footnote-ref-138)
139. () انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 69, 78. [↑](#footnote-ref-139)
140. () انظر تفسير الظلال لسيد قطب. [↑](#footnote-ref-140)
141. () انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني وعبدالقاهر ص 76 تحقيق. [↑](#footnote-ref-141)
142. () انظر سورة الرعد لعبد الرحمن حنبكة ص 126. [↑](#footnote-ref-142)
143. () انظر الظلال لسيد قطب ص 81. [↑](#footnote-ref-143)
144. () سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 122. [↑](#footnote-ref-144)
145. () انظر ظلال القرآن لسيد قطب ص 83 طبعة بيروت. [↑](#footnote-ref-145)
146. () انظر البرهان للزركشي الجزء 4 ص 113 تحقيق أبي الفضل إبراهيم الطبعة الثانية مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-146)
147. () تفسير أبي السعود ص 211, 212 تحقيق عبد القادر أحمد عطا. [↑](#footnote-ref-147)
148. () انظر الظلال لسيد قطب ص 82, 83. [↑](#footnote-ref-148)
149. () انظر سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 142 الطبعة الأولى 1391هـ 1971م. [↑](#footnote-ref-149)
150. () انظر تفسير سورة الرعد في ظلال القرآن لسيد قطب. [↑](#footnote-ref-150)
151. () الإتقان للسيوطي الجزء الثاني ص 49. [↑](#footnote-ref-151)
152. () انظر تفسير سورة الرعد في الكشاف للزمخشري. [↑](#footnote-ref-152)
153. () انظر تفسير أبي السعود ص 218 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-153)
154. () انظر تفسير أبي السعود ص 218 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-154)
155. () سورة الرعد دراسة لعبد الرحمن حنبكة ص 233. [↑](#footnote-ref-155)
156. () المصدر السابق ص 180, 181. [↑](#footnote-ref-156)
157. () انظر بيان إعجاز القرآن للخطابي ص 23 ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام مطبعة دار المعارف. [↑](#footnote-ref-157)
158. () راجع سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص 215, 216 شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي مطبعة صبيح 1389هـ. [↑](#footnote-ref-158)
159. () إعجاز القرآن للباقلاني ص 37, 38 ط الثالثة تحقيق أحمد صقر. [↑](#footnote-ref-159)
160. () انظر البرهان في علم القرآن للزركشي الجزء الأول ص 440 تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم الطبعة الثانية مطبعة الحلبي, والإتقان للسيوطي ص 156 الجزء الثاني الطبعة الثانية 1342هـ المطبعة الأزهرية. [↑](#footnote-ref-160)
161. () انظر الفصل الثاني من هذه الدراسة. [↑](#footnote-ref-161)
162. () انظر غرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ص 60 الجزء الرابع عشر بهامش الجزء الرابع عشر من تفسير الطبري الطبعة الأولى مطبعة بولائي. [↑](#footnote-ref-162)
163. () القرآن العظيم هدايته وإعجازه لمحمد الصادق عرجون ص 162. [↑](#footnote-ref-163)
164. \* سورة فاطر الآية 3. [↑](#footnote-ref-164)
165. \* سورة فاطر الآية 4. [↑](#footnote-ref-165)
166. () التعبير الفني في القرآن للدكتور بكري الشيخ أمين ص 181 مطبعة دار الشروق الطبعة الأولى 1393هـ. [↑](#footnote-ref-166)
167. () سنن الله في المجتمع من خلال القرآن لمحمد الصادق عرحون ص 46, 47 الطبعة الأولى الدار السعودية للنشر – جدة. [↑](#footnote-ref-167)
168. () سترك الأقران للسيوطي ص 38 نقلا من رسالة في الإعجاز للدكتور مصطفى مسلم ص 136 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-168)
169. () انظر الإتقان للسيوطي الجزء الثاني ص 103 الطبعة الثانية 343 المطبعة الأزهرية بمصر. [↑](#footnote-ref-169)
170. () انظر من بدائع النظم القرآني للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ص 135 مطبعة الجندي. [↑](#footnote-ref-170)
171. () الإتقان للسيوطي الجزء الثاني ص 66, ص 67 الطبعة الثانية 1343هـ - المطبعة الأزهرية. [↑](#footnote-ref-171)
172. () سورة النساء الآية 6. [↑](#footnote-ref-172)
173. () انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص 125, 126. [↑](#footnote-ref-173)
174. () البرهان للزركشي ص 42 وما بعدها تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-174)
175. () البرهان للزركشي ص 42, 43, 46 تحقيق أبي الفضل إبراهيم مطبعة الحلبي. [↑](#footnote-ref-175)
176. () انظر الفصل الأول من هذه الدراسة. [↑](#footnote-ref-176)
177. () سورة الزمر آية 23. [↑](#footnote-ref-177)
178. () سورة النساء الآية 82. [↑](#footnote-ref-178)
179. () انظر هذه الخصائص مفصلة في إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثالثة ص 35 وما بعدها تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف بمصر. [↑](#footnote-ref-179)
180. () انظر بحث جديد عن القرآن الكريم لمحمد صبيح ص 104 الطبعة السادسة. [↑](#footnote-ref-180)
181. () انظر إعجاز القرآن للباقلاني الطبعة الثانية ص 42 تحقيق أحمد صقر الطبعة الثالثة مطبعة دار المعارف بمصر. [↑](#footnote-ref-181)
182. () سورة الدخان الآيات 43, 44, 45, 46, 47, 48. [↑](#footnote-ref-182)
183. () انظر من بدائع النظم القرآني للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ص 14 وما بعدها مطبعة الجندي. [↑](#footnote-ref-183)
184. () انظر البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص 50, 51 الطبعة الثانية مطبعة دار المعارف بمصر. [↑](#footnote-ref-184)
185. () انظر إعجاز القرآن للباقلاني ص 42 تحقيق أحمد صقر الطبعة الثالثة مطبعة دار المعارف بمصر. [↑](#footnote-ref-185)
186. () انظر رسالة في إعجاز القرآن للدكتور مصطفى مسلم ص 119, 120. [↑](#footnote-ref-186)
187. () انظر الطراز للعلوي الجزء الثالث ص 221, 222 لمطبعة المقتطف بمصر تصحيح سيد بن علي المرصفي. [↑](#footnote-ref-187)
188. () انظر الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا الطبعة الثامنة ص 144. [↑](#footnote-ref-188)
189. () انظر مدخل إلى القرآن الكريم محمد عبد الله دراز ص 115 الطبعة الثانية طبعة دار القلم بالكويت. [↑](#footnote-ref-189)
190. \* سورة الإسراء. [↑](#footnote-ref-190)
191. \* سورة الملك. [↑](#footnote-ref-191)
192. () انظر أثر القرآن في تطور النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام الطبعة الثانية دار المعارف بمصر 1962م. [↑](#footnote-ref-192)
193. () انظر الأسس الجمالية في النقد العربي للدكتور عز الدين السيد ص 187 الطبعة الثانية لعام 1968م طبعة دار النصر بالقاهرة. [↑](#footnote-ref-193)
194. () انظر بديع القرآن لابن أبي الأصبع ص 106, 107, 166 وما بعدها, وإعجاز القرآن البياني للدكتور حفني محمد شرف ص 365. [↑](#footnote-ref-194)
195. () من بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوي ص 56 الطبعة الثانية مطبعة نهضة مصر. [↑](#footnote-ref-195)
196. () راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص 51 وما بعدها الطبعة الثانية تحقيق أحمد صقر مطبعة دار المعارف بمصر, وإعجاز القرآن لحفني محمد شرف ص 361, 362 واللغة الشاعرة لعباس العقاد ص 37. [↑](#footnote-ref-196)
197. () انظر مباحث في علوم القرآن لمناع القطان ص 267 الطبعة الخامسة مؤسسة الرسالة بيروت. [↑](#footnote-ref-197)
198. () انظر البيان العربي للدكتور بدوي طبانة ص 32 الطبعة السادسة. [↑](#footnote-ref-198)
199. () انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص 62 طبعة دار إحياء الكتب بالقاهرة 1954م. [↑](#footnote-ref-199)